كريستينا أولسون

مكتبة ٣٥٤

صبيّ الفضة

دار المنى

كريستينا أولسون

صَبيُّ الفِضَّةِ

النصّ العربي: علاء الدين أبو زينه

مكتبة | 354

دار المنى



First published in Swedish by Lilla Piratförlaget 2014
under the title: Silverpojken

Translation has been sponsored by the Swedish Art Council
Published by agreement with Salamonsson Agency
Printed at Scandbook AB, Sweden 2016
ISBN: 978 91 87333 67 5
www.daralmuna.com

١

كان الثلجُ يتساقطُ بكثافةٍ عندما شاهدَ علاءُ الدينِ الصبيُّ ذا السِّروالِ القَصيرِ لأولِ مرةٍ، لمحه واقفاً تحتَ سماءٍ رماديَّةٍ ملبدةٍ بالغيومِ، في البردِ القارسِ. كانَ علاءُ الدينِ ذاهباً إلى التزلُّجِ على الثلجِ مع صديقتِهِ بيلي؛ وقد جمَّدَ البَرْدُ النهرَ الذي يتدفقُ مخترقاً وسطَ أُوهوس، مُحوِّلاً شريطَ المياهِ الضيِّقِ إلى حلبةٍ لامعةٍ للتزلجِ على الجليدِ.

والدُ علاءِ الدين لا يتذكَّرُ آخِرَ مرَّةٍ حدَثَ فيها شيءٌ مثلَ ذلكَ:

«أنا أعيشُ في أوهوس منذُ عشرِ سنواتٍ تقريباً، ولم أرَ النهرَ يتجمَّدُ هكذا في وقتٍ مبكِّرٍ مثلَ نوفمبر».

واستمعَ علاءُ الدينِ إلى ذلك وهو يدُسُّ شطيرةً وقارورةً ملآنة بمشروب الشوكولاتةِ الساخنةِ في حقيبَةِ الظَّهرِ التي سيأخُذُها معَهُ.

انتقلَ والدا علاءِ الدينِ إلى السُّوَيدِ قادمَينِ من تركيا وهو ما يزالُ صغيراً. لكنّهُ الآنَ لا يتذكّرُ أيَّ شَيءٍ عن ذلك. وإذا سألَهُ أحدٌ عن بلَدِهِ، فإنه يقولُ دائماً: أنا من أوهوس.

يومَ رأى علاءُ الدينِ الصبيَّ ذا السّروالِ القصيرِ، كانَ على عجلَةٍ مِن أمرِهِ. كانَ يَعرفُ أنّهُ متأخّرٌ، ولَم يُرِدْ أن يجعلَ بيلي تنتظرُهُ مدةً طويلةً.

مرّةً أخرى، لم يكُن تأخّرُ علاءِ الدينِ في الخروج اليومَ أيضا خَطأَه هُوَ؛ وإنما خطأَ والدَيهِ اللذَينِ قرّرا بيعَ منزلِهِم والانتقالَ إلى مبنى بُرجِ الماءِ القديمِ حيثُ يوجَدُ مطعمُهما الآن: مطعمُ «التركيُّ في البُرج».

«ماذا تعنيان»؟ سألَ علاءُ الدّين في ذلكَ الوقت. «سنعيشُ في بُرجِ المياهِ؟ هذا جُنونٌ، لا يمكنُ أن نفعلَ هذا»!

«وما المانعُ؟» قالَتْ والدتُهُ. «نحنُ نملكُ المبنى كُلَّهُ، لكنّنا نستخدمُ الطابِقَ العلويَّ والطابقَ السفليَّ فقط للمطعَمِ، وبقيةُ الطوابِقِ خاويةٌ».

وهُوَ ما حصَلَ بالضّبطِ؛ قبلَ بضعةِ أسابيعَ انتقلوا إلى هنا، وترتَّبَ على علاءِ الدينِ الآنَ أنْ يركُضَ صاعداً خمسَةَ طوابق من السّلالم ليصلَ

إلى غرفَتِه وهو السّببُ في أنهُ يتأخّرُ دائماً عَن لقاءِ أصدقائِه. وقالتْ لهُ والِدتُهُ مازحةً إنّ صُعودَ الدّرج على هذا النحوِ سيُفيدُه، لأنّهُ سيُكسِبُهُ سيقاناً قويةً. لكنّ علاءَ الدين لم يجدْ تعليقَها مُسلّياً كثيراً؛ فهوَ في نهاية المطاف يعرِفُ السببَ الحقيقيّ وراءَ هذا الانتقالِ.

لم يكُنْ المطعمُ يُبلي بلاءً حَسَناً. ما عادوا يجنون مالاً وافراً منه، ولذلكَ كانَ بيع البيتِ هو أولُ ما فعلوهُ، ثُمّ مركبِهم العائمِ الذي يستخدمونَهُ منزلاً إضافِياً ويقيمونَ فيهِ صيفًا.

«هذه هي حالُ الجَميعِ؛ أحياناً تكسِبُ نقوداً أكثَرَ، وأحياناً أقلّ»، قالَ والدُ علاءِ الدينِ. «لا شيءَ يدعُو إلى القلق».

لكنّ علاءَ الدينِ شعر بالقلَقِ وراءَ كلماتِ والِدِهِ، وعرَفَ أنّهُ ليسَ على ما يُرامُ.

«كُن حذِراً»، قالتِ الأمُّ لعلاءِ الدينِ عندما انتهَى من تجهيزِ حقيبَةِ الظّهرِ. «تذكّرْ أنّ النهرَ متجمّدٌ عندَ نهايتهِ العلويةِ فقَط، وليسَ أبعدَ في الأسفلِ حيثُ ترسو القوارِبُ»!

«نعَمْ، نعَم»، قالَ علاءُ الدِّينِ وهو ينطلقُ خارجاً.

لكنّ أمّهُ نادتهُ مرةً أخرى، وقالتْ لَهُ: «لا تتأخّرْ على العَشاءِ، أُريدُ

أنا وأبوكَ أن نتحدَّثَ إليكَ»، وبدَتْ مهمومَةً بعضَ الشيءِ.

عبسَ علاءُ الدينِ: «هل حدَثَ شيءٌ»؟

«نتحدَّثُ عن هذا لاحقاً. اذهبِ الآن واقضِ وقتاً ممتعاً معَ بيلي»!

قالتْ ذلكَ واستدارَتْ عائدةً إلى المطعَمِ. وهبَطَ علاءُ الدِّين الدرجَ ببُطءٍ. ماذا يريدُ والداهُ أنْ يُحدِّثاهُ بشأنِهِ»؟

وبمجرَّد أنْ خَطا خارجاً من البابِ الأماميِّ، شاهدَ الصبيَّ. رآهُ واقفاً هناكَ على بُعدِ مسافَةٍ قصيرةٍ مُحدِّقاً في علاءِ الدِّين الذي فُوجِئَ بِهِ كثيراً، حتى كادَ يُسقِطُ حقيبةَ الظَّهرِ مِن يدَيهِ.

«مرحباً»، قالَ علاءُ الدِّينِ بعفويةٍ.

وقفَ الصَّبيُّ بجوار لافِتةِ المطعَمِ التي نصبَها والدُ علاءِ الدينِ، وبدا أنَّ هناكَ شيئاً غريباً بشأنهِ. على الرّغمِ منَ الطقسِ الباردِ، كانَ لا يرتدي سوى سروالٍ قصيرٍ وكنزةٍ صوفيةٍ مقلّمةٍ بالأبيضِ والأسودِ. وبدا أن نسيجَ السروالِ مصنوعٌ من خامةٍ خضراءَ سميكةٍ؛ وتراءى لعلاءِ الدينِ أن قماشه خشنٌ. وتحتَ السروالِ القصيرِ، ارتدَى الصبيُّ جوربَيْنِ طويلَيْنِ وحذاءً مخدوشاً وبالياً منَ الجِلدِ الأسودِ.

لَم يَرُدَّ الصبيُّ على تحيَّةِ علاءِ الدينِ؛ ووقَفَ هناكَ فقط مُحدِّقاً في الثلجِ. وتردَّدَ علاءُ الدينِ في متابعةِ طريقهِ. رُبَّما يجبُ أن يتوقَّفَ، لعلَّ الصبيَّ يحتاجُ إلى المُساعدَةِ؟

«هل أنتَ تائهٌ»؟ سألَه علاءُ الدينِ.

وبدا السؤالُ غبياً. تائهٌ؟ يبدو الصَّبي في الثانية عشرة من العمر، بعمر علاءِ الدينِ نفسه. ولو أنَّهُ تائهٌ لما وقَفَ هناكَ في الثلجِ مُحدِّقاً فيهِ.

ولَم يقُلِ الصبيُّ أيَّ شَيءٍ، إنَّما استدارَ وشرعَ في السَّيرِ نحوَ البُرجِ. أيكون والداه في المطعم؟

لكنَّ الصبيّ ذا السروالِ القصيرِ لَم يدخل البرجَ، بل انعطف حولَ البُرجِ واختفى.

نظرَ علاءُ الدينِ إلى ساعتهِ؛ وفكَّرَ بأنَّهُ لا وقتَ لديه ليواصلَ التفكيرَ في ذلكَ. إنهُ متأخرٌ عن لقاءِ بيلي مُسبقاً؛ لكنَّ فضولَهُ غلبَهُ؛ إذ أرادَ أن يرى إلى أينَ يذهبُ الصبيُّ.

وضعَ الحقيبة على ظهرهِ، وركَضَ حولَ البُرجِ. لكنَّهُ وقفَ بعدَ بضعةِ أمتارٍ فقط مُتسمِّراً في مكانِهِ. لم يَجِدْ أيَّ أثرٍ للصبيِّ.

«هلو، مرحَباً»، نادى علاءُ الدِّينِ.

لا جوابَ.

غريب.

حدّق في كلِّ زاويةٍ من حولهُ غيرَ عارفٍ ماذا يفعَلُ. بدا كما لو أنَّ الأرضَ انشقَّتْ وابتلعتِ الصبيّ، ببساطَةٍ.

٢

«ماذا تقصدُ، اِختفى»؟ قالتْ بيلي.

جلسَتْ هي وعلاءُ الدينِ على الرصيفِ إزاء النّهرِ وهما يضعان زلاجتيهما.

«اختفَى فقَط»، قالَ علاءُ الدّين مرّةً أخرى. «انعطف حول البُرجِ، وعندئذٍ - بوف! لا شيءَ. ما عاد هناكَ بكلّ بساطَةٍ».

كانَ علاءُ الدِّين قد ركضَ المسافة كلّها منَ البُرجِ إلى النهرِ، وتأخّرَ على بيلي بضعَ دقائقَ فقط.

«هذا غريبٌ»، قالتْ بيلي. «لا بدّ من أنهُ تجمّدَ برداً بالسّروالِ القصيرِ»؟

«لا أدري، لم يبدُ علَيهِ أنّهُ يشعرُ بالبردِ. وكانَ يرتدي جواربَ

طويلةً أيضاً. لهذا لم تكنْ ساقاهُ عاريتين تماماً».

«جواربَ طويلة»؟ قالتْ بيلي ضاحكةً.

ربطَتْ عُقدةً أخيرةً في رباطِ زلاجتِها واستوَتْ واقفةً. كانَ الكثيرُ من الناسِ يتزلَّجونَ على النهْرِ المُتجمِّدِ. انحنَتْ وأخرجت شيئاً من حقيبةِ يدٍ جلبتْها معَها. سترةُ نجاةٍ.

انفجرَ علاءُ الدينِ بالضحكِ. «لا، لنْ ترتدي هذهِ، لَن تفعَلي»!

«يجبُ أنْ أفعَلَ»، قالتْ بيلي. «وإلا تغضَبُ ماما. قالتْ إنّها لن تسمَحَ لي باللعبِ على الجليدِ بِدونِ سترةِ النَّجاةِ ».

بدَت بيلي مثلَ فيلٍ صغيرٍ عندما ارتدَتْ سترةَ النجاةِ فوقَ معطفِها الشّتوي السّميكِ. وضعَت خوذتَها على رأسِها وسحقَتْ بها قبّعتَها الصوفيةَ على جبينِها. وتنهّدتْ عندَما واصلَ علاءُ الدينِ الضّحِكَ.

«حسناً، هيّا بنا»، قالَ وهُو ينطلِقُ على ساقَينِ مُترنّحَتينِ.

«قالَتْ أُمّي إنَّ علينا التزامَ الأماكنِ التي نتأكّدُ فيها أنَّ الثلجَ متماسكٌ بما يكفي»، قالتْ بيلي.

«وأمي قالتِ الشيءَ نفسَهُ». قالَ علاءُ الدينِ.

«وليسَ مسموحاً أن نقتَربَ مِن مركبِ اللاجئينَ أيضاً».

مركبُ اللاجئينَ هو مركبُ صيدٍ كبيرٍ يرسو في الميناءِ، ظهرَ هناكَ ببساطةٍ ذاتَ صباحٍ مكتظاً بأناسٍ قادمينَ من بلدٍ آخر. وبادرت الصحفُ إلى تسميتِه مركبَ المهاجرين. لم يبْدُ أنَّ أحداً يعرفُ ماذا يحدُثُ للمركبِ نفسِهِ، أو للناسِ الذينَ على متنِهِ. بل إنَّ علاءَ الدينِ لم يكنْ يعلمُ منْ أينَ أتَوا، لكنَّهُ عرفَ سببَ امتناعِهم عن مغادرةِ المركبَ؛ فهم يريدونَ البقاءَ هُنا في السويدِ، ولا يريدونَ أن ينتهيَ بهِمُ المطافُ في أحدِ مراكزِ استقبالِ المهاجرين. وإذا أُرغموا على مغادرةِ أُوهوس، ربما يبحِرونَ مبتعدينَ في إحدى الليالي.

كانَ الميناءُ طويلاً وضيِّقاً؛ لا يَتسعُ إلا حينَ يصِلُ إلى البَحرِ. ومعَ أنَّ الوقتَ هو بدايةُ الشتاءِ فقط، شعرَ علاءُ الدينِ بالشَّوقِ إلى الصَّيفِ، عندما يُفتحُ قاربُ بَيعِ المثلَّجاتِ وتعجّ شوارعُ البلدةِ بالنَّاس. لكنَّ أوهوس تبدو قاتمةً وهادئةً جداً في الشتاءِ.

لَم تكُنْ بيلي ولا علاءُ الدينِ متزلجَينِ ماهِرَينِ على الجليدِ بشكلٍ خاصٍّ، وإنَّما كانا يتزلَّجان فقط لأجلِ المرَحِ. وقدْ عبرا تَوّاً من أمامِ أحدِ المطاعمِ قربَ الميناءِ عندما مرَّ بهما ولدانِ أكبرُ منهما وهما يُخدِثانِ أزيزاً، منطلِقَينِ بسرعةٍ كبيرةٍ على زلاجَتَيهِما. لمْ يجِدْ علاءُ الدينِ الوقتَ

ليستوعبَ ما يَجري؛ وإنما شعرَ فقط بشخصٍ يندفعُ نحوه مثلَ قذيفةٍ مدفَعٍ، وفقدَ توازُنَهُ. وأحسَّ بصلابةِ الجليدِ وبرودتِهُ عندما انبطح على وجهه.

«انظرا حيثُ تمضيان»! صرخَتْ بيلي في أعقابِهما بغضَبٍ. لكنَّ الولدَينِ ضحِكا وتابعا طريقَهُما.

«حمْقَى»، دمدَمَ علاءُ الدينِ وهو يناضلُ ليقفَ على قدَمَيهِ. وشَعَرَ بوخْزٍ حادٍّ في ركبتَيهِ لمّا اسْتوى واقِفاً.

«هل تأذَّيتَ»؟ سألتْهُ بيلي بقلَقٍ.

«أنا بخيرٍ»، أجاب علاءُ الدينِ وهو ينفضُ الثلجَ عن ملابِسهِ. وعندَئذٍ رأى الصبيَّ صاحِبَ السروالِ الأخضرِ القصيرِ مرّةً أخرى.

ثمّةَ بقايا قلعةٍ قديمةٍ تستريحُ على تلّةٍ صغيرةٍ وراء المطاعمِ. وكانَ الصبيُّ يقفُ على جدارِ القلعةِ، مُحَدِّقاً هُناكَ عبرَ الجليدِ.

«هناكَ»، هتفَ علاءُ الدينِ، وهو يشيرُ بيدِهِ. «أترينَهُ؟ هناكَ فوقَ التلّةِ»؟

نظرَتْ بيلي إلى حيثُ أشارَ. «لا أرى أحَداً».

«أنتِ عمياءُ؟» قالَ علاءُ الدينِ وهو ينظرُ إليها بغضَبٍ. «إنَّهُ

هناكَ، فوقَ جدارِ القلعةِ»!

وأشارَ بيدِهِ مرّةً أخرى وأنفاسُه تتحولُ إلى بخارٍ في الهواءِ البارِدِ.

وقفَ بهدوءٍ على الثلجِ المجمدِ ثم أنزلَ ذراعَهُ ببطءٍ. لقد اختَفى الصبيُّ. اختَفى مُجدّداً.

٣

عبقَ المكانُ برائحةِ الثومِ. كانت والدةُ علاءِ الدينِ قد جلبَتِ الدجاجَ والأرُزَّ من المطعمِ للعَشاءِ. لكنَّ بالَهُ ظلَّ مشغولاً بالصبيِّ الذي اختفى، حتى أنهُ نسيَ أنَّ والدَيهِ يريدانِ مُفاتحته بأمرٍ ما. ثم ما لبِثَ أن تذكّر.

رانَ الصمتُ على المائدَة؛ نوعٌ غريبٌ من الصّمتِ. غريبٌ أن ثلاثَتَهم مجتمعون على المائدة هذهِ الليلَة؛ لم يحدُثْ هذا منذُ فترةٍ طويلةٍ لأنَّ بابا وماما يعملانِ طوالَ الوقتِ تقريباً.

وأخيراً تحدّثتْ والدتُه: «علاءَ الدين، نحنُ آسفان لأن نسألَكَ عن هذا، ولكنْ... أكُنتَ تأخذُ الطعامَ منَ المطعَمِ»؟

فوجِئَ علاءُ الدينِ كثيراً إلى درجة أنهُ حارَ في الجواب. «لا.

لماذا يُمكنُ أن أفعلَ ذلكَ»؟

كانَ يعرفُ أنّهُ غيرُ مسموحٍ لهُ أن يأخذ أيِّ شيءٍ منَ المطعمِ ما لَم يستأذِنْ أولاً. وهو ما فعلَهُ دائماً.

«الأمرُ هو»، قالَ والدهُ وبدا كأنّه قد ارتاحَ قليلاً، «هناكَ طعامٌ يُفقدُ منَ المطبَخِ».

«كَم منَ الطعامِ»؟ سألَ علاءُ الدينِ.

«الكثيرُ جداً، في الحقيقةِ»، أجابتْ أمُّهُ. «في البدايةِ لَم نُعِرِ المسألةَ اهتماماً كبيراً، لكنْ كُراتَ ميرجا كلّها من اللَّحمِ المفرومِ المحشوةِ بالجُبنِ تُفقَدُ، وهو شيءٌ مُزعجٌ لأنهُ يترتبُ على الزبائنِ أن ينتظِروا حتى أُعِدَّ كميّةً جديدةً».

كانَت ميرجا، جدّةُ علاءِ الدينِ التُركيةِ، هي التي أعطتْ وصفةَ كُراتِ اللحمِ لوالدَيهِ، ولذلك سُميَت الوجبَةُ على اسمِها. وكانت كُراتُ ميرجا طَبَقاً يحظى بشعبيّةٍ كبيرةٍ لدى الزبائنِ، ولذلكَ احتفظَ والداهُ دائماً بمخزونٍ جاهزٍ منها في الثلاجةِ.

«هذا غريبٌ»، قالَ علاءُ الدينِ.

لَم يعرفْ ماذا يقولُ بالضبطِ؛ هل ظنَّ والداهُ حقاً أنَّهُ تحوَّلَ إلى لِصٍّ؟ إذا كانَ الأمرُ كذلكَ، فهذا شيء مُزعِجٌ قليلاً.

«ما جعلَكُما تظُنان أنَّهُ أنا». سألهما. «أعني أنهُ يمكِنُ أن يكونَ أيَّ شخصٍ».

شرعَ والداهُ في الكلامِ معاً في الوقتِ نفسهِ.

«الحَقيقةُ أنَّ هذا الأمرَ مستمرٌّ منذُ أكثرِ من أسبوعٍ»، أوضحتْ أمُّهُ. «في الليلِ يكونُ الطعامُ في الثلاجةِ، وفي الصباحِ التالي يختفي. والأشخاصُ الذين بمقدورهم الوصُول إلى المطبخِ في الليلِ ليسوا كُثراً».

وهذا صحيحٌ، بطبيعةِ الحالِ. لا يستطيعُ إلا علاءُ الدينِ ووالداهُ فقط دخولَ المطبخِ بعدَ إغلاقِ المطعَمِ. ثم خطرَت له عندئذٍ فكرة.

«ماتس لديهِ مجموعةُ مفاتيح».

كانَ ماتس هو ذراعُ والدَيهُ الأيمنُ في المطعَمِ. هو الذي يتولى التسوُّقَ، والتنظيفَ وغَسلَ الأطباقِ، وهوَ المسؤولُ أيضاً عنِ إجراءِ

التصليحاتِ الطفيفةِ.

«خطرَ هذا في بالِنا أيضاً»، قالَ والدُهُ. «لكنَّ ماتس مُخلصٌ، وأنتَ تعرفُ ذلكَ. لا يمكنُ أن يفعلَ شيئاً كهذا أبداً».

لم يُصدّقْ علاءُ الدينِ أنّهما يمكنُ أن يكونا متأكّدين مِن ذلكَ. وقالَ، «ربما أعارَ المفتاحَ لشخصٍ آخر؟ شخصٍ يدخلُ ويسرقُ الطعامَ بدونِ أن يعرفَ ماتس شيئاً عنِ الأمرِ».

لاحَ القلقُ على والديهِ.

«لعلّكَ مصيبٌ»، قال والدُهُ. «لكنّي أودُّ أن أعرِفَ في هذهِ الحالةِ ما يجعلُ ماتس يُعيرُ مفتاحَنا لغريبٍ».

نظرَت والدةُ علاءِ الدينِ إليهِ بعينَينِ حانيتَين. «كنتُ آملُ أن تكونَ أنتَ من يأخذُ الطعامَ يا حبيبي. فكّرتُ أنَّ أحدَ أصدِقائِكَ ربما يعاني مشكلةً في البيتِ وأنكَ تحاولُ مساعدَتَهُ، والآن لا أرى أن هذا هو واقعُ الحالِ».

لم يقُلْ علاءُ الدينِ شيئاً فترةً من الوقتِ. رسخ لديه الاعتقادُ بأنَّ والدَيهِ ما زالا يُخفيانِ شيئاً عنه؛ شيئاً أكبرَ من مجرّدِ غُموضِ

اختفاءِ الطعامِ.

«هل حدَثَ شيءٌ آخرُ»؟ سألَ في نهايةِ المطافِ.

تبادل الوالدان النّظر، ثم نظرا إلى علاءِ الدينِ.

«حسناً»، بدأ أبوهُ. «ربّما. إنهُ شيءٌ لا حاجةَ إلى الدخولِ في تفاصيلهِ في هذهِ اللحظةِ. ولكنْ... أنتَ تعلمُ أننا نواجِهُ مُشكلاتٍ مؤخراً؟ أعني مشكلاتٍ ماليةً».

أطرقَ علاءُ الدينِ. «هذا هوَ السبَبُ الذي جعلَنا نبيعُ المنزلَ والقاربَ».

«بالضّبط»، أجابت أمُّهُ. «سوى أن الأوضاعَ لم تتحسّنْ. لقد أصبحَتْ أسوأَ في الحقيقةِ».

«أسوأ»؟

«كما قلتُ، لا حاجةَ إلى الدخولِ في التفاصيلِ الآنَ»، قال والدُه بسرعةٍ.

«ولكنْ...»

هزّتْ والدةُ علاءِ الدينِ رأسَها. «ليسَ هذا شيئاً يجبُ أن

تقلقَ بشأنِهِ يا علاءَ الدينِ. فكِّرْ في الطعامِ المفقودِ وأخبِرْنا إذا خرجتَ بأفكارٍ حولَ من يمكنُ أن يكونَ الفاعلُ. لولا متاعِبنا تلكَ، لكُنّا ضحِكنا من هذا الأمرِ ليس غير، لكنَّهُ في هذهِ الظروفِ شيءٌ خطيرٌ».

كادَ علاءُ الدينِ يقولُ لهما أنَّهما مُخطِئان، وأنَّ الأمرَ يَهُمُّ العائلةَ كلَّها إذا كانَ المالُ ينفَدُ منهُم. ثمَّ خطَرَ لهُ عندئذٍ أن شخصاً آخرَ ربما يكونُ هو الذي يسرقُ الطَّعامَ.

«رأيتُ صَبياً أمسِ عندما ذهبتُ لأتزلَّجَ. كان يرتدي سروالاً قصيراً في هذا البردِ القارسِ. كانَ يقفُ في الثلج عندما خرجتُ من هنا؛ أتساءلُ ما إذا كانَ هوَ الذي يأخذَ الطعامَ»!

«صبيٌّ؟ بسروالٍ قصيرٍ»؟ كرَّر والدُهُ ببُطء.

هزَّ علاءُ الدينِ رأسَهُ.

«رأيتُهُ مرتَينِ، مرَّةً في الحديقةِ ثُم مرَّةً أُخرى ناحية النَّهرِ. كانَ يقِفُ على جِدارِ القلعَةِ».

تحسَّسَتْ أمُّهُ شعرَها بيدِها لتتأكدَ من أنَّ جديلَتها السميكةَ

ما زالت متماسِكةً. «ربّما هو أحدُ الأولادِ من مركبِ اللاجئين»، قالت. «هؤلاءِ المساكينُ ما زالوا يعيشونَ في المركبِ».

بدا والدُ علاءِ الدينِ كأنّهُ ارتاحَ بعضَ الشيء. «تعالَ وأخبِرْنا في المرةِ القادمةِ عندما تراهُ حتى نتحدّثَ معَه. وهو على الرّحبِ والسَّعةِ ليأخذَ كلَّ الطعامِ الذي يمكنُ أن أدّخِرَهُ، لكن سيكونُ من الأسهلِ لو أنّهُ لم يسرِقْ مِنا؛ إذا كانَ هو الذي فعلَ ذلكَ، بطبيعةِ الحالِ».

«ولكنْ، كيفَ يدخلُ المطعمَ»؟ قالت أمُّه. «الأبوابُ تكونُ مقفلةً في الليلِ».

«رُبّما يدخلُ عندما يكونُ المطعَمُ مَفتوحاً، ثُمّ يختَبئُ إلى أن نغادرَ لننام؟ في البرجِ أماكِن كثيرةٌ للاختباء».

ارتعشت أمُّهُ. «لا أستطيعُ تقبُّلَ فكرةِ طفلٍ يتجوّلُ في الداخلِ هُنا، لكنّ هذا شيءٌ كان ينبغي أنْ نُفكِّرَ فيهِ، يستطيعُ أيُّ شخصٍ أن يبقى داخلَ البرجِ بعدَ أن نغلِقَ أبوابَهُ».

سرَتْ قشعريرةٌ في أطرافِ علاءِ الدِّينِ. هناكَ شخصٌ ما يدخلُ

فِي الليلِ ويسرِقُ الطَّعام. أيُمكنُ حقاً أن يكونَ الصبيّ صاحب السّروالِ القصيرِ؟ ثُمْ قرّرَ أنهُ لا يَهُمْ حقاً مَن يكونُ السّارقُ. ثمّةَ أحدٌ ما يدخلُ بُرجَهُم، يدخُلُ بيتَهُم بلا استئذان.

هناكَ شخصٌ ما يأخذُ الأشياءَ مِنْ مطعَمِهم.

وليسَ هذا خطأً فقط. إنّهُ فِي الحقيقَةِ شيءٌ رهيبٌ.

٤

حلّت عطلَةُ نهايَةِ الأسبوعِ من جديد. وجلَسَ علاءُ الدينِ وبيلي في غُرفةِ علاءِ الدينِ يأكلانِ الحلوى. كانَ الثلجُ يتساقَطُ في الخارجِ، ولم يُرِدْ أيٌّ منهُما الخُروجَ. واختفى مَزيدٌ منَ الطّعامِ مِن المَطعَمِ.

لم يرَ علاءُ الدّينِ أيَّ أثَرٍ للصبيّ صاحِبِ السّروالِ القَصيرِ، وشرَعَ في التساؤُلِ عمّا إذا كانَ قد تخيّلَ الأمرَ كلَّهُ مِنَ الأساسِ.

«لصٌّ»؟ قالَت بيلي. «أتقولُ الصّدقَ»؟

لم يكونا قد التقيا طوالَ الأسبوعِ. كان علاءُ الدينِ مشغولاً بالمدرسَةِ وإنجازِ فروضِهِ المنزليةِ ودروسِ البيانو وطائراتهِ الصّغيرَةِ. ولَم يعرفْ ماذا فعلَتْ بيلي خلالَ الأسبوعِ. ربّما هي أيضاً شُغِلت بفروضِها المنزليّةِ. وربما قرأَتْ حمولةً من الكُتبِ؛ لم يعرفْ علاءُ

الدّينِ أحداً يقرأُ بكَثرةٍ مثلَ بيلي.

«أقولُ الصّدقَ»، أجابَ. «هناكَ شخصٌ ما يتسلّلُ إلى بُرجِنا في الليلِ ويسرِقُ الطّعامَ. ويعتقدُ والدايَ أنهُ رُبما يكونُ واحداً من أبناءِ اللاجئينَ في المركبِ».

«ألَمْ يُبلِّغ والداكَ الشُّرطةَ»؟

تنهّدَ علاءُ الدِّينِ. بالطّبع فعلا، لكنَّ لدى الشرطَةِ مشاغلَ أخرى أهمّ منَ البحثِ عن كُراتِ اللحمِ المسروقةِ على ما يَبْدو.

«ربما أتحدَثُ معَ جوزيف»، اقترحَتْ بيلي. «أنا متأكدَةٌ من أنّهُ يستطيعُ المساعدَةَ».

وجوزيف هو ضابطٌ في الشُّرطةِ، وصديقُ والدةِ بيلي.

«سيكونُ ذلكَ رائعاً»، قالَ علاءُ الدينِ؛ فهُوَ يُحبُّ جوزيف. «ولكنْ لا تذكُري لهُ أنّ اللصّ قد يكونَ مجرّد صبيٌّ؛ لا يريدُ أبي تدخُّلَ الشرطةِ إذا كانَ الأمرُ كذلك».

عميقاً في داخلهِ، تساءَل علاءُ الدينِ عمّا يمكِنُ أنْ يفعَلَ جوزيفُ. على مدى أسبوعٍ تقريباً بقِيَ والدُهُ مستيقظاً في الليلِ

يُراقِبُ السلالِمَ، راقبها بضعَ ساعاتٍ مِنَ الليلِ فقط للإنصافِ، لأنَّه احتاجَ أنْ ينالَ قسطاً من النَّومِ. ولم يرَ شيئاً. وظلَّ الطعامُ يختفي مِنَ الثلاجةِ؛ وآخرُ ما اختفى كميةٌ كبيرةٌ من سلطةِ الفواكهِ التي كانت أمُّ علاءِ الدِّينِ قد أعدَّتها في المَساءِ.

تناولَتْ بيلي قطعةً أخرى منَ الحلوى. «هل يَهُمُّ حقاً اختفاءُ قَدرٍ قليلٍ منَ الطعامِ؟» قالت. «أعني، لدى والديكَ أطنانٌ منَ الطَّعامِ، والكثيرُ منَ المَالِ».

أطرقَ علاءُ الدِّينِ برأسِه إلى الأرضِ. إنَّهُ يعرِفُ أنَّ الكثيرَ منَ الناسِ يُشاركونَ بيلي رأيَها؛ ويعتقدون أن والديهِ يجبُ أن يكونا أغنياءَ، لمجرّد أنَّهُما يمتلكانِ مَطعَماً.

«لا أعتقدُ أنَّه تبقَّى لدينا الكثيرُ منَ المالِ»، قالَ بهدوءٍ. «وهذا هو السَّببُ في قلقِهما على هذا الطعامِ. ماذا لو بدأ اللصُّ يأخذُ أشياء أُخرى»؟

كانَ والدُه قد تحدَّثَ كثيراً عنِ النقودِ في الآونةِ الأخيرةِ، عادةً عندما يعتقدُ أنَّ علاءَ الدينِ لا يَسمَع. لم يكُنْ علاءُ الدينِ يعرفُ

الكثيرَ عنِ الأمورِ الماليةِ، لكنَّهُ يعرفُ أنَّ كلَّ شيءٍ يُكلّفُ مالاً.

إذا كنتَ لا تستطيعُ أن تدفعَ ثمنَ ما تحتاجُه، فستكونُ لديكَ مشاكلُ... مشاكلُ كبيرةٌ، إذا لازمكَ سوءُ الطالعِ.

اكتسى وجهُ بيلي بالجَدِّيةِ وهي تُصغي إلى شَرحِهِ.

«يجدرُ بنا أنْ نفعلَ شيئاً»، قالت بحزمٍ. «ألا يمكِنُ أن يكون اللصُّ هو ذلكَ الرجلُ الذي يبدو مُكتئباً على الدَّوامِ؟ الرجلُ الذي يعملُ في المطعمِ؟ ما اسمُهُ؟... ماتس! هذا هو، ماتس. يبدو أن اللصّ يدخلُ باستخدامِ مفتاحٍ. أليسَ كذلك»؟

«لقد فكّرنا في هذا، لكنَّ أبي تحدَّثَ إلى ماتس وتبيّنَ أنهُ ليسَ هو، على ما يبدو».

لم يكُنْ علاءُ الدينِ مُقتنعاً تماماً. لم يُحبّ ماتس هذا أبداً؛ ليسَ لأنه غبيٌّ وغيرُ بشوشٍ، وإنما لأنهُ غريبُ الأطوارِ. لكنَّ والديهِ يُحبّانِهِ لأنهُ جيِّدٌ في عملهِ؛ كانَ سريعاً وكُفؤاً. إلا أنّ علاءَ الدينِ ما انفكَ يتساءلُ عنِ السَّببِ في حُزنهِ الشديدِ.

كان رجلاً ضَخماً. وإذا كنتَ في المطعمِ بينما يغسلُ ماتس

الأواني هناك، فمنَ المستحيلِ أنْ لا تُلاحظَهُ.

ولَمْ تكُن بيلي تُحبُّ ماتس أيضاً. «ماذا تعني بقولِكَ أنَّ والدَكَ تحدَّثَ إليهِ؟ إذا كانَ ماتس هو اللصُّ، أفليسَ من الصّعب أن يعترف بذلك؟ يجبُ أنْ تضبِطَهُ بالجُرمِ المشهودِ»!

ابتسمَ علاءُ الدينِ. يضبطُهُ بالجُرمِ المشهودِ تماماً مثلما حاولَ هو وبيلي القَبْضَ على شبحٍ في منزلِ بيلي الجديدِ بعد وقتٍ قصيرٍ من انتقالِ عائلتِها إلى أوهوس.

«لم يقتصرْ الأمرُ على أنَّ أبي تحدَّثَ إليه فقط»، أوضح علاءُ الدينِ. «يبدو أن ماتس كان بعيداً عنِ القريةِ أيضاً في عدّةِ مناسباتٍ عندما اختفى الطعامُ. ولذلكَ لا يمكنُ أن يكونَ هو».

تعرّفَ علاءُ الدينِ إلى بيلي منذُ بضعةِ أشهرٍ فقط. وأصْبَحا صديقَينِ خلالَ الصيفِ عندما انتقلت هي وأمُّها إلى أوهوس قادمتين من كريستيانستاد. وعرفَ علاءُ الدينِ أنَّ بيلي كرهتِ الإقامةَ هنا في البدايةِ، ولذلكَ ما زالت تذهبُ إلى مدرستِها القديمةِ في كريستيانستاد، حتّى مع أنها تبعدُ أكثرَ من عشَرَةِ كيلومترات.

وتمنى علاءُ الدينِ لو أنّها تُغيرُ رأيَها وتنتقلُ إلى المدرسةِ في أوهوس، لأنهما سيكونانِ عندئذٍ في الصفِّ نفسِه.

«علينا أن نتجسّسَ على ماتس، وعندَئذٍ نتأكّدُ»، قالت بيلي. «لعلّه يكذِبُ. ربما لم يكُنْ خارجَ البلدةِ على الإطلاقِ»!

انفجرَ علاءُ الدينِ بالضحكِ. «أنتِ تمزحين! لا يمكنُ أن نفعلَ ذلكَ! لا يمكنُ أن يتجسّسَ المرءُ على الناسِ هكذا ببَساطةٍ»!

«طبعاً يُمكِنُكَ ذلِك! وهذا مُهمٌّ. ماذا لو نفدَ المالُ من والدَيك؟ ماذا ستفعلُ عندئذٍ»؟

كانَ ذلكَ شيئاً لا يريدُ علاءُ الدينِ أن يفكرَ فيهِ حقاً. لا يمكنُ أن ينفدَ منهُم المالُ. لا يمكنُ أنْ يحدُثَ هذا.

«هل يعملُ ماتس اليوم»؟ سألَتْ بيلي.

هزَّ علاءُ الدينِ رأسَهُ. إنَّهُ يومُ السبتِ، وهوَ يومُ عطلةِ ماتس.

«قالَ إنهُ ينوي الذّهابَ إلى مالمو لزيارةِ والدتِهِ. لن يعودَ حتى الغدِ».

«هذا نموذجيّ»، قالت بيلي.

ثم انفرجت أسارير وجهِها فجأةً.

«بل في الحقيقةِ، هذا رائعٌ »!

«ماذا تعنين»؟

«حسناً، قالَ إنَّهُ سيذهبُ، وبذلكَ نستطيعُ أن نقصدَ مسكنَهُ ونرى ما إذا كانَ هناك. حينها نتأكّد من أنَّهُ يكذِبُ».

لم يكُن علاءُ الدينِ واثقاً تماماً. «وكيفَ سينفَعُ ذلِك؟ إنهُ يعرفُنا جيّداً، ماذا نقولُ إذا التقينا بهِ»؟

فكّرتْ بيلي لحظةً. «سنتّصلُ بسيمونا ونطلبُ منها أن تأتيَ بالحافِلةِ. هو لا يعرفُها».

كانت سيمونا تعيشُ في كريستيانستاد؛ وهي صديقةٌ بيلي، وأصبَحت صديقةً لعلاءِ الدينِ أيضاً.

فكّرَ علاءُ الدينِ في الأمرِ، وقررَ أنَّها فكرةٌ جيدةٌ. «حسناً، سأذهبُ وأعثرُ على عنوانِ منزلِ ماتس».

لكنَّ قولَ ذلكَ أسهلُ من عملِهِ. كانَ اسمُ ماتس شائعاً جداً بحيث بدا من المستحيلِ البحثُ عن عنوانهِ في الإنترنت؛ هناكَ

الكثيرُ جداً من الناسِ الذين يُدعَون ماتس. ولم يرِدْ علاءُ الدينِ بالتأكيدِ أن يسألَ والدَيهِ عن العنوان، ولذلكَ تسلّلَ إلى غرفةِ نومهِما ليبحثَ عن حقيبةِ يدِ والدتِهِ.

إنها تحملُ دائماً دفترَ عناوينِها معَها، ولا بُدَّ من أن يكونَ عنوانُ ماتس هناك. وبحثَ علاءُ الدينِ في كلِّ مكانٍ، لكنَّهُ لم يعثُرْ على الحقيبةِ.

ركضَ هابِطاً إلى المكتبِ؛ ووجدَهُ غارقاً في الفوضى كالمعتادِ، ورأى الأوراقَ متناثرةً في كلِّ مكانٍ.

أضاءَ علاءُ الدينِ المصباحَ وتنهَّد، وشرعَ في البحثِ بينَ الأشياءِ المبعثرة بفوضويةٍ على المكتبِ. ربما يجدُ شيئاً ينوون إرسالَه إلى ماتس على عنوانِ مسكنِهِ، رُبَّما قسيمةُ راتبِهِ، مثلاً؟

لم يرغَب علاءُ الدينِ في أن يعرفَ أحدٌ أنهُ دخلَ إلى هناك، لكنَّ عدمَ تركِ آثارٍ صعبٌ؛ كان منَ المستحيلِ أن يتذكَّرَ كيفَ بدا كلُّ شيءٍ عندما بدأ يبحثُ. وكاد يستسلمُ ويتخلى عن المحاولَةِ عندما رأى مغلقاً عليهِ اسمُ ماتس. كانَ المغلّفُ مختوماً، فلم يعرف

ما فيه، وذلكَ لم يكُن مُهِماً. المُهمُّ هو العنوانُ.

وميّزَ خطَّ يدِ والدتِهِ:

ماتس إريكسون

غيتينغ فيغِن ٤١

أوهوس

غيتنغ فيغِن. هذا المكانُ ليسَ بعيداً عن منزلِ بيلي. رائع.

ركضَ علاءُ الدينِ عائداً إلى غرفتهِ. كانتْ بيلي قد ذهبَت لتغسلَ يديْها. ووجدَ علاءُ الدينِ قصاصةَ ورقٍ وكتبَ عليها العُنوانَ. ألقى نظرةً خارجِ النافذةِ ولاحظَ أنَّ الثلجَ قد توقَّفَ عنِ التساقطِ. جيّد. هذا سيُسهّلُ الأمورَ كثيراً.

لكنهُ رأى آنذاك شيئاً جعلَهُ ينسى ماتس والطعامَ المفقودَ معاً.

كانَ الصبيُّ ذو السروالِ القصيرِ يقفُ وسطَ الثلجِ عند أسفلِ البُرجِ، مباشرةً إلى جوار يافِطةِ المطعَمِ، بالضَّبطِ حيثُ رآه علاءُ الدينِ في المرّةِ الأولى.

لم يتحركْ علاءُ الدينِ. ولم يتحركِ الصبيُّ الواقفُ في الثلجِ أيضاً.

عادتْ بيلي من الحمامِ، وسألتهُ. «ما الذي تنظرُ إليهِ»؟

ولم يرفعْ علاءُ الدينِ نظرَهُ عن الصبيِّ. لاحظَ أنّه هذه المرّة لم يكنْ يرتدي الملابِسَ نفسها؛ وإنما ارتدى سُترةً بدلاً منَ الكنزةِ.

«الصبيُّ ذو السروالِ القصيرِ»، أجابَ عنْ سؤالِ بيلي همساً، كما لو أنهُ يخافُ أن يسمعَهُ الصبيُّ إذا رفعَ صوتَه.

اقتربَت بيلي ونظرَتْ من النافذةِ. «أين»؟

«ألا ترينَه»؟ قالَ علاءُ الدينِ بصَبرٍ نافِدٍ. «هناك»!

شرعَ الصبيُّ في السيرِ، واختفى عن الأنظارِ. بدا أنَّه يتجهُ إلى الناحية الخلفيّة من البرجِ.

اندفعَ علاءُ الدينِ خارجاً من غرفتِهِ وهابطاً السلالمَ.

«إلى أينَ أنتَ ذاهِبٌ»؟ هتفتْ بيلي.

لكنّهُ لم يكُن يفكرُ بما يفعلُه، وإنما جرى ببساطةٍ، مباشرةً خارجِ البابِ وإلى الثلجِ في الخارجِ، وبجوربيهِ فقط. وأخذ يلهثُ عندما ركضَ حولَ البرجِ.

ليسَ مرةً أخرى، فكّر وهوَ يتوقفُ عند الشُجيراتِ ليلتقطَ أنفاسَهُ.

كانَ الصبيُّ قد اختفى ثانِيةً.

وقفَ علاءُ الدين وحده، وقلبُهُ يقفزُ في صدرهِ. ولأولِ مرةٍ اعتراه الخوفُ حقاً. كيفَ يحدُث أنّ الصبيّ يختفي دائماً بسرعة؟ لماذا لا يبقى ويقولُ ما يريدُ؟

٥

كانتْ قدما علاءِ الدين تكادان تتجمّدان حينَ عادَ إلى الدفءِ. وكانت أمُّه تنتظرُه، بعدَ أن رأتهُ يندفِعُ راكضاً إلى الثلج بجوربيهِ.

«هل فقدتَ رُشدَك»؟ صاحت به باللغة التركية. «تذهبُ إلى الخارج بلا حذاء! ستموتُ من البرد»!

ثمّ رأت بيلي فخفّفت من حدّةِ لهجتِها. كانت هيَ والأبُ يخاطبان ابنَهُما دائماً باللغة التُّركيةِ، لكن ليسَ في حضور الأصدقاءِ.

«أنا وأبوكَ لدينا عمَلٌ لنعملَه»، قالت أمُّه. «بما في ذلك أيام السَّبتِ أيضاً. أنتَ أكبرُ من أن تفعلَ شيئاً بهذا الحُمق يا علاءَ الدين».

قالَ وهو يخلعُ جوربيهِ: «رأيتُه مرّةً أُخرى؛ الصبيّ بالسروالِ القصيرِ».

بدَت والدتُه مشوَّشةً؛ ثم تذكَّرتْ ما يتحدَّثُ عنهُ. «الصبيُّ اللاجئُ»، قالتْ. «هل كلَّمتَه»؟

«لا، لقد.... اختفى».

«اختفى»؟

«أعتقدُ أنَّهُ كانَ أسرعَ مني كثيراً»، غمغَم علاءُ الدينِ.

نظرَتْ أمُّهُ إلى بيلي. «هل رأيتِ الصبيَّ أنتِ أيضاً»؟

لمْ تعرِفْ بيلي ماذا تقول. «لا. نعم. رُبَّما. لكنَّهُ كانَ سريعاً حقاً، كما قال علاءُ الدينِ».

حدَّقتْ أمُّ علاءِ الدينِ في ابنِها مطوَّلا.

«لستُ أكذبُ»، أصرَّ علاءُ الدينِ. وشعرَ بأنهُ غبيٌّ وهوَ يقفُ هناكَ حامِلاً جورباً يقطرُ ماءً في كلِّ يَدٍ.

«أنا متأكِدةٌ من أنكَ لا تكذِبُ. سأفتشُ البرجَ كلَّهُ الآن؛ ربما يكونُ مختبئاً في مكانٍ ما».

ولكِنْ، مَهما بحثَتْ أمُّ علاءِ الدينِ بدأبٍ، لم تجِدْ أثَراً للصبيِّ في أيِّ مكانٍ منَ البُرجِ.

«أنتَ متأكّدٌ تماماً من أنكَ رأيتَهُ»؟ همسَتْ بيلي.

«طبعاً متأكدٌ»، قالَ علاءُ الدينِ بصوتٍ يشبِهُ الفحيحِ.

هزّتْ أمُّهُ رأسَها ببُطءٍ عندما انتهتْ منَ البحثِ. «غريبٌ»، قالتْ. «غريبٌ جداً».

كانَ يُفترَضُ أن تصلَ سيمونا على متنِ الحافلةِ بعدَ ساعةٍ؛ ولذلكَ ذهبتْ بيلي وعلاءُ الدينِ لاستقبالِها. وكما توقّعتْ بيلي، ابتهجَتْ سيمونا بفكرةِ التجسُّسِ على منزلِ ماتس. كان علاءُ الدينِ يُحبُّ سيمونا لأنّها فتاةٌ هادئةٌ رابطةُ الجَأشِ، أكثرُ هدوءاً وشجاعَةً منهُ، وتقولُ دائماً ما تفكّرُ فيهِ بالضّبطِ.

لم يكُنْ في جُعْبةِ بيلي وعلاءِ الدينِ الكثيرُ مما يمكن أن يقولاه وهما يقطعانِ الطريقَ إلى موقفِ الحافلاتِ. واصلَ علاءُ الدينِ ركلَ الثلجِ بقدمِهِ، وقد ضايقهُ أن بيلي لم ترَ الصبيَّ.

«لعلّه شبحٌ»، غمغَمَ ساخطاً.

ضحكَت بيلي. «لكنكَ لا تؤمنُ بالأشباحِ»!

«ولا أنتِ أيضاً».

صمتتْ بيلي، وعرفَ علاءُ الدينِ السببَ. ظنّوا لفترةٍ أنّ منزلَ بيلي مسكونٌ بالأشباحِ. وبدا له الآنَ أنّ هذا حدَثَ قبلَ وقتٍ طويلٍ جداً مع أنه حدَثَ في الحقيقةِ قبلَ أشهرٍ قليلةٍ فقط. وهم للأمانةِ ليسوا متيقنينَ تماماً ما إذا كان المنزلُ مسكوناً أم لا. في ذلكَ الوقتِ، استطاعوا التوصّلَ إلى تفسيرٍ بخصوص معظمِ الأشياءِ المخيفةِ التي تحدثُ في المنزِلِ، وإنما ليسَ كلّها. فمصباحُ السقفِ في غرفةِ المعيشةِ ما زال من وقتٍ إلى آخر يتأرجَحُ ببطءٍ جيئةً وذهاباً على الرّغم من أنّ الأبوابَ والنوافذَ تكونُ مُغلقةً.

«ربّما هناكَ تيارُ هواءٍ صغيرٍ يتسرّبُ من فتحاتِ التهويةِ»، قالتْ والدةُ بيلي بحَزمٍ عندما فاتحاها بالأمر.

في ذلكَ الحينِ، قالَت بيلي لعلاءِ الدينِ أن ذلكَ لا يُضايقها؛ يستطيعُ مصباحُ السقفِ أن يتأرجَحَ كما يريدُ، طالما أنّ الأمورَ لا تعودُ إلى ما كانَت عليهِ في البدايةِ، عندما كانَ أحدٌ ما يدقُّ على النوافذِ في منتصفِ الليلِ ويتركُ الرسائلَ في غرفةِ نومِ الضُّيوفِ.

فكَّر علاءُ الدينِ في الصبيِّ ذي الملابسِ الغريبةِ. إنهُ ليسَ شبحاً بطبيعةِ الحالِ. إذ في نهايةِ المطافِ ليس هناكَ أشباحٌ. ومع ذلكَ أفزَعَ الصبيُّ علاءَ الدينِ في كلِّ مرةٍ. ماذا يريدُ؟ تساءلَ علاءُ الدينِ.

اضطُرَّ علاءُ الدينِ وبيلي إلى الركضِ لقطعِ المسافةِ القليلةِ الأخيرةِ إلى موقفِ الحافلاتِ حتى يصلا في الموعِدِ؛ واستقبلتهُما سيمونا بابتسامةٍ واسعةٍ.

«أنا سعيدةٌ لأنكُما اتصلتُما بي»، قالت لبيلي. «كنتُ تواقَّةً إلى الخروجِ من البيت؛ أمي وأبي يتجادلانِ طوالَ الوقتِ».

سمِعَ علاءُ الدينِ سيمونا تقولُ هذه العبارَةَ نفسَها عدَّةَ مراتٍ مِن قبل. قليلاً ما كان والداهُ يتجادلانِ - أو هكذا كانَت الحالُ في السابقِ على الأقلِ، لكنَّ شيئاً ما تغيَّر في الفترةِ الأخيرةِ. حدَثتْ بعضُ الخلافاتِ الصغيرةِ منذُ أولِ مرّةٍ سمعَ فيها أباهُ يقولُ إنهم يواجهونَ مشاكلَ ماليةً.

«أيمكنُ أن نمُرَّ بالميناءِ ونتفقَّدَ مركبَ اللاجئين»؟ سألَت سيمونا. «رأيتُهُ وقرأتُ عنهُ في الصَّحيفةِ».

«ليسَ هناكَ الكثيرُ مما تتاح رؤيتُه»، قالَ علاءُ الدين. «إنَّه مركبُ صيدٍ قديمٌ فحَسب».

في صفِّهِ في المدرسَة، كانَ علاءُ الدينِ وتلميذانِ آخرانِ فقط هم الذينَ جاءَ ذويهم من بلدانٍ أخرى غيرِ السُّويد، لكنَّه نادرًا ما فكَّر في هذا. لماذا يهُمُّ حقاً مِن أينَ يأتي المرءُ؟ لطالما أبدى والدهُ سرورَه لأنَّهم جاءوا إلى السويدِ قبلَ عشرِ سنواتٍ، لأنهم لو وصلوا اليومَ، لكانَ كلُّ شيءٍ أصْعبَ بكثيرٍ. وعندما يقولُ الوالِدُ ذلك، كانَ علاءُ الدينِ يُفكِّرُ بينه وبين نفسه في حالِهم التي يمكنُ أن يكونوا عليها لو أنهم ظلّوا في تركيا، لولا أنّه لم يستطِعْ أن يتخيلَ الحياةَ هناكَ. وقد شعرَ بأنه سُويدي في كلِّ جزءٍ منهُ، تماماً مثل سيمونا وبيلي والآخرين كلِّهم. كما أنهُ لم يستطِعْ أن يتخيّلَ كيف تجري الحياةِ في مركب اللاجئين، فقد جاءَ معَ والديهِ إلى السويد بالطائرةِ؛ وجعلتْهُ مجردُ فكرةِ الاختباءِ في مركب صيدٍ قارسِ البرد لأسابيعَ يشعرُ بالغثيانِ.

«وإذَن، ماذا سنفَعلُ»؟ سألَت سيمونا وهُم يغادِرون موقفَ الحافلاتِ. «نتجسَّس على رجلٍ مسنٍّ فقط»؟

لم يكُن علاءُ الدينِ ليصفَ ماتس بأنه رجلٌ مُسِنٌّ بالضبطِ؛ فهو بعمر والدِهِ تقريباً، وليسَ مُسناً بالتأكيدِ. لكنَّهُ لم يستطِعْ أنْ يُجادِلَ بشأنِ التجسُّسِ...

شرحَتْ بيلي لسيمونا ما يحدُثُ.

«ياه»، هتفت سيمونا. «لصٌّ. ولكن، لماذا يحتاج هذا الماتس إلى سرقةِ الطعامِ؟ أهوَ جائعٌ»؟

«لا نعرِفُ حقاً»، قالَ علاءُ الدينِ.

بدا الأمرُ كلُّهُ غباءً مَحضاً. لماذا يجِبُ افتراضُ أنَّ ماتس هوَ اللصُّ عندما لا يستطيعونَ التفكيرَ في سببٍ يجعلُهُ يأخُذُ الطعامَ؟ ولكنْ، إذا لم يكُنْ ماتس هوَ الذي يأخذُهُ، فمَن يمكنُ أنْ يكونَ الفاعلُ؟

«ربّما لديهِ عائلةٌ كبيرةٌ لا يعرفُ عنها أحدٌ»، اقترحَتْ بيلي.

«نعم، صحيح»، قالَ علاءُ الدينِ. «لِمَ لا»؟

قاطعتهما سيمونا: «هل المكانُ بعيدٌ»؟

«لا، كِذْنا نصلُ»، طمأنَها علاءُ الدين. «إنهُ يسكُنُ على مقربةٍ مِن بيت بيلي».

وبعدَ بضعِ دقائقَ كانوا يقفونَ على بُعدِ مسافةٍ قصيرةٍ من منزلِ بيلي.

«إنهُ ذلكَ البيتُ»، قال علاءُ الدينِ وهو يشيرُ عبرَ الطريقِ. كانت الساعةُ آنذاك تشيرُ إلى الثالثةِ تقريباً؛ وقريباً تَغرُبُ الشمسُ. ارتجفَ علاءُ الدينِ؛ إنهُ يريدُ العودَةَ إلى البيتِ قبلَ هبوطِ الظلامِ.

بدا بيتُ ماتس غارقاً في الصمتِ والقَتامَةِ. وهمسَتِ الريحُ في أشجارِ الصّنوبرِ الطويلةِ المنتصبةِ على جانبِ الطريقِ.

«يبدو البيتُ خالياً من الناس»، قالتْ بيلي.

«لن نتأكّد إلا إذا قرغْنا جرسَ البابِ»، قال علاءُ الدينِ، ونظرَ إلى سيمونا. «أو بتعبيرٍ أدق، إلا إذا قرعتِ أنتِ جرسَ البابِ يا سيمونا. هل أنتِ مُستعدةٌ»؟

في بعضِ الأحيانِ، تبدو خُطةٌ ما كأنّها شيءٌ عبقريٌّ عندما يفكّرُ المرءُ بها، ثم لا تعودُ تبدو فكرةً جيدةً عندما يريدُ تنفيذها فعلاً. لم تكُن سيمونا خائفةً، غير أنّها تردّدت عندما همّت بعبور الشارِعِ إلى البيتِ.

«أيُمكِنُ أن تُكرّرا ما قلتماه لي»؟

«هُناك شخصٌ ما يسرقُ الطعامَ من مطعم والدَي علاءِ الدينِ»، قالت بيلي. «ونحن نعتقدُ أنهُ قد يكونُ ماتس، لكنّ والدَ علاءِ الدينِ تحدَّثَ إليهِ، وهو يقولُ إنهُ ليسَ هو. ويزعُم ماتس أنه لمْ يكُن في القريةِ في عدَّة مناسباتٍ عندما اختْفى الطعامُ، ولكنْ من يدري ما إذا كانَ ما يقولُه صحيحاً»؟

وهنا، تولّى علاءُ الدينِ زمامَ الحديثِ: «اليَومُ هو يومُ عطلتِهِ الأُسبوعيةِ، وقال إنه ذاهبٌ إلى مالمو لزيارةِ والدتهِ. ولذلك، فكَّرْنا في أنْ نتحققَّ لنعرفَ إذا غادَر القريَةَ فعلا كما يزعمُ، أم أنهُ يكذِبُ».

«ولذلكَ تريدون مني أن أقرعَ جرسَ البابِ؟ لتعرفا إن كان ماتس في المنزلِ»؟

«بالضَّبطِ»، قال علاءُ الدينِ. «هو يعرفُني أنا وبيلي، لكنَّهُ لا يعرفُكِ».

فكَّرتْ سيمونا لحظةً، ثم طرحَتْ السؤالَ نفسَه الذي كانت بيلي قد سألتهُ في السابِقِ:

«لماذا يهمُّ كثيراً إذا كان قَدرٌ قليلٌ من الطعامِ يختفي من مطعمِكم»؟

ارتبكَ علاءُ الدينِ قليلاً؛ فعلاقته بسيمونا ليست وثيقةً كثيراً كعلاقتهِ ببيلي، ولذلكَ وجدَ حرجاً في إخبارِها بوضعِهم.

«يعاني والدا علاءِ الدينِ من ضائقةٍ ماليةٍ نوعاً ما في الوقتِ الحالي»، قالت بيلي قبل أن يتمكَّنَ من منعِها. «ونحنُ نخشى أن يبدأ اللصُّ بأخذِ أشياءٍ أخرى غيرِ الطعامِ؛ أشياءٍ ثمينةٍ».

«حسناً، قالتْ سيمونا. «الآن فهمتُ. ماذا أقولُ لهُ إذا فتحَ البابَ»؟

«أيَّ شيءٍ يخطرُ على بالِكِ»، اقترحت بيلي. «قولي لهُ أنكِ تنوينَ بيْع مجلاتِ العيدِ في غضونِ بضعةِ أسابيعَ؛ اسأليه إذا كان

مهتمّاً بشراءِ واحدةٍ، وقولي لهُ أنكِ ستعودين لاحِقاً إذا رغبَ في الشراءِ».

«معَ أنكِ لستِ مضطرةً إلى هذا بطبيعةِ الحال»، تدخّلَ علاءُ الدينِ بسرعةٍ. «أعني لستِ مضطرّةً إلى العودَةِ لاحقاً».

«واضحٌ طبعاً»، قالت سيمونا.

مرّت سيارةٌ في الجوارِ وجعلتهُم يقفزونَ هلعاً.

«أسرعي»، قالت بيلي. «ثمَّ نستطيعُ بعدَ ذلكَ أنْ نعودَ إلى منزلي لنشربَ شيئاً».

شرعَت سيمونا في السيرِ، ثم استدارتْ. «ستبقيان هنا للمراقبةِ. أليسَ كذلك»؟

«طبعاً»، أجابَ علاءُ الدينِ.

لم يكُن يعتقدُ أن ماتس شخصٌ خطيرٌ حقاً، لكنَّ المرءَ لا يستطيعُ أن يكونَ متأكداً أبداً.

تحرّك علاءُ الدينِ وبيلي ليختبئا وراء أيكة شُجيْرات ملتفّةٍ بحيثُ يستطيعان رؤيةَ المنزلِ من غيرِ أن يلاحظهما أحد. مشى علاءُ

الدينِ بقلقٍ، بينما اجتازَت سيمونا موقفَ السيارةِ واتجهَتْ إلى المدخَلِ. ارتقت درج العتبةِ وقرعتْ جرسَ البابِ. ولم يفتَحْ أحدٌ.

عادتْ هابِطةً الدرج، لكنّها لم تغادرِ المكان كما توقَّعَ علاءُ الدينِ؛ وإنما استدارَتْ بدلاً من ذلكَ إلى اليمينِ ودارتْ واتجهت صوبَ زاويةِ المنزلِ.

«ماذا تفعلُ»؟ همست بيلي. «ما عدنا نستطيعُ رؤيتَها»!

ازدرد علاءُ الدينِ ريقَه؛ وشعرَ بألمٍ في بطنِهِ. لا يبدو ما يجري جيداً.

أقبلتْ سيارةٌ أخرى على الطريقِ، لكنَّ علاءَ الدينِ وبيلي كانا مستعدَّينِ هذه المرة؛ مرَّتِ السيارةُ بهما فانتقلا مسافةً أبعدَ قليلاً وراء الشُّجيْراتِ. رفع علاءُ الدينِ عنقَهُ من فوقِ الشُّجيراتِ ليراقبَ السيارةِ التي بدأت تخفّفُ سرعتها، كما لو أنّها تهمّ بالوقوفِ.

ولم يكُنْ هناك أيُّ أثَرٍ لسيمونا بعدُ.

«ليتها تستعجِلُ»، تمتمَت بيلي. ثم صمتت فجأة وهي ترى السيارةَ تنعطفُ نحوَ الموقفِ أمامَ بيتِ ماتس.

عندئذٍ فقط رأى علاءُ الدينِ الشخصَ الذي يجلسُ وراء عجلةِ القيادةِ. إنّهُ ماتس.

٦

صُفِق بابُ السيارةِ ومشى ماتس نحوَ بيته، وقامتُه الفارعةُ تُلقي ظلاً طويلاً على الثلجِ الأبيضِ. ثمّ توقفَ، كما لو أنّه تحوّلَ فجأةً إلى قطعةٍ منَ الجليدِ. وبدا كما لو أنهُ شاهدَ شيئاً أزعجَهُ.

«أوه، لا»، همسَت بيلي. «آثارُ أقدامِ سيمونا على الثلجِ».

توتّرَ علاءُ الدينِ كثيراً حتى أنهُ نسيَ أن يتنفسَ تقريباً.

مضى ماتس ببطءٍ نحوَ درجِ العتبة، ثمَّ توقفَ مرةً أخرى وحدّقَ في آثارِ الخطواتِ التي تتجهُ إلى ما وراء المنزِل.

دارت ألفُ فكرةٍ في رأسِ علاءِ الدينِ. ماذا يجِبُ أن يفعلا؟ ماذا لو تبيَّنَ أن ماتسْ خطيرٌ بعدَ كلِّ شيءٍ؟

حثّتهُ بيلي. «ماذا نفعَلُ»؟ همست.

«لا أدري». أجاب علاءُ الدينِ بيأسٍ.

لكنّهما شعرا ببعضِ الارتياحِ عندما قرَّر ماتس ألاّ يقتفي آثارَ الأقدامِ، ودخلَ إلى المنزلِ بدلاً من ذلكَ. ولم يكَدْ يغلقُ البابَ خلفَهُ حتى اندفعَتْ سيمونا راكضةً مِن وراءِ الزاويةِ. لا بدَّ من أنّها سمعَت صوتَ محرّك السيارةِ، وانتظرَت دخولَ ماتس إلى المنزلِ، ثم انطلقَتْ راكِضةً مثل سَهمٍ عبرَ الثلجِ وفي اتجاهِ الطريقِ. وكادتْ تنجحُ في الوصولِ إليهما عندما فتحَ ماتسُ البابَ فجأةً.

«قفي»، صرخَ ماتس. «قفي مكانَكِ! هذه أملاكٌ خاصّةٌ، ماذا تظنينَ أنكِ فاعلة»؟

لكنَّ سيمونا لم تتوقَّفْ. جرت بأقصى سرعةٍ واتَّتْها، مروراً بالشُجيْراتِ حيثُ يختبئُ علاءُ الدينِ وبيلي، ونحوَ منزلِ بيلي. ووقفَ ماتس هناكَ يراقبُها لحظةً، ثم عادَ إلى المنزلِ.

عندئذٍ ولّى علاءُ الدينِ وبيلي الأدبارَ بدورهِما أيضاً.

كانتْ سيمونا تنتظرُ في فناءِ منزلِ بيلي.

«ظننتُ أنكُما لن تصِلا إلى هنا أبداً»، قالتْ عندما رأتهُما.

كانت بيلي وعلاءُ الدين يلهثانِ ويحاولانِ التقاطَ أنفاسِهما. وبحثتْ بيلي عن مفتاحِها.

«اضطُرِرْنا إلى الانتظارِ حتى يعودَ إلى الداخلِ»، قال علاءُ الدينِ.

«أصبحتُم تعرفونَ الآن أنّهُ يكذِبُ»، قالت سيمونا. «فهو لمْ يغادرِ القريةَ بكلِّ تأكيدٍ».

«يجبُ أن تخبرَ والدَيك»، قالتْ بيلي لعلاءِ الدينِ.

«يمكنُ أن ينتظرَ هذا حتى الغَدِ. علينا أن نرى ما إذا سيُفقد أيُّ طعامٍ الليلةَ - إذا لَم يُفقدْ شيءٌ لا أعتقد أنَّ كذِبَ ماتس سيُقلقُ أمّي وأبي كثيراً».

خلعَ الأصدقاءُ الثلاثة معاطفَهُم السميكةَ وعلّقوها في مدخَلِ الرَّدهةِ. كان المنزلُ جميلاً ودافئاً، ولا أحد فيه. بيد أنّهم وجدوا ملاحظةً على طاولةِ المطبخِ:

بيلي،

ذهبتُ أنا وجوزيف لنتمشّى قليلًا. نكونُ في البيتِ خلالَ

ساعةٍ أو في نحوَ ذلكِ.

محبتي، ماما.

«هلْ يأتي جوزيف إلى هُنا كثيراً»؟ سألَت سيمونا.

هزَّت بيلي كتفيها. «أحياناً. بل في كثيرٍ من الأحيانِ في الحقيقةِ، على ما يبدو لي».

«أينوي الانتقال إلى منزِلكم»؟

«لا أدري»، قالت بيلي. «لا أظنُّ أنَّ أمي تريدُ ذلكَ. ليسَ بعدُ».

كان والدُ بيلي قد توفِّيَ قبلَ سنةٍ تقريباً. ومَع أنَّ علاءَ الدين لم يقُلْ ذلِكَ لبيلي، لم يستطِعْ التفكيرَ بشيءٍ أسوأَ من أنْ تكونَ أمُّهُ معَ رجلٍ آخرَ غيرَ والدِه. حتى لَو توفِّيَ والدُهُ، لا قدَّر الله.

«جوزيف شخصٌ لطيفٌ»، قالَ ذلكَ لمجرَّدِ قولِ شيءٍ.

لكنَّهُ يعتقدُ حقاً أنَّ جوزيف لطيفٌ. كما أنَّهُ من رجالِ الشُّرطة، وهذا ما يجعلُهُ أيضاً مُحبَّباً في نظرِ علاءِ الدينِ.

ذهبَت بيلي وأحضَرتْ بعضَ العصيرِ من المطبخِ. كانتْ جدتُها هيَ التي أعدّت لها العَصيرَ. لكنّ جدّةَ علاءِ الدينِ لم تُعدّ العصيرَ قطُّ، وإنما كُراتَ اللحمِ فقط.

«ماذا ستفعلانِ الليلةَ»؟ سألَت سيمونا.

تبادل علاءُ الدينِ وبيلي النظرَ.

«الليلةَ»؟ تساءلت بيلي.

«حسناً، نعم، عليكَ أن تُحاولَ فضحَ ماتس مرّةً وإلى الأبدِ»، قالت سيمونا وهي تنظرُ إلى علاءِ الدينِ. «اضبطهُ وهو يسرقُ لتثبتَ لوالدَيكَ أنهُ هو السارقُ».

لم يكُن علاءُ الدينِ قد فكَّرَ بهذا القَدرِ مُقدّماً. «أعتقدُ أن عِلمنا بأنّه يكذب كافٍ»، قالَ. «وقبلَ القيامِ بأي شيء آخَر علينا أن نرى ما إذا كان أيُّ طعامٍ سيُفقدُ الليلةَ».

عبسَت سيمونا. «ألا يُسْتحسنُ أنْ نسهرَ الليلةَ بطولها لنكتشف ما يحدُث»؟ قالَت.

بدَت بيلي متشكّكةً. «لا أعتقدُ أنني أستطيعُ البقاءَ مستيقظةً

كلَّ هذا الوقتِ الطويلِ».

«ولا أنا أيضاً»، قالَ علاءُ الدينِ.

كانَ والدُه قد حاولَ البقاءَ مُستيقِظاً طوالَ الليلِ حتى يُمسِكَ اللصَ، لكنَّ الأمورَ لم تسِرْ على ما يُرام، فقد غفا بعدَ بضعِ ساعاتٍ فقط، وفي الصباحِ وجدوا أنَّ الطعامَ قد اختَفى. وفي الليلةِ التاليةِ بقيَت أمُّه مستيقظةً، لكنَّها غفَتْ هيَ الأخرى، في وقتٍ أبكرَ من والدِه.

«أوه، بحقِّ الله! لستُما مضطرّينَ إلى البقاءِ مُستيقظَينِ في الوقتِ نفسِه»، قالت سيمونا. «فكِّرا في هذا. سيناوِبُ علاءُ الدينِ في النصفِ الأولِ من الليلِ، ثم يأتي دوْر بيلي، أو العكسُ بالعكسِ».

لم تبدُ بيلي حريصَةً كثيراً على البقاءِ مُستيقظةً نصفَ الليلِ وحدَها في البُرجِ القديمِ. وشعَرَ علاءُ الدينِ بشيءٍ مماثلٍ.

«حسناً، ماذا لو وزّعنا الليلةَ إلى ثلاثةِ أقسامٍ»؟ اقترحَت سيمونا. «أستطيعُ أن أساعدَكما».

بعد ما حدثَ تواً في حديقةِ ماتس، لم يكُن علاءُ الدينِ واثقاً تماماً مِن صَوابِ الفِكرةِ. ماذا لو سارَ كلُّ شيءٍ خطأً مرّةً أخرى؟

«نستطيعُ استخدامَ صفارةٍ»، قالت بيلي ببطء. «سيضَعُ الشخصُ المستيقظُ صفارةً حولَ رقبتهِ، وإذا جاءَ أحدٌ، يطلِقها».

«ماذا نقولُ لأمّي وأبي»؟ تساءلَ علاءُ الدينِ.

«لا ضرورةَ لأن يعرفا»، قالت سيمونا. «قلْ لهما فقط أننا سنأتي أنا وبيلي لنبيتَ عندَكم».

في الحقيقة، لم تكُنْ الفكرةُ سيئةً. كانوا قد تحدّثوا سابِقاً عنِ المبيتِ ليلةً في البُرجِ، لكنّهم لم ينفّذوا ذلك.

«حسناً»، قالَ علاءُ الدينِ. «ولكنْ ليسَ اليوم. علينا أن ننتظِرَ ونرى إذا كانَ المزيدُ من الطّعامِ سيُفقَدُ خلالَ الأسبوعِ القادمِ أو نحوِه؛ وإذا حدثَ ذلكَ، يمكنُ أن نجرّبَ المراقبةَ في إحدى الليالي».

«جيّد»، قالت سيمونا. «حسناً، لا، من الواضحِ أن هذا ليسَ جيداً بالضّبط، بل هو مثيرٌ».

ضحكَت بيلي، لكنْ علاءَ الدين لم يفعلْ. وتمنّى أنْ لا يُسرَق

المزيدُ من الطّعامِ؛ لم يشعرْ بأيِّ رغبةٍ في أن يبقى مستيقِظاً في الحقيقةِ، سواءً لليلةٍ كاملةٍ أو لنصفِ ليلةٍ.

«خطَرَ شيءٌ آخرُ في بالي»، قالَت بيلي. «ألم يسبقْ أن فُقد الطعامُ من مطعَمِكُم مِن قبل»؟

«ماذا تعنين»؟

«أعني، كما لو أن الأمَر بدأ في الأسبوعَين الأخيرَين فقط. هل سبقَ وأن حدثَ ذلكَ مِن قبل»؟

«لا»، أجاب علاءُ الدينِ. «هذا غريبٌ. لماذا لم يستغلَّ اللصُّ الفرصةَ قبلَ أن نبيعَ بيتَنا وننتقلَ إلى هنا»؟

حاولَ أن يتذكَّرَ فترَةَ عملِ ماتس في المطعمِ؛ لا بدَّ من أنها عدةُ سنواتٍ. فلماذا يبدأُ بسرقةِ الطعامِ الآنَ فقط؟

لعلّ والديه محقّان؛ ربّما كان الصبيُّ الذي رآه من اللاجئين، وكانَ هو اللصُّ. إذ تزامنَ اختفاءُ الطعام مع وقتِ وصولِ مركب اللاجئين تقريباً.

«بالمناسبة، لماذا ذهبتِ إلى الناحيةِ الخلفيةِ من بيت ماتس»؟ سألَ علاءُ الدينِ سيمونا.

«أردتُ أن أنظرَ عبرَ النوافذِ لأرى ما إذا كانَ ماتس في الداخِلِ».

كادت بيلي تغصُّ بالعصيرِ. «أأنتِ مجنونةٌ»؟ قالت.

«وهل رأيتِ شيئاً»؟ أرادَ علاءُ الدينِ أن يعرِفَ.

لفّت سيمونا خصلةً من شعرِها المجعّدِ حولَ إصبعِها. «لا، رأيتُ طفلين فقط».

الآن جاءَ دورُ علاءِ الدينِ ليغُصَّ بعصيرِهِ. «ماذا تعنينَ بقولكِ طفلين»؟

«أطفالٌ، أطفالٌ عاديون».

هزَّ علاءُ الدين رأسَه. «لكنَّ هذا مُستحيل»، قال. «ماتس لا أولادَ لديه».

«ربما ليسا طفليه»، قالت سيمونا. «ربما هما يزورانه فقط».

فكّر علاءُ الدين بإمعانٍ. «أهناكَ أشخاصٌ بالغون أيضاً»؟

«لا، رأيتُ الطفلين فقط».

«وما أعمارُهما»؟ سألَت بيلي.

أمالت سيمونا رأسَها جانباً وفكَّرت في السؤالِ. «بمثل عمرِكَ، كما أعتقدُ».

«هل كانا يفعلانِ أيَّ شيء؟ هل كانا يشاهدان التلفزيونَ»؟ تساءلَ علاءُ الدينِ.

«لا أعرفُ. لم أستطعْ أن أرى بوضوح؛ فالغرفةُ حالكةُ الظلامِ».

«حالكةُ الظّلامِ»؟ ردّدت بيلي الجملة.

«رأيتهما من إحدى نوافذِ القبوِ. بدا كما لو أنهما يجلسان على الأرضية ويفعلان شيئاً ما، ربما كانا يأكلان».

تناولَت سيمونا قطعةَ بسكويتٍ أُخرى. «لم أفكِّرْ حقاً في ما كانا يفعلان، لكنني أتذكرُ أنني ظننتُ أنهما يبدوان... مختلفَينِ بعضَ الشيء. ملابسُهما لا تشبه ملابِسنا».

«ماذا تعنين»؟ استفسرَ علاءُ الدينِ.

«بدتِ الملابسُ قديمةً نوعاً ما. ربما كانتْ مُستعملةً وانتقلَت

مِن شخصٍ إلى آخَر».

جلسَ علاءُ الدينِ صامتاً بعضَ الوقتِ. هناكَ طفلان في منزلِ ماتس إذن. طفلان لم يأتِ على ذكرهِما أبداً. يرتديانِ ملابسَ غريبةً. لكنَّ الذي ألحَّ على علاءِ الدينِ أكثرَ مِن أيِّ شيءٍ آخر هوَ سببُ في جلوسِهِما في القبوِ، في غرفةٍ «حالِكة الظّلام». بدا كما لَو أنَّهما يختبئانِ مِن شيءٍ ما تقريباً.

٧

كانَ المطعمُ يعجُّ بالزبائِنِ عندما عادَ علاءُ الدينِ إلى المنزلِ. عادةً، لم يكنْ الزبائنُ يظهرون إلا في وقتٍ متأخّرٍ من اليومِ، أما الآن في فصلِ الشتاءِ، فالناسَ يحبّونَ فكرةَ تناولِ الطعامِ في فترةِ العَصرِ كما يبدو. لَم يستطِعْ أن يفهمَ السببَ في أنَّ والديهِ يواجِهانِ مشكلاتٍ ماليّةً؛ كانَ المطعَمُ عامِراً بالرُّوادِ على الدّوامِ.

واصلَ علاءُ الدينِ التفكيرَ في الطّفلَينِ اللذين رأتهُما سيمونا في القبوِ، لكنّهُ فكّرَ أكثرَ ما يكونُ في حقيقةِ أنَّ ماتس قد كذَبَ. لم يكُنْ يذهبُ ليزورَ والدتَهُ مُطلقاً. والسؤالُ هوَ، هل يجِبُ أن يخبرَ والدَيهِ بذلكَ على الفورِ؟ لن يَستسيغا فكرةَ تجسُّسِ علاءِ الدينِ على ماتس. وربما منَ الأفضلِ أن يلتزمَ الصمتَ إزاءَ ما يفعلُ مع

صديقتيهِ لفترةٍ أطوَل.

اِرتقَى علاءُ الدِّينِ السّلالِم صاعداً إلى المطبخِ. ولم يلاحظهُ والداهُ عندما دفعَ البابَ وفتحَهُ، فقد كانا في وسطَ نقاشٍ ساخِنٍ، والغضبُ يَبدو عليهِما.

«أعتقدُ أنها فكرةٌ رهيبةٌ»، قالت أمُّهُ بصوتٍ لمْ يميِّزهُ علاءُ الدينِ.

«حسناً، اِقترحي أنتِ شيئاً أفضلَ»، قاطَعها والدُه.

«لقد فعلتُ مُسبقاً! أريدُ أن نبقَى هنا وأن نواصِلَ الكفاحَ. نحنُ لسنا الوحيدينَ الذينَ يواجهونَ مشاكلَ ماليّةً في هذا البلدِ الآن، ولن يكونَ الأمرُ أسهلَ بالتأكيدِ إذا عُدنا إلى تركيا»!

فوجِئَ علاءُ الدينِ وصُدِمَ تماماً حتى أنهُ نسيَ كلَّ شيءٍ عن ماتس. هذا أسوأ بمئةِ مرّةٍ. العودةُ إلى تركيا! أبَى أن يُصدِّقَ أذنيه. لم يُرِدْ أبداً وفي أيِّ وقتٍ مغادرةَ أوهوس.

تقدَّمَ والدُهُ وربَّتَ ذراعَ والدتِه. ولاحَت عليهما معالمُ الحزنِ في تلكَ اللحظةِ.

«أنا أقولُ فقط أنَّهُ خيارٌ يجِبُ أن نفكِّرَ فيهِ»، قال الوالِدُ وقد أصبحَ أكثرَ هدوءاً الآن. «علينا أن نكونَ عقلانيين؛ ولدينا علاءُ الدين لنُفكِّرَ فيهِ أيضاً».

شُكراً لله! لم يتقرَّرْ شيءٌ بعدُ على الأقلِ. ليسَ بعد.

تسللَّ علاءُ الدينِ خارجاً بسرعةٍ من المطبخِ قبل أن يلمحاه. كان قلبُهُ يخفقُ بقوّةٍ لدرجة أنهُ كادَ يؤلِمُه. ما مدى حاجتِهِما للنقودِ؟ لَم يستطِعْ أن يتذكَّرَ أنّه سمعَ والدَيهِ يتحدَّثان عنِ العودةِ إلى تركيا أبداً. ماذا سيفعلانِ هناك بحَقِّ اللهِ؟ لقَد غادرا تركيا بعدَ كلِّ شَيءٍ لأنهما لم يحصُلا على حياةٍ جيدَةٍ هُناك.

ركَضَ علاءُ الدينِ هابطاً الدرجَ وتنفَّسَ بعُمقٍ عدةَ مراتٍ. يجِبُ أن يبقيَ عينيهِ مفتوحَتينِ على والديهِ مِنَ الآنَ فصاعِداً؛ إنَّهما بكلِّ وضوحٍ يُخفيانِ عنهُ الحقيقةَ؛ أو هُما في أدنى الأحوالِ لا يُخبرانه بالحقيقةِ كلِّها.

وعندما هدأ، كرَّ عائداً إلى المطبخِ، محاولاً أن يبدوَ كأنَّه وصلَ توّاً إلى البيتِ.

كانت والدتُهُ تعجِنُ؛ وانفرجَت أساريرُ وجهِها حالما رأتهُ.

«أهلاً يا حبيبي الصغير. أكانَ يومُكَ جيداً»؟ قالت لَه.

«نعم»، أجابَ علاءُ الدينِ وهوَ يقتربُ ويقِفُ إلى جانبِها.

«ماذا تُعدّين»؟

«أرغفةَ الخُبزِ بالثُّوم؛ لم نجدْ أيّاً منها لمّا قصَدنا المطبخَ هذا الصَّباح».

إذنْ، اللصُّ يُحبُّ الخبزَ أيضاً.

لفَّتْ أمُّ علاءِ الدينِ ذراعَها حولَهُ، مُلطخةً كنزته ببعضِ الطّحينِ. «غداً سنفعلُ شيئاً لطيفاً حقاً»، قالت لَهُ. «نحنُ الثلاثةُ».

كانَ المطعَمُ يُغلقُ أبوابَهُ يومَ الأحدِ. وقد أحبَّ علاءُ الدينِ ذلك، لأنَّ الأمورَ تصبحُ أهدأ بكثيرٍ في يومَ العُطلَةِ.

تنهّدتْ أمُّهُ. «أوه، لا»، هتفَت. «احترقَ المصباحُ فوقَ المكانِ الذي أعمَلُ فيهِ. أيمكنُ أن تنزِلَ إلى القبوِ وتحضرَ لي مصباحاً جديداً»؟

أرادَ علاءُ الدينِ أن يذهبَ إلى غرفتهِ ليعملَ على نموذج

الطائرَةِ الصغيرةِ الأخيرةِ. «ألا يمكنُ أن تتدبّري أمركِ بدونِ ضوءِ السّقفِ»؟ قال.

«ليسَ عندما أخبزُ. أحتاجُ إلى تمييز ما أضيفُهُ إلى العجينِ. من فضلِك يا حبيبي»؟

«حسناً»، وافقَ علاءُ الدِّين على مضَضٍ.

ربّتَت أمُّهُ وجهَهُ، فلوّثَت خدّهُ بالطُّحينِ أيضاً. «أنتَ ولدٌ طيِّبٌ»، قالت لَهُ.

«أوه، ماما»!

ضحكَتْ. «إنهُ بعضُ الطَّحينِ فقَط، بِحقِّ اللهِ»!

مسَحَ علاءُ الدِّينِ خدّهُ؛ لم يكُنِ الوجهُ الممرغُ بالطحينِ منظَراً جيداً. وكانَ يهمّ بمغادرةِ المطبخِ، عندما استوقفتهُ أمُّهُ.

«بالمناسبةِ، هل رأيتَ ذلكَ الصبيّ الذي ذكرتَهُ لنا، مرةً أخرى»؟ ولم تكُنْ تضحكُ الآن.

تحرك علاءُ الدينِ بتثاقُلٍ وقلقٍ. لم يرغب في أنْ يتحدّثَ عنِ الصبيّ. ماذا لو ذكَرتْ أمُّهُ الطعامَ المفقودَ؟ في هذِهِ الحالَةِ ربما

يُضطَرُّ إلى إخبارِها بأنهُ تجسّسَ هوَ وبيلي وسيمونا على ماتس.

«لا»، قال.

«أنتَ مُتأكِّد»؟

«نعَم، لم أرَهُ منذُ ذلكَ الصّباحِ».

«عندما خرجتَ جرياً بجورَبَيكَ»؟

تورَّدُ وجهُ علاءِ الدينِ وأطرقَ خجِلاً. تملّكهُ الحرَجُ عندما فكَّرَ كيفَ اندفعَ خارجاً إلى الثلجِ. لقد حانَ الوقتُ بالتأكيدِ للنزول وإحضار لمبَةِ المِصباحِ، قبلَ أن تقولَ والدتُهُ المَزيدَ.

كانَ على وشكِ أن يغادرَ عندما وقعَ نظرُهُ على صحيفةٍ مُلقاةٍ على طاولَةِ العمَلِ. كانَت المادّةُ البارزةُ على صَدرِ الصفحَةِ الأولى تتحدّثُ عن مركبِ اللاجئين؛ وقال العنوانُ الرّئيس: «لا أُفقَ للحلِّ بعدُ». لكنْ شيئاً آخرَ هو ما جذَبَ انتباهَهُ، مقالةٌ أصغَر في أسفلِ الصفحَة.

«الفضّةُ التي اختفَتْ»، قالَ العنوانُ. وقرأ علاءُ الدينِ المقالَةَ بسُرعةٍ:

«يصادفُ اليومُ مرورَ مئةِ عامٍ بالضبطِ منذُ ضربَتْ صاعقَةٌ ورشةَ لارسون، صائغِ الفِضَّةِ في أوهوس، حيثُ سُرقَت كميَّةٌ مِن الفِضَّةِ. ولم تُسترجعْ قطّ. وما زالَ السُّؤالُ عمّن أخذَها لغزاً بلا حَلٍّ».

دخلَ والدُ علاءِ الدينِ المطبخَ قبلَ أنْ تتسنّى لهُ قراءَةُ المزيدِ.

«ليا، الزبائنُ على الطاولةِ الثالثةِ غيّروا رأيَهم. إنهم يريدونَ السّمكَ بدلاً مِن كُراتِ الّلحمِ»، قال.

ثمّ فتحَ الثلاجةَ وأقحمَ رأسَهُ فيها. وقامت والدةُ علاءِ الدّينِ لتُساعدَهُ، ووقفا هناكَ يتدافَعانِ ويضحَكان. لم يبدُ أنهُما متخاصمَينِ بكُلِّ تأكيدٍ.

كانَ والدُ علاءِ الدينِ يضحَكُ بطريقةٍ خاصّةٍ في حضور أمّه. وقالت بيلي مرّةً أنَّ والدَيْ علاءِ الدين مُتحابّان كثيراً. وافترَضَ علاءُ الدينِ أنَّ ذلكَ شيءٌ طيِّب؛ أن يكونا ما زالا واقعَينِ في الحُبِّ بعدَ هذا الوقتِ الطويلِ، كأنَّ أحدَهما يعرفُ الآخَر منذُ الأزَلِ.

كان كلٌّ منهما مشغول بالآخر تماماً بحيثُ لم يلاحظاهُ وهو

يتسلّلُ خارجاً من المطبخِ. لابدّ من أن يكونَ ذلكَ الحديثُ عن العودَةِ إلى تركيا شيئاً ارتجلَهُ والدُهُ في خضمِّ اللحظَةِ.

٨

نزل علاء الدين على السّلالِم جرياً، وعندما وصلَ إلى بابِ القبوِ، تردَّد. لم يكُنْ في الواقعِ يُحِبُّ الدّخولَ إلى هناكَ. ولكنْ، ماذا يُمكِنُهُ أن يفعلَ؟ أيركضُ عائداً إلى الطابقِ العلويِّ ويطلبُ من أمّه أنْ ترافِقَهُ؟ لا، لا يُمكِن. وهو أكبرُ سنّاً أيضاً من أن يخيفه دخولُ القَبوِ وحدَهُ.

وعلى أيِّ حالٍ، ما الخطرُ في ذلِك؟

فتحَ بابَ القبوِ وبدأ ينزلُ على الدّرج. وعندئذٍ تذكّرَ أنه نسيَ أن يحضرَ معَهُ مصباحاً يدوياً. هناكَ ضوءٌ في السّقفِ، لكنّهُ ينطفئُ من تلقاءِ نفسهِ في بعضِ الأحيانِ. وقد حاولَ والدُهُ إصلاحَهُ عبثاً، وكان الحلُّ هو إحضارُ مصباحٍ يدويٍّ عندما ينزل أحدٌ إلى القَبوِ.

اللّعنةُ. أيجبُ أن يرتقيَ الدّرجَ كلّهُ عائِداً إلى المطبخِ؟

نظرَ إلى مصباحِ السّقفِ، وبدا له أنّهُ يعملُ حتى الآن كما ينبغي.

«يجدر بي أن أكفّ عن الشعورِ بالخَوفِ»، تمتَم لنفسهِ وهو يهبطُ بضعَ درجاتٍ إضافيّةٍ.

أينَ هيَ بحقِّ اللهِ لمباتُ المصابيحِ؟ كانَ القَبوُ كبيراً جدّاً، وتلمَّسَ علاءُ الدينِ طريقَهُ فيهِ بحذَرٍ. لماذا يحتفظُ والداهُ بكلِّ هذهِ الأشياءِ؟ أليس من الأفضلِ أن يتخلّصا منها؟ أو أن يُعطياها لأحدٍ رُبما يستفيدُ مِنها؟ ما هي الفكرةُ من قبوٍ مكتظٍّ بِأشياء لا تُستخدَمُ أبداً؟ إضافةً إلى حقيقةِ أنَّ ازدحامَ القَبوِ بها يجعلهُ أشدّ عتمةً بكثيرٍ.

فكَّرَ علاءُ الدينِ: سأجلِبُ لمبةَ المِصباحِ فقط، ثم أخرجُ من هنا.

رفعَ صندوقَينِ كبيرَينِ اِعتقدَ أنَّ المصابيحَ ربما تكونُ فيهِما. إلا أنها لم تكُنْ هناك، ولا في الأكياسِ المُستقرّةِ على الأرضيةِ تحتَ أحدِ الرفُوفِ.

كانَ علاءُ الدينِ على وشكِ أن يُحرّكَ صندوقاً كبيراً آخرَ من طريقهِ ليستطيعَ المرورَ، عندما سمِعَ جلَبَةً خلفَهُ. بدا كما لو أنَّ أحداً يهبطُ

الدّرجَ. وانزلقَ الصندوقُ من يدَيهِ واستدارَ بسُرعةٍ. ولم يلمَح أحداً.

«مَنْ هُناك»؟ قال.

لا جواب.

صمتٌ مُطبِقٌ.

أصبحَ علاءُ الدينِ خائفاً بحقٍّ الآن. ليته فقط يعثرُ على لمبَةِ المِصباحِ، وبعدئذٍ يجري عائِداً إلى غرفتهِ في الطابقِ العلويِّ. ولمْ تكُن لديهِ أيّ نيّةٍ في وضعِ قدمَيه في القَبوِ مجدّداً لوقتٍ طويلٍ قادمٍ.

عاد وحملَ الصّندوقَ ونحّاهُ جانباً؛ خطا بضعَ خطواتٍ ورفعَ صندوقاً آخر. كانت يداهُ ترتعشانِ وأصبحتا زلِقتَين منَ العرَقِ.

هناك، خلفَ مرآةٍ كبيرةٍ على أرجلٍ خشبيةٍ متينةٍ ثمّة رفّ، وميّز عدةَ صناديقَ للمصابيحِ الكهربائيةِ. حاولَ أن يصلَ إلى المصابيحِ من وراء المرآةِ، لكنّ ذراعيهِ لم تكونا طويلتين بما يكفي. ما يعني أنّ عليهِ أن يحركَ المرآةَ.

أدركَ أنه لا يملكُ الكثيرَ من الوقتِ. كانَ متأكداً من أنّه سمعَ أحداً يهبطُ الدّرجَ، شخصاً ربما ما زال في القبوِ.

كانت المرآة كبيرةً وثقيلةً ومكسوّةً بالغبارِ. وقف علاءُ الدينِ أمامَها حتى يستطيعَ أن يمسكَ الإطارَ بإحكامٍ. وأصدرتِ المرآة صريراً عندما جرّها ليبعدَها عن طريقهِ. وأخيراً أصبحتِ المصابيحُ في متناولِ يدِه.

تماماً عندما همّ بتناولِ مصباحٍ، ألقى نظرةً سريعةً على المرآةِ. في البدايةِ رأى نفسَهُ فقط، ثمُّ عندما نظرَ مرةً أخرى أحسَّ بقلبهِ يتوقفُ. كانَ الصبيُّ صاحبُ السروالِ القصيرِ يقفُ خلفَه.

أطلقَ علاءُ الدينِ صيحةً، وفي اللحظةِ نفسِها انطفأ مصباحُ السّقفِ، وغرقَ كلُّ شيءٍ في السوادِ.

٩

انسدلَ الظلامُ مثلَ غِلالَةٍ ثقيلةٍ أمامَ عينيَّ علاءِ الدينِ. ما عاد قادرًا على رؤية شيء. وكلُّ ما تناهى إلى سمعه هو صوتُ أنفاسِهِ السريعةِ المتلاحقةِ. لم يسبق له أن خافَ هكذا طوالَ حياتِهِ.

وقفَ متجمِّداً بلا حِراكٍ. انتظرَ وانتظَر. سيفتقِدُه والداهُ قريباً، ويشرعانِ في التساؤُلِ عنهُ. ليتهُما يستعجِلانِ فقَط!

لم يسمَعْ أيَّ صوتٍ منَ الصبيّ. ماذا يحدُثُ؟

أيقفُ هناكَ محدِّقاً في علاءِ الدينِ فحَسب؟

فتحَ علاءُ الدينِ فمَهُ ليقولَ شيئاً، لكنَّ حُنجرتَهُ بدَتْ كأنما شلَّها الذُعرُ. حاولَ أن يتنحنحَ، وساعدَهُ ذلكَ بعضَ الشيءِ.

«ماذا تريدُ»؟ قال بهدوءٍ، وصوتُه يرتعشُ. «منْ أنتَ»؟

لا جوابَ.

«أعرفُ أنكَ هنا»، قالَ علاءُ الدينِ بصَوتٍ أعلى قليلاً هذه المرّةِ. «رأيتكَ في المرآةِ».

كانت فرائصُه كلّها ترتعدُ عندما استدارَ في الظلامِ. وظلَّ الصبيُّ صامتاً. ليتَهُ فقط جلبَ معَه المصباحَ اليدويَّ! ابتلعَ علاءُ الدينِ ريقَهُ بصعوبَةٍ عدّةَ مراتٍ. كان على وشكِ أن يبكيَ. حاولَ أن يمُدَّ ذراعَيهِ أمامَهُ؛ ولَم يكُن أحدٌ هناكَ.

لم يجرُؤ على التقدّمِ خطوةً؛ ماذا لو سقَطَ فوقَ بعضِ الصّناديقِ وآذى نفسَه؟ فجأةً سمِعَ صوتَ تحطُّمِ شيءٍ في الطرفِ الآخرِ من القبوِ، وقفز قلبُهُ صاعِداً إلى حلقِهِ. لا بدّ من أنَّ الصبيَّ أوقعَ شيئاً.

أصدرَ مصباحُ السّقفِ طقطقةً خفيفةً، وومضَ بضعَ مراتٍ، ثم أضاءَ. وشعرَ علاءُ الدينِ براحةٍ كبيرةٍ حتى أنهُ كادَ يجلِسُ.

لكنّهُ اعتدلَ في وقفتهِ بدلاً من ذلكَ ونظرَ من حولَهُ. لم يكُن هناكَ أيُّ أثرٍ للصبيِّ صاحبِ السروالِ القصيرِ.

نالَ علاءُ الدينِ الآنَ ما يكفي، فهرعَ يصعدُ الدرجَ بسرعةٍ كبيرةٍ لدرجةِ أنه لم يلاحظْ وجودَ شخصٍ آخر ينزلُ إلى القبوِ.

صرخَ فزعاً عندما اصطدمَ بجسمٍ صلبٍ.

«ماذا تفعلُ بحقِّ اللهِ يا علاءَ الدينِ»؟

كان ذلكَ أبوهُ فقط.

سُرَّ علاءُ الدينِ كثيراً عندما رآه حتى أنهُ ألقى بذراعيهِ حولَ رقبتِه. «أنا... أنا...»، بدأ في الكلامِ، ثم تردَّد. أينبغي أن يُخبِرَ والدَهُ أم يصمتَ؟ ربما يظنُّ أبوه أنَّ علاءَ الدينِ يختلِقُ الأمرَ كلَّه.

ربَّتَ أبوهُ ظهرَه، وعلاماتُ القلقِ تبدو عليهِ. لم يكنْ يحتضنُ ابنَهُ بقوةٍ على هذا النحوِ في هذهِ الأيامِ.

«هيَّا نصعدُ إلى الأعلى ونتحدَّث»، قال أبوه.

شعرَ علاءُ الدين بأنهُ أصبحَ أفضلَ كثيراً بعدَ أن عادَ الضَّوءُ ولم يعُد وحدَه. نظرَ حواليهِ في كلِّ الأنحاءِ، لكنَّ الصبيَّ لم يكُنْ في أيِّ مكانٍ في مجالِ الرؤيَةِ.

«ظننتُ أنني رأيتُ الصبيَّ صاحِبَ السِّروالِ القصيرِ»، قال.

«كما تعرفُ، ذلكَ الصبيُّ الذي رأيتهُ خارجَ المطعمِ».

رفَعَ والدُه حاجبَيه. «حقاً؟ أمُّكَ فتّشتِ المكانَ مسبقاً، ولم تجدهُ. لكنَّ ربما جاءَ لاحقاً»؟

وعندما نظرَ جيداً إلى علاءِ الدينِ، ارتجفَ. «وجهكَ باهت مثلَ غلالةٍ بيضاءَ»! قال الوالدُ بقلَقٍ. «أكنتَ خائفاً حقاً»؟

تقلقلَ علاءُ الدين في وقفتِه. «أعتقدُ أنَّهُ شيءٌ أقربُ إلى الصدمةِ»، تمتمَ.

طوى والدُه ذراعَيهِ على صدرِه. «كيفَ هوَ شكلُه؟ لا يُسعِدني حتماً أنَّهُ يتسكَّعُ في أنحاءِ المكانِ ويُرعبُ الناسَ».

فكَّر علاءُ الدينِ لحظة. «إنه يبدو... جديّاً». قال. «لا يبتسمُ أبداً ولا يضحكُ. يبدو غاضباً، ويرتدي ملابسَ غريبةً».

«تقصِدُ أنَّها الملابسُ غيرُ المنُاسِبةِ لهذا الوقتِ من السنَةِ؟ إنَّ الطقسَ باردٌ جداً على ارتداءِ سروالٍ قصيرٍ وكنزَةٍ فقط»؟

حاولَ علاءُ الدين أن يتذكَّرَ كيفَ بدا الصبيُّ بالضبطِ. اليومُ كان يرتَدي سُترةً، لكنَّ هناكَ شيئاً غريباً بشأنهِ...

«لا أعرفُ بشأن مسألةِ ارتداءِ الملابسِ غيرِ المناسبةِ، قال علاءُ الدين. «الأمرُ الأكثرُ أهميّة هو أنَّ ملابسَهُ تبدو قديمةً جداً. لا أعرفُ أحداً يلبَسُ هكذا».

هزَّ والدُه رأسَهُ ببُطء، وبدا أنهُ يُفكِّرُ بشيءٍ ما. «استمِعْ إليَّ يا علاءَ الدين»، قال. «في المرةِ التاليةِ عندما ترى هذا الصبيّ، أريدُكَ أن تتركهُ وشأنَه».

دُهِشَ علاءُ الدين. بعدَ كلِّ شيءٍ، لم يكن هوَ الذي سعَى إلى الصبيّ، وإنما العكسُ تماماً. كان الصبيُّ هو الذي ظلّ يسعى إلى علاءِ الدينِ في كُلِّ مرّة.

«أخشى أنَهُ ربّما يمرّ بوقتٍ عصيبٍ»، أردفَ والدُه. «لعلّه واقعٌ في مشكلةٍ عويصةٍ. ربّما لا يملك ثياباً مناسبةً، أو ما يكفي من الطعامِ. الناسُ الذين يعانونَ من المشاكلِ أو يكونونَ خائفينَ من أمرٍ ما قد يفعلون أشياء سخيفةً، وأنا لا أريدُ أن يحدُثَ لكَ شيءٌ. لِذلكَ أطلبُ منكَ أن تبتعِدَ عن طريقهِ. من الأفضلِ أن نُحاولَ أنا وأمُّكَ مساعدَتهُ».

كيفَ؟ فكَّر علاءُ الدينِ. وبماذا؟ لم يقلِ الصبيُ ولا مطلقَ كلِمةٍ واحدَةٍ؛ كانَ يأتي ويذهبُ كما يشاءُ فقط. وإلى جانبِ ذلك، لم يستطِعْ علاءُ الدينِ منعَ نفسِهِ منَ الشعورِ ببعضِ الضيقِ من الحديثِ عن مساعدَةِ الصبيّ؛ قبلَ وقتٍ ليسَ بالطويلِ قالَ والدُه أنَّهم يعانونَ من ضائقَةٍ ماليَّةٍ بحيثُ قد يُضطرون إلى العودةِ إلى تركيا. وفي أحوالٍ كهذهِ، كيفَ يمكنُ أن يساعدوا الصبيَّ ذا السَّروالِ القصيرِ؟

نظرَ والدُهُ في أنحاءِ المكانِ هو الآخرُ. «الآن قُلْ لي، لماذا نزلتُ أنا إلى هنا»؟ ثم ضحكَ، وهو يفركُ جبينَه كما يفعلُ دائماً عندما يحاولُ أن يفكِّر. «آه، تذكَّرتُ. إننا نحتاجُ مزيداً من المناديلِ. لدينا زبائنُ جددٌ يأتون ويجلِسون بمجرَّدِ أن ينهضَ زبونٌ ويغادرَ المطعمَ».

وجدَ الوالدُ المناديلَ في دقيقتين. ولم يفهَمْ علاءُ الدينِ كيفَ يستطيعُ والدُه أن يجِدَ أيَّ شيءٍ في القبوِ الفوضوي.

«أنا سعيدٌ لأنكَ قابلتَ بيلي وسيمونا اليوم»، قال والدُه. «جميلٌ أن يكونَ لكَ أصدقاءٌ من حولكَ عندما نعملُ أنا ووالدتُكَ كُلَّ هذهِ الساعاتِ الطويلَةِ».

كثيراً ما قالَ والدا علاءِ الدينِ أنهما يشعران بالذنْبِ لأنَّهُ يُضطرُّ إلى قضاءِ الكثيرِ من الوقتِ وحدَهُ. وقالت أمُّه مرةً إنها تأسَفُ لأنه ليس لهُ أخٌ أو أختٌ. واعتقدَ علاءُ الدينِ أنَّ وجودَ شقيقٍ هوَ أمرٌ لطيفٌ حقاً، لأنه كانَ سيجعلُهُ يحظى برفقةٍ كلَّ الوقت.

لكنَّهُ فكَّر عندئذٍ بأنَّه ليسَ وحيداً حقاً. بيلي هي أيضاً طفلةٌ وحيدةٌ؛ ويمكنُ أن تكونَ شقيقةً لعلاءِ الدينِ عندما يحتاجُ شقيقَةً، كَهذهِ الليلةِ، على سبيلِ المثالِ.

عادَ علاءُ الدينِ ووالدُه إلى الطابقِ العلوي مع المصباحِ والمناديلِ. كانتْ ساقا علاءِ الدينِ ما تزالان تصطكان وهُوَ يتذكَّرُ مقدارَ خوفِهِ في ظلامِ القَبوِ. وعندما عادَ إلى غرفتهِ، تذكَّرَ ما قالَه

أبوهُ عن الابتعادِ عن طريقِ الصبيِّ. لكنَّ ذلكَ لنْ يكونَ سهلاً فعلاً ما دام الصبيُّ يستمرُّ في الظهورِ.

فكَّر علاءُ الدينِ في الطعامِ المفقودِ. ماذا لو كانَ اللصُّ هو ماتس حقاً؟ سيخيبُ أملُ بابا وماما كثيراً منه. وسيغضبان غضباً شديداً أيضاً. أما إذا كانَ الصبيُّ صاحبُ السروالِ القصيرِ هو من يأخذُ الطعامَ، فربّما يكونانِ أقلَّ غضباً.

جلسَ إلى مكتبهِ وشرعَ في اللهو بواحدةٍ من طائراتهِ الصغيرةِ. ربّما يمكنُ أنْ تأتيَ بيلي إلى بيتِهم هنا ويلعبان لُعبةً. ويمكنُ أن يجلبا شيئاً من المطعمِ ويأكلاهُ أمامَ التلفزيون. وضعَ الطائرةَ من يدهِ والتقطَ هاتفَهُ واتصلَ، لكنَّ بيلي لم تُجبْ. لا بأس. ربّما يجدر بهِ أن يتصلَ بصديقٍ آخرَ بدلاً منها.

لأولِ مرةٍ منذُ دهورٍ، لم يشأ علاءُ الدينِ أن يبقى وحيداً. وكلُّ ما فكَّر فيهِ الآنَ هو حقيقةُ أنَّ نقودَهم تنفَدُ، وأن والدَه يريدُ الانتقالَ والعودةَ إلى تركيا. لكنَّهُ لَم يستطِعْ أن يستوعبَ الأمر،

حتى لو قالَ والدُهُ ذلك ارتجالاً وفي لحظتهِ. ما عليهِ إلا أن يعثرَ على طريقةٍ لكسبِ مزيدٍ منَ المالِ. وما عدا ذلك ربّما يرحلونَ عن أوهوس.

١٠

بدأ الثلجُ يذوب متحوّلاً إلى طينٍ بينما كانَ يستعِدُّ للذهابِ إلى المدرسة يومَ الاثنين. وبحثَ علاءُ الدينِ عن جزمتِهِ الصّفراءِ؛ فهوَ لا يستطيعُ أن ينتعلَ حذاءَهُ الشتويَّ العاديَّ في هذه الأحوال، لأنهُ سيتبلّل على الفورِ.

لم يستطِعْ أن يتذكرَ أيَّ نهايةِ أسبوعٍ سابقةٍ وقعَ فيها هذا القدْرُ من الأحداثِ في مثلِ هذا الوقتِ القصيرِ. وشعرَ كما لو أنَّهُ حلُم بالأمرِ كلّهِ، وبدا من الجيّدِ أن يذهبَ إلى المدرسةِ؛ فربّما تعودُ الأمورُ إلى نصابِها الطبيعي!

في صفِّ علاءِ الدين في المدرسةِ، قالت المعلمةُ أن التلاميذَ

سيعملون على موضوعٍ جديدٍ: سيُجرونَ بحثاً عن المكانِ الذي يعيشونَ فيهِ.

«أنتم لا تعرفونَ ما يكفي عن أوهوس»، قالتْ أُوسا. «وهذا غير صائبٍ. إذ يجبُ أن تعرفوا عن بلدتِكُم».

ترتّبَ على كلِّ تلميذٍ أن يختارَ مكاناً أو شخصاً يُريدُ أن يعرفَ المزيدَ عنهُ، كما قالتِ المعلّمةُ. ثمَّ عليهِ أن يكتبَ موضوعا قصيراً عن هذا المكانِ أو الشخصِ.

«كما أريدُ منكُم أن تُحضِّروا عرضاً صغيراً تقدمونهُ أمام بقيةِ الصّفِ».

تنهَّدَ علاءُ الدينِ. لم يسعفه التفكيرَ في أيِّ شخصٍ أو مكانٍ يودّ أن يكتُبَ عنهُ.

«أيجبُ أن يكونَ الشخصُ الذي نكتُبُ عنهُ على قيدِ الحياة، أم أننا نستطيعُ اختيارَ شخصٍ مُتوفًى»؟ سألَ أحدُ زملائهِ في الصّفِ.

«لا بأسَ طبعاً إذا أردتُم الكتابةَ عن شخصٍ مُتوفًى»، قالت أُوسا.

لكنَّ ذلكَ لم يُساعِدْ علاءَ الدينِ على الإطلاقِ. وسيتحدَّثُ معَ والدَيهِ عندما يعودُ إلى البيتِ؛ ربَّما تكونُ لديهما بعضُ الأفكارِ.

وعندئذٍ تذكرَ المقالةَ التي قرأها في الصَّحيفةِ. ما كانَ موضوعُها؟ فضَّةٌ قديمةٌ ما، ضاعَتْ ولمْ يجِدْها أحدٌ. ربَّما يستطيعُ أن يكتُبَ عن ذلك.

اقتربتْ أُوسا منهُ. «يبدو أنكَ غارقٌ في تفكيرٍ عميقٍ»، قالَت لَه.

تردَّدَ علاءُ الدينِ. هل سيبدو سخيفاً إذا قالَ أنهُ يريدُ أن يعرفَ عن الفِضَّةِ؟ بعدَ كلِّ شيء، لَم يكُنْ قد قرأ المقالةَ كلَّها. «حسناً...»، أجاب ببطء. «ينتابني بعضُ الفضولِ إزاءَ صائغِ الفضَّةِ ذاك. الصائغِ الذي فُقدَت فِضتُه».

ولدهشتِه، بشَّ وجهُ أُوسا. «يا لَها من فكرةٍ رائعةٍ، خاصةً وأنكَ تعيشُ في بُرجِ الماءِ القديمِ».

لم تكُنْ لدى علاءِ الدينِ أيُّ فكرةٍ عما تتحدَّثُ عنهُ.

ارتسمَ الجِدُّ على وجهِ أُوسا. «ألا تعني صائغَ الفضَّةِ في المقالَةِ

التي نُشِرت في الصحيفةِ قبلَ أيامٍ»؟

«نعم»، أجابَ علاءُ الدينِ، وقد أصبحَ أكثرَ ثقةً بنفسِهِ. «لكن لم يكُنْ لديَّ الوقتُ لأقرأ المقالَةَ بأكملها».

لوَّحتْ أوسا بيدِها. «هذِهِ ليستْ مُشكلةً. يمكنُ أن نجدَها بسُرعةٍ. سيكونُ ذلكَ ممتِعاً جداً. كانَ مقرُّ ورشةِ صائغِ الفضّةِ حيثُ يقعُ برجُ الماءِ الآن».

«حقاً»؟ وشعرَ علاءُ الدين بأنَّهُ مأخوذٌ تماماً.

«نعم»! لكنَّ الحادثةَ جرت قبلَ وقتٍ جدُّ طويلٍ. كان صائغُ الفضّةِ موهوباً جداً؛ وأراد الناسُ من كافةِ أنحاءِ منطقةِ سكونه أن يشتروا الأشياءَ التي يصنعُها».

لم يكُن علاءُ الدينِ يعرفُ ذلكَ أيضاً. «ماذا حدثَ لهُ»؟ سألَ.

«هذا متروكٌ لكَ لتكتشفَه بنفسِك»، قالت أوسا.

«لكن لا بدّ من أن تُطلعيني على شيءٍ»، أصرَّ علاءُ الدينِ.

جلسَت أوسا إلى جانبهِ. «حسناً»، قالتْ. «أخبرك شيئاً واحداً، وعليكَ أن تعرفَ البقيةَ وحدَك. اِتفقنا»؟

هزّ علاءُ الدينِ رأسَهُ موافِقاً.

«جيّد. هذا ما حدثَ. كما قلتُ، كان صائغُ الفضّةِ موهوباً جداً، وكان مُثابِراً ومجدّاً في عملِه. وذاتَ ليلَةٍ، بينما بقي يعملُ في وقتٍ متاخرٍ، هبّت عاصفةٌ رعديةٌ رهيبةٌ. وضربَت صاعقةُ برقٍ إحدى أشجارِ الصَّنَوبرِ في حديقتِه، وسقطت الشجرةُ على ورشتِهِ. وقد نجا وظلّ على قيدِ الحياةِ، لكنَّهُ اضطُرَّ إلى المغادرةِ لأنّ المطرَ تساقطَ بغزارةٍ شديدَةٍ. وفي الصباحِ التالي عندما همدت العاصفةُ، كرّ عائداً إلى ورشتهِ، آملاً أن يستعيدَ ما يخزّنه هناك من الحلي والأواني. لكِن، خمّن ماذا حدَثَ...».

«اكتشفَ أنها قد اختفتْ»، قال علاءُ الدين.

«بالضّبط. جاءَ أحدٌ ما إلى هناكَ في الليلِ وسرقَ الأشياءَ. ولم يستطِعِ الصائغُ أن يشتريَ مزيداً من الفضّةِ. وأقسمَ أن يعثرَ السارقَ، لكنّهُ لم يفلح في ذلكَ قطّ».

«وهكذا، لا أحدَ يعرفُ مَن الذي سرقَ الفضّةَ»، استنتجَ علاءُ الدينِ.

«لا، كانتْ لدى الشرطةِ شكوكُها بطبيعةِ الحالِ، ولكنْ، بما أنهُ لم يُعثَر على البضائعِ المسروقةِ مطلقًا، لم يكُن هناكَ شيءٌ يمكنُ فِعله. والآن، الأمرُ متروكٌ لكَ لتتعقّبَ بقيةَ القصةِ». ثم نهضتْ وغمزته بعينها ومضت لمساعدةِ تلميذٍ آخر.

شعرَ علاءُ الدين بالإثارةِ والحماسِة، ووضعَ قائمةً بالأشياءِ التي يجبُ أن يعرفَ عنها. سيبدأ بقراءةِ المقالةِ في الصحيفة. وسُرعانَ ما بدأتِ الفكرةُ تتبلور في ذهنِهِ. صحيح أن الفضّةَ ليستْ ذهباً، لكنَّها تساوي الكثيرَ من المالِ حتماً. ربما يتبينُ أنّ هذا المشروعَ المدرسيَّ سيكونُ مفيداً جداً في نهايةِ المطافِ.

في وقتٍ لاحقٍ من ذلكَ اليومِ، التقى علاءُ الدينِ ببيلي قربَ الميناءِ. أرادَا أن يريا ما إذا كانَ النهرُ ما زالَ متجمداً، لكنّه لم يكُنْ كذلك. لقد أذاب الطقسُ المعتدلُ الثلجَ.

«هذا سيئٌ فعلاً»، قالت بيلي. «رغبتُ حقاً في أن أتزلّجَ مرةً أخرى».

كانَ الجوُّ معتِماً معَ أنَّ الوقتَ ما زال عَصراً.

«ربما يتجمّدُ النهرُ ثانيةً في نهايةِ الأسبوعِ»، قالَ علاءُ الدينِ بتفاؤلٍ.

١١

جلسا على أحد المقاعدِ الطويلةِ إزاءَ الماءِ، وأخبرَ علاءُ الدينِ بيلي عن مشروعهِ المدرسيِّ الجديدِ. كانَ قد تواصلَ معها بوساطة الهاتفِ بمجردِ أن عادَ إلى البيتِ.

«من الرائعِ أنَّ مقرَّ ورشةِ صانعِ فضّةٍ كان حيثُ يوجدُ برجُكم اليوم»، قالتْ. «أتساءلُ عمّا حدثَ لتلكَ الفضّةِ المسروقةِ».

كانَ ذلكَ بالضّبطِ هو ما يريدُ علاءُ الدينِ أنْ يعرفَهُ.

تسبّبتْ لهُ قُبعتُهُ بحكّةٍ في رأسهِ، فخلعَها. كان مركبُ اللاجئين راسياً على بُعدِ مسافةٍ قصيرةٍ فقط من مكانِ جلوسهِما. وتساءلَ علاءُ الدينِ عن حالِ أولئك الذين يعيشون على متنِه. كانَ معتاداً على النّومِ فوقَ الماءِ؛ ففي كلِّ صيفٍ كان ينتقلُ مع والدَيهِ إلى

منزلِهم العائمِ في الميناءِ، ولو أنَّ الأمورَ ستغدو مختلفةً في الصيفِ القادمِ، بطبيعةِ الحالِ. فقد باعوا المركبَ.

«تبدو هادِئاً جداً اليوم»، قالت بيلي.

عاد علاءُ الدين واعتمر قُبعتَهُ. أينبغي أن يُخبرَ بيلي عن مدى قلقهِ الحقيقيِّ؟ أيخبرُها أنه سمِعَ عن غيرِ قصدٍ والديهِ يتجادلان، وأنَّه يخاف منَ اضطرارِهِم إلى مغادرةِ أوهوس؟

أخذ نفساً عميقاً، وتدفّقت الأشياءُ إلى ذهنِهِ دفعةً واحدةً.

«لديَّ ما أودّ أن أقولَهُ لك»، قال. «هيّا بنا نذهبُ إلى كرينغلان».

كرينغلان هو مقهى ومخبَزٌ في الساحةِ. والخبّازُ الذي يملكُه يزوِّدُ مطعمَ التركيِّ في البرجِ بالخُبزِ، ولذلك حصلَ علاءُ الدينِ في بعضِ الأحيانِ على المشروباتِ الساخنةِ والكعكِ مجاناً هناك.

طلبت بيلي رقاقةً بالقرفَةِ، وطلبَ علاءُ الدينِ كعكةً بالشوكولاتةِ. وعندما قصّ عليها علاءُ الدينِ ما سمعه، شرعَت بيلي في البُكاءِ.

«هذا فظيعٌ»، همسَتْ.

وعندئذٍ بكى علاءُ الدين أيضاً. كانت هناك سيدتانِ مُسنتانِ تجلسان إلى الطاولةِ المُجاورةِ وتحدّقان فيهما، ولذلكَ جفّفَ علاءُ الدينِ وبيلي دموعهما بسرعةٍ.

«لَم يتقرَّرْ شيءٌ بعد»، قال علاءُ الدينِ وهو يقطّع كعكتَهُ. «لكنني أكرَهُ حقيقةَ أن أبي ذكرَ مسألةَ العودةِ إلى تركيا. ما عرفتُ سابقاً أن الوضعَ سيئٌ إلى هذا الحدِّ».

«ولكن، ألم يناقِش والداك الموضوعَ معكَ؟ وسألاكَ عمّا تُريدُ»؟

هزّ علاءُ الدينِ رأسَهُ بالنفي.

«أنا لا أفهَمُ»، أردفت بيلي. «أعني، هل أنتمْ أتراكٌ فعلاً»؟

طرفَتْ عينا علاءِ الدين. «ماذا؟ نعم، طبعاً نحنُ كذلك. لماذا لا نكُونُ»؟

خفضَت بيلي نظرَها وحدَّقت في الطاوِلةِ. «حسناً، لقد عشتُم في أوهوس سنواتٍ وسنوات. ألا يعني ذلك أنكم سُوَيديُّون بشكلٍ أو بآخَر»؟

«أنا لا أفكّرُ حقاً في ما إذا كنتُ تركياً أكثرُ أم سُويدياً أكثر. إنها مسألةٌ تتعلقُ بـ أينَ أريدُ أن أعيشَ، بـ أينَ أشعرُ أنني في الوطنِ. إنّهُ هنا، ولو أننا نتحدّثُ التركيةَ ولدينا أقاربُ أتراك».

«ولكن، هل سيُسمَحُ لكُم بالعَودة؟ ظننتكَ قلتَ أنَّ والدكَ كانت لهُ مشاكلُ مع الحكومةِ هناكَ أو ما شابهَ».

«الأمرُ مختلِفٌ الآن. ولذلكَ نستطيعُ الذهابَ إلى هناكَ في الإجازاتِ، وما يُشبهها».

جلسا صامتَينِ فترةً من الوقتِ.

«هل فُقِدَ المزيدُ من الطعامِ من مَطعمِكُم»؟ قالت بيلي أخيراً.

نعم، حدَثَ. فقد لاحظَ علاءُ الدينِ أنَّ والدَيهِ بدءا يغضبانِ حقاً.

«في هذهِ الحال يتوجبُ أن نفعلَ ما اقترحتهُ سيمونا»، قالت بيلي. «أن نرى ما إذا يمكننا أن نراقبَ طوالَ الليلِ في نهايةِ الأسبوعِ».

«ممممم»، همهم علاءُ الدينِ وهو يقضمُ قطعةً كبيرةً من كعكتِه.

شرعَت بيلي في الضحكِ، حتى مع أنَّ علاءَ الدينِ ما زال مُتضايقاً. «طالما لا تجري الأمورُ خطأً كما حدث في ذلك اليومِ عندما حاولنا التجسُّسَ على ماتس»، قالتْ.

«لم يكُنْ ذلِك مُضحكاً كثيراً»، قال علاءُ الدينِ.

«حسناً، ربما كانَ ممُتِعاً قليلاً». وضحكَت بيلي مرة أخرى. ثم أخذت منحىً جدّياً. «ليس من العدلِ أن يستمرَّ الطعامُ بالاختفاءِ»، قالت. «ليس إذا كنتُم تحتاجون إلى المال، وربما تُضطرّون إلى العودةِ إلى تركيا. يجبُ أن نفعلَ شيئاً. وبسرعةٍ».

«أعرفُ. ولديَّ فكرةٌ».

اتسعَتْ عينا بيلي. «أخبرني»!

تردّدَ علاءُ الدينِ. «كنتُ أفكرُ في حكايةِ الفضّةِ التي حدَّثتكِ عنها».

بدَتْ بيلي مندهشةً. «الفضّةُ التي سُرقتْ من الورشة»؟

«نعم».

ولكن، أليسَت تلكَ الفضّة مفقودةً منذُ زمنٍ بعيدٍ»؟

«حسناً، نعَم»، قالَ علاءُ الدينِ.

كان قد حاولَ البحث في الإنترنت عن معلومات تتعلّق بصائغ الفضّةِ، ولم يعثُرْ على الكثيرِ لسوءِ الحظّ. ولم يجِدْ حتى مقالةَ الجريدةِ. لقد سُرِقَتِ الفضّةُ قبلَ مئةِ عامٍ. وفي ليلةِ سقوطِ شجرةِ الصنوبرِ على الورشةِ بسببِ العاصفةِ، كانت لدى الصائغِ كميةٌ كبيرةٌ تفوق المعتاد من المعدنِ الثمينِ في ورشتِه، لأنه تلقّى قبل ذلك طلباً لصناعةِ العديدِ من الأشياءِ للكنيسةِ في أوهوس. ولم يعرفْ علاءُ الدينِ ما هي تلكَ الأشياءُ، لكنَّ الصائغَ كان سيصنعُ مِن بين أشياءٍ أخرى جُرناً جديداً للمعموديّةِ. ويبدو أنه وعاءٌ يستخدمُه الكاهنُ عندما يقومُ بتعميدِ طفلٍ.

أخبرَ علاءُ الدينِ بيلي ما عرفَهُ.

«واو»، هتفت. «يمكن أنْ تقولَ تقريباً أنَّ اللصَّ سرقَ من الكنيسةِ».

«بالتأكيدِ. ساهمَ الكاهنُ وأُناسٌ آخرون يعملون في الكنيسةِ في البحثِ عن الفضّةِ، ولكنْ لم يُعثَر عليها مُطلقاً. بل إنّ الكنيسةَ عرضَتْ جائزةً لِمَن يُساعِدُ في إعادتِها، إلا أن أحداً لم يتطوّع. يبدو

أنهُم كانوا قد دفعوا للصائغِ مُقدَّماً، ولذلك طالبوا في النهايةِ باستعادةِ نقودِهم، لكنّهُ لم يكُن يمتلكُ مالاً ليعطيَهم إياه».

تناولَت بيلي قضمةً من رقاقة القِرفَةِ. «ربّما سرقَ الصائغُ الفضّةِ بنفسِه»، قالت. «ثمّ زعمَ أنّ شخصاً آخرَ فعلَ ذلكَ».

«هذا ما ظنّتهُ الشُرطةُ في البدايةِ، لكنّهم لَم يستطِيعوا إثباتَ شيء. وبقي الصائغُ في أوهوس، فقيراً ووحيداً. لا أعتقدُ أنهُ كان ليفعلَ ذلكَ لو أنهُ اللِصُ؛ بالتأكيدِ كانَ سيرحَلُ إلى مكانٍ بعيدٍ مع الفضّةِ، ويشتري بيتاً كبيراً ويأكُل المثّلجات طوالَ اليومِ، أو شيئاً من هذا القبيلِ.

«ألم يكُن هناكَ أيُّ مُشتبه فيهم غيره»؟ سألَت بيلي.

«بلى، لولا أنني لمَ أنجح في العثور على اسمِه، أو اسمِها».

«هذا ليسَ مهمّاً»، قالت بيلي بحزم. «لن يكونَ هو أو هيَ على قيدِ الحياة الآنَ بعدَ مئةِ سنةٍ في جميع الأحوال».

وكانت على حَقٍ طبعاً، لكنّ علاءَ الدين أراد مع ذلكَ أن يعرفَ مَن الذي اعتقدتِ الشُرطةُ أنهُ سرقَ الفضّةَ. وحتى لو أنّ

اللصّ ميتٌ، فرُبما لهُ أقاربُ ما زالوا أحياءً. ماذا لو أنّ هناك عائِلة ما في أوهوس لديها كومةٌ من الفِضّةِ المسروقةِ في منزِلها؟

«علينا أن نذهبَ إلى الكنيسةِ ونتحدّثَ إلى أحدٍ ما»، قالت بيلي. «ربما يعرِفونَ أكثرَ عن الصائغِ وفضتِه».

ابتسمَ علاءُ الدين. «أقلتِ نذهبُ»؟

«أريدُ أن أذهبَ معك»!

وهل تَنوين مُساعدتي في كتابةِ بحثي المدرسي أيضاً»؟ قال علاءُ الدين بقصدِ إغاظتِها.

«ولا بأيِّ حالٍ طبعاً»، أجابت بيلي. «أريدُ المشاركةَ في الأشياءِ المُمتعةِ فقط. في العثورِ على المعلوماتِ، وهذا النوعِ منَ الأشياءِ». وضحكَت. «ألا تريدُني أن آتي»؟

ابتسمَ علاءُ الدّين. لقَد أصبحَت بيلي بسرعةٍ مِن أفضلِ أصدقائهِ. وكانَ سعيداً بالسماحِ لها بمساعدتهِ في معرفةِ المزيدِ عن الفضّةِ المسروقةِ. وتمنّى حقاً أن تُغيّرَ رأيَها وتنتقلَ إلى مدرستهِ؛ كانا ليمرَحا كثيراً لو أنّهما في الصفِّ نفسه.

«طبعاً أريدُ»، قالَ.

فكَّرتْ بيلي للحظةٍ. «حسناً، هلُمَّ نفعَل ذلكَ. أعني نحاولُ العثورَ على الفضّةِ. لا بدّ من أنّها في مكانٍ ما. سأساعدُك؛ لا ريبَ في أنها تساوي طُنّاً من النقودِ. ربّما يمكنكُم أن تبيعوها وتتمكّنوا من البقاءِ في أوهوس»!

لسببٍ غريبٍ، أحسَّ علاءُ الدينِ فجأة بغَصّةٍ في حلقِهِ. «ربّما لن نستطيعَ الاحتفاظَ بالفضّةِ في حالِ عثرنا عليها»، قالَ بصوتٍ أجشّ.

«مهما كانَ الأمرُ»، قالت بيلي. «لن نعرفَ حتى نجدَها». ونظرَت في ساعتِها. «يجبَ أن أكونَ في البيتِ خلالَ ساعةٍ؛ لدينا وقتٌ للذهابِ إلى الكنيسةِ قبلَ ذلكَ، إذا أردتَ أن نفعل».

«حسناً، هيّا بنا»، قال علاءُ الدينِ وهو يهبّ على قدميهِ بسرعةٍ كبيرةٍ لدرجة أن مقعدَه ارتفَعَ قليلاً وارتطم بالأرضيةِ بقوّةٍ.

شعرَ بأنَّ عليهِ أن يفعلَ شيئاً ليضعَ نهايةً لمتاعبِ أمِّهِ وأبيهِ، وسيكونُ العثورُ على الفضّةِ بدايةً جيدةً.

لم تكُنْ المسافةُ إلى الكنيسةِ بعيدةً. وتحدَّثَ الصديقان وضحكا وهما يعبرانِ الساحَةَ، ولم يلاحِظْ أيٌّ منهما الصبيَّ ذا السروالِ الأخضرِ القصيرِ، المتواري وراء زاويةِ المبنى. كان يراقبُهما عن كثَبٍ، وتوارَى عِندما بدا له أنهما ذاهبان إلى الكنيسةِ. وحالما دخلا، انطلقَ يجتازُ الساحةَ.

لم يلاحظْهُ أحدٌ، ولم يرَهُ أحدٌ وهو يجلسُ على عتبةِ الكنيسةِ، مُنتظراً.

١٢

كان الجوُّ في الكنيسةِ دافئاً. وخلعَ علاءُ الدين وبيلي قبعتَيهِما الصوفيتَين وقفازاتيهما وفكّا أزرارَ مِعطَفيهِما. لم يكُن هناكَ ما يشيرُ إلى وجودِ أحدٍ آخرَ في المكان، ولا حتّى الكاهن.

«ماذا نفعلُ الآن»؟ سألَت بيلي.

«نقومُ بجولةٍ في المكانِ»، اقترحَ علاءُ الدينِ. «لا بدَّ من أنَّ أحداً هنا».

دارا حولَ المقصوراتِ واتجها إلى المذبحِ. كانَ هناكَ بيانو في مُقدمَةِ الكنيسَةِ؛ وجلسَت بيلي على مِقعَدِ الأسقُفِ.

«أنتَ تتقن العزفَ على البيانو، أليسَ كذلك»؟ قالت لعلاءِ الدينِ.

«نعم، لكنّني لن أعزفَ الآن».

«ولِمَ لا»؟

«لأنَّ هذا البيانو ليسَ لنا. ماذا إذا جاءَ أحدٌ»؟

لكنَّ بيلي تبنّتْ وجهةَ نظرٍ مختلفةً. «إذا عزفتَ، ربما يأتي أحدٌ ويخبرُنا أينَ الكاهنُ». ونهضَتْ عنِ المِقعدِ.

نظرَ علاءُ الدينِ حواليه. لم يكُنْ هناكَ أحدٌ على الإطلاقِ. ولا أيُّ طيفٍ... ومع ذلك جلس على المقعد وهو غير مقتنعٍ بعدُ بصوابِ الفكرة.

«ماذا أعزفُ»؟

«أيَّ شيءٍ تريدُه. أيَّ شيءٍ جميلٍ».

شيءٌ جميلٌ. شرعَ علاءُ الدينِ في عزفِ مقطوعةٍ ألّفَها والدُه؛ وعزفَها لوالدةِ علاءِ الدينِ في حفلِ زَفافِهما. وبمجرد أن لمسَ مفاتيحَ البيانو، صدَحتِ النغماتُ عالياً في أرجاءِ الكنيسةِ الخاليةِ من الناس.

«النجدَة»! قال، وتوقَّفَ عن العزفِ.

ضحكَت بيلي. «واصلِ العزفَ وأنا سأرقُصُ»، قالتْ لهُ.

واستجابَ علاءُ الدينِ. ليسَ هناكَ أحدٌ في المكانِ على أيِّ حالٍ. وملأتْ الموسيقى الكنيسةَ وحملَتِ الأنغامُ الصّديقَينِ بعيداً. رقصَت بيلي حولَ جُرنِ المعموديَّةِ وهي تضحكُ، وبعدَ بضعِ دقائقَ فقط أصبحا يستمتعانِ كثيراً حتى أنهما نسيا أينَ هُما. كانَ علاءُ الدينِ يعرفُ الكثيرَ من الألحانِ، وعزفَها تِباعاً. وغدا رقصُ بيلي أكثرَ جُموحاً، وقبلَ مرورِ وقتٍ طويلٍ وقفَت على المِنبرِ وهي تلوِّح بيديَها وساقيها، وبدَت مثلَ عروسٍ راقِصَةٍ تُحرِّكُ بخيطٍ.

وفجأةً سمِعا صوتاً عميقاً.

«يبدو أنكما تقضيانِ وقتاً طيباً».

خافَت بيلي حتى كادَتْ تقعُ عن درجِ المنبرِ، وتوقَّفَ علاءُ الدينِ فوراً عن العزفِ ووقفَ. لم يلاحظ أيٌّ منهما الكاهنَ وهو يخرجُ من بابٍ في زاويةِ الكنيسَةِ. حمداً للهِ أنَّهُ لم يبدُ غاضِباً؛ في الحقيقةِ، كان يبتسِمُ.

«أنت تتقنُ العزفَ»، قال لعلاءِ الدينِ. «عليكَ أن تأتيَ وتعزفَ

في أحد اجتماعاتِنا». ونظرَ إلى بيلي. «وربّما تأتينَ أنتِ أيضاً وترقصين لَنا».

احمرَّ وجهُ بيلي، بينما أملَ علاءُ الدينِ في أنَّ الكاهنَ يمزَحُ.

لا يمكنُ بأيِّ حالٍ أن يعزفَ أمامَ حشدٍ كاملٍ منَ الناسِ.

«لم نعثر على أحدٍ هنا»، قال. «أقصدُ، جئنا لنتحدَّثَ إليكَ، لكنَّنا لم نجدك».

«وهكذا شرعتَ في العزفِ»، قالَ الكاهنُ. «لقد فعلتَ الشيءَ الصائِبَ. أتمنَّى لو أنَّ المزيدَ من الناسِ يأتونَ إلى هنا وينشرونَ بعضَ البهجةِ». ونظرَ إليهما واحداً بعدَ الآخر. «وإذنْ، كيفَ أستطيعُ أن أساعدَكُما»؟

لم يكُنْ الشرحُ سهلاً، لكنَّ علاءَ الدينِ بذلَ ما في وُسعِهِ. أخبرَ الكاهنَ عن مشروعِ المدرسةِ، وأخبرَهُ بما عرفَهُ عن صائغِ الفضَّةِ.

«آها»، همهمَ الكاهن. «إذنْ والداكَ هما اللذان يمتلكانِ المطعمَ التركيَّ في البرجِ. إنهُ مطعمٌ ممتازٌ. كثيراً ما آكلُ هناك».

نزلت بيلي عَن المنبرِ لتنضمَّ إلى علاءِ الدينِ. «أكنتَ تعلمُ بأمرِ الصائغِ»؟ سألَتهُ.

«نعم، في الحقيقةِ»، أجابَ الكاهنُ. «هناكَ الكثيرُ ليُقالَ. لقد تعرّض ذلكَ الرجلُ المسكينُ لامتحانٍ عسيرٍ».

لاحَ الحزنُ فجأةً على الكاهنِ. «لكنّهُ لم يكُنِ الوحيدَ الذي عانى منَ المشكلاتِ عندما اختفَتِ الفضّةُ. أفترِضُ أنّكُما سمعتُما عن رجلٍ هنا في القريةِ كان قد اتُّهِمَ بأنّهُ السارقُ»؟

هزَّ علاءُ الدينِ وبيلي رأسيَهما إيجاباً، إلا أنهما لا يعرفانِ بعدُ من هوَ ذلك الرجلُ.

«كانتْ فوضى عارمة»، تابعَ الكاهنُ. «اِسمعا، ليسَ لديَّ الوقتُ لأحدثَكُما عن كلِّ هذا الآن، يجبُ أن أستعدَّ لجنازةٍ. أيمكنُ أن تعودا غداً في مثلِ هذا الوقتِ»؟

يمكنُهما بالتأكيدِ. وفي الطريقِ إلى الخارجِ، ألقى علاءُ الدينِ نظرةً أخيرةً على البيانو، وذكّر نفسَهُ بأنهُ يحتاجُ إلى معاودَةِ التمرّنِ على العزفِ.

كان الثلجُ قد بدأ يتساقطُ مجدّداً. وانهالَتِ ندفه الكبيرةُ والثقيلةُ منَ السّماءِ، مغطيةً الأرضَ مثلَ غلالَةٍ سميكةٍ بيضاءَ.

أحكمَ علاءُ الدينِ شدَّ قُبعتهِ على رأسِهِ.

«أظنُّ أنَّ منَ الأفضلِ أن أذهبَ إلى البيتِ»، قالت بيلي.

«وأنا أيضاً»، وافقها علاءُ الدينِ.

قرّرا أن يلتقيا أمامَ الكنيسةِ في الوقتِ نفسه في اليومِ التالي. ولوّحتْ بيلي بيدِها مُودِّعةً وذهبَتْ جرياً، بينما سلكَ علاءُ الدينِ الاتجاهَ المعاكسَ. وعندئذٍ فقط لاحظَ الصبيَّ على الدّرج.

توقّفَ، وتسمّر هناكَ كما لو أنهُ تحوّلَ إلى حجَرٍ. لم يلمح أحداً آخر في الجوارِ؛ كانت بيلي قدْ عبرتِ الشارعَ وانعطفَتْ نحو شارعٍ آخرَ. وحدّقَ الصبيُّ بصمتٍ في علاءِ الدينِ الذي فكّرَ بأنهُ يبدو غاضباً. جفّ فمُهُ من الخوفِ، ولم يجرؤ على تحريكِ عضلةٍ واحدَةٍ مِن جسدِهِ.

نهضَ الصبيُّ وسارَ مُبتعِداً.

لم يعرف علاء الدين ما يمكن أن يفعلَ. تذكّرَ بوضوحٍ كاملٍ كم كانَ خائفاً في القَبوِ، وكانَ خائفاً الآنَ أيضاً. لكنَّ فضولَهُ سيطرَ

عليهِ. ركضَ وراءَ الصبيِّ الذي انعطف عند زاويةِ الكنيسةِ واختفى في الظلامِ.

وقفَ علاءُ الدينِ جامِداً كالأموات.

غابَ الصبيُّ ثانيةً في الظلامِ. تماماً كما في القبوِ.

دقَّ قلبُهُ بقوةٍ مرةً أُخرى. لم يرغب في الركضِ في ساحةِ كنيسةٍ مظلِمةٍ. إنَّها النتيجةُ نفسُها تتكرَّرُ: الصبيُّ اختفى وعلاءُ الدينِ فشلَ في العثورَ عليهِ.

استدارَ عائداً ببُطء. وما كاد يبلغُ واجِهةَ الكنيسةِ شعر بأنَّ هناكَ شيئاً غيرَ صائبٍ. وقفَ وحدَهُ في الثلجِ وحدَّقَ في الدَّرج. ما يقلقهُ يا ترى؟

ثُمَّ أدركَ أخيراً ما هو. لم يتركِ الصبيُّ أيَّ أثرٍ في الثلجِ. ليسَ على الدُّرجَ حيثَ جلَسَ، ولا حيثُ سارَ منعطفاً حولَ الكنيسةِ. ولم يصدِّقْ علاءُ الدينِ عينيه. اقتربَ أكثرَ؛ وكان متوتِّراً جداً لدرجة أنَّهُ حبَسَ أنفاسَهُ.

حدَّقَ في الأرضِ، ورأى آثارَ قدميه هو فقط، أما الصبيّ فلا أثر لقدميه.

١٣

وجدَ علاءُ الدين صعوبةً في النومِ تلكَ الليلة. لم يستطعِ الكفَّ عن التفكيرِ في الصبيِّ. كيف يُمكنُ أن يمشيَ على الثلجِ بدونَ أن يتركَ أثراً؟

فقط قبلَ منتصَفِ الليلِ استسلمَ وأشعلَ الضوءَ إلى جانبِ سريرِه. لعلّه إذا قرأ فترةً قصيرةً من الوقت يتمكّنُ من النومِ.

وفي تلكَ اللحظةِ سمعَ حسّاً على الدرج.

وتجمَّدَ.

لقد عادَ سارقُ الطعامِ!

خافَ علاءُ الدينِ كثيراً حتى أنهُ لم يجرُؤ على إطفاءِ الضوءِ أو التحركِ من مكانِهِ. لم يفكّر بشيء سوى أنَّ هناكَ لصّاً يرتقي الدرجَ.

ولم يكُنْ بابُ غرفتهِ مزوّداً بقفلٍ، ووالداه ذهبا لبناما قبلَ ساعةٍ من الآن. ماذا لو حدثَ لَهُ شيءٌ ولم يسمعا؟

جلسَ هناكَ بلا حِراكٍ، وخفقَ قلبُهُ بسرعةٍ كبيرةٍ بحيث سمع تردّد وجيبهِ في أذنيهِ.

ثمَّ سمِعَ صوتاً يتكلّمُ بهدوءٍ:

«كنتُ متأكداً من أني نسيتُ أن أقفلَ البابَ الأماميَّ».

وأطلقَ علاءُ الدينِ تنهيدةً ارتياحٍ. كان ذلكَ صوتُ والدِه.

وسرعانَ ما سمِعَ المزيدَ من وقعِ الخطواتِ؛ إنها خطواتُ والدتهِ بطبيعةِ الحالِ.

«ششش، ستوقظُ علاءَ الدينِ»، همسَتْ أمُّهُ.

«لا لن أفعلَ»، قال أبوهُ، مَعَ أنهُ خفْضَ صوتَهُ.

ثم سمعَ علاءُ الدينِ اسمَهُ يُذكَرُ مرةً أخرى:

«من الواضحِ أنَّ علاءَ الدين لديهِ ما يشغلُ فِكره»، قالتْ أمُّهُ.

«ربّما يفكّرُ في مسألةِ الفضّةِ المسروقةِ»، قالَ أبوهُ.

انسلَّ علاءُ الدينِ من السريرِ بدونَ أن يُصدرَ صوتاً وسارَ على أطرافِ أصابعهِ إلى البابِ.

«الأمرُ أكثرُ من ذلكَ»، قالتْ أمُّهُ. «كنتُ أفكرُ في الصبيِّ اللاجئِ الذي يتسكّعُ حولَ البُرجِ. لم يَذكرهُ علاءُ الدينِ اليوم. ربّما تعارفا وأصبحا يتقابلان أكثَر، لكنَّ علاءَ الدينِ لا يريدُ أن يُعلِمنا بِذلكَ».

ماذا؟ هل جُنّت ماما؟ لماذا يبقي علاءُ الدينِ شيئاً كهذا سِرّاً؟

«مممم»، همهم والدُهُ. «ليسَ هذا ما يهُمُّ! في وسعِ علاء الدينِ أن يُصادِقَ من يُريدُ. إلا أنّه لا يبدو على طبيعتهِ. هو لا يُخفي الأشياءَ عنّا في العادةِ».

صدرَ صوتُ صريرٍ خافتٍ من الدرجِ عندما تحرّكَتْ والدتُهُ.

«لكن نحنُ نُخفي الأشياءَ عنهُ»، قالتْ.

انعقدتْ معِدَةُ علاءِ الدينِ منَ الخَوفِ.

«تعنينَ مشكلاتِنا الماليةَ؟ إنَّ علاءَ الدينِ يعرِفُ أكثرَ مما نظنّ، وقد تحدّثنا صراحةً عن ذلكَ. حسناً، بصراحَةٍ إلى حدٍّ ما»، قال أبوهُ.

«أعني فكرةَ العودةِ إلى تركيا»، قالت والدتُهُ. «ألا يجبُ أن نناقِشَ الأمرَ معَهُ»؟

الآن، شعَرَ علاءُ الدينِ وكأنَّ قطعةً من الثلجِ استقرَّتْ في معدتِهِ. هل رُتِّبَ كلُّ شيءٍ وانتهى الأمرُ؟ أيمكنُ أن يُقدِموا على مثل هذا العمل حقاً؟

طمأنتْهُ إجابةُ والدِهِ:

«هذا الأمرُ ليسَ واضحاً بَعد، ويُفضَّلُ أن لا نقلقَهُ بلا داعٍ. على أيِّ حالٍ، ظننتُ أنكِ لا تريدينَ العودَةَ إلى تركيا. هكذا بدا لي في ذلكَ اليومِ».

«لقد فكرتُ كثيراً في الأمرِ»، قالتْ والدتُهُ ببُطء. أنتَ على حقٍ. ربما من الأسهلِ علينا أن نفتحَ مطعَماً في أحد منتجعاتِ السُّياحِ هُناك».

بدا لعلاءِ الدين كما لو أنها تصعَدُ الدّرج الآن.

«لكنَّني إذا أطعتُ قلبي، فإنني أفضّلُ البقاءَ هنا في أوهوس»، أضافتِ الأمُ.

تهيّأ لعلاءِ الدين أنها تبكي، وشعرَ بموجة بردٍ تكتنفُهُ. أيجبُ أن يفتحَ البابَ ليعرفا أنّهُ سمِعَ ما يقولانه؟ لكنَّ شيئاً منعَهُ. وخطا

مبتعداً عن البابِ، وسمعَ والدَهُ وهو يطيّبُ خاطِرَ والدتِه.

«ليا، ليسَ علينا أن نرحلَ غداً. ما زال لدينا الوقتُ لنفكّرَ في هذا الأمرِ».

مضيا في طريقهِما إلى الطابقِ العلوي، وخيّمَ السكون من جديدٍ.

عادَ علاءُ الدينِ إلى سريرِهِ وسحبَ الغطاءَ على جسدِهِ حتى ذقنِهِ. منَ الجيدِ أن بيلي ليسَتْ هنا، لأنهما كانا سيبكيانِ عندئذٍ مرةً أخرى. أبوه قالَ أنَّ لديهِم متسعاً من الوقتِ، وإنما ليسَ الكثير منهُ. شعرَ علاءُ الدينِ فجأةً كما لو أنَّ العثورَ على الفضّةِ المسروقةِ أصبحَ الآنَ أكثرَ إلحاحاً من أيِّ وقتٍ مضى.

يجبُ أن ينجحَ هذا الأمرُ، فكَّر علاءُ الدينِ. لا يهُمُّ إذا كانت الفضّةُ مفقودةً منذ ألفِ عامٍ. سأعثرُ عليها، مهما تطلّبَ الأمرُ.

١٤

لم يعرِفْ علاءُ الدينِ كيفَ حدثَ ذلك، لكنهُ نامَ في نهايةِ المطافِ. ربّما اطمأنَّ ونامَ لأن أمّهُ قالت إنها لا تريدُ أن ترحلَ. ليس إذا كانَ لدَيها خَيارٌ.

في الصباحِ التالي تدنّت حرارة الجوِّ مرةً أخرى، كما لو أنَّ الطقسَ لَم يستطِعْ أن يستقرَّ على قرارٍ. وجعلتهُ أمُّهُ يرتدي زوجين من القفازاتِ قبلَ أن ينطلقَ إلى المدرسةِ. وقد هلّلت معلمته كثيراً عندما أخبرَها أنه ذهبَ هو وبيلي إلى الكنيسةِ.

«ننوي العودة إلى هناكَ بعدَ ظُهرِ اليوم»، قالَ لها بفخرٍ.

«هذا مثيرٌ! أحسنتَ العملَ»! قالت أوسا. «بالمناسبةِ، معيَ شيءٌ لَك».

ذهبَت إلى المكتبِ وتناولَتْ كتاباً رقيقاً. «إليكَ هذا»، قالت وهي تُسلِّمُه الكتابَ.

تفحّصَ علاءُ الدين الكتابَ وقطّب حاجبيه. «عن ماذا يتحدَّثُ»؟

«عن صاغةِ الفضّةِ في السُّوَيدِ»، قالت أوسا. «وجدتُه في المكتبةِ أمسِ. ويرد فيه الحديثُ عن صائغٍ فضّتِكَ ذاكَ، إذا أردتَ أن تعرفَ المزيدَ عنه».

كان الكتابُ خفيفاً مثلَ ريشةٍ في يدِ علاءِ الدين الذي ينتظرُ انتهاءَ الدوامِ بصبرٍ نافد حتى ينطلقَ إلى الكنيسَةِ. لكنَّ ما زال عليهِ الانتظارُ ساعتين. وطلبَت منهم أوسا أنْ يعملوا خلالهما على مشاريعِهِم عن أوهوس، ولذلكَ في وسعه أن يقرأَ الفصلَ في الكتابِ الذي يأتي على ذكرِ صائغهِ، ربَّما يُساعدُ هذا في مرورِ الوقتِ بمزيدٍ من السرعةِ.

كان الصائغُ رجلاً وحيداً، عاشَ دائماً في بيتٍ صغيرٍ على بُعدِ مَرمى حجَرٍ فقط من ورشَتِهِ. لم تكُنْ له عائلةٌ. وشكّلَ عملُه أهمَّ

جانبٍ من جوانبِ حياتِه. وفي الليلةِ التي ضربَتْ بها الصاعقَةُ شجرَةَ الصّنوبرِ، تدمّر كلُّ شيءٍ دفعةً واحدَة. تحوّلتِ الورشةُ إلى ركامٍ واختفَتِ الفضّةُ، تماماً كما سَمِعَ علاءُ الدينِ القصّةَ سابقاً.

اتّسعَتْ عيناهُ وهو يواصِلُ القراءةَ، لأنَّ الصائغَ كما يقولُ الكِتابُ جُنَّ عندما فقدَ مصدرَ رزقِهِ. غضِبَ من كلِّ شيءٍ ومن جميعِ الناسِ. وأخذَ يتصرّف بطريقةٍ سيئةٍ معَ الآخَرين. وفي نهايةِ المطافِ أصبحَتِ البلدةُ كلُّها تخافُ منهُ. ثم جاءتِ الشّرطةُ وأخذتْهُ إلى مستشفى للأمراضِ العقليّةِ. ومن الواضحِ أنّهُ مكانٌ يودَعُ فيهِ الناسُ الذينَ يضطَربُ سلوكُهُم بحيثُ يُمكنُ أن يُشكلّوا خطراً على أنفسِهِم وعلى غيرِهم من الناس.

ولم يسمَعْ أحدٌ عَن صائغِ الفضّةِ بعدَ ذلكَ، وماتَ في المصحّ بعدَ بضعِ سنواتٍ. ووفقاً للكتابِ، عُثِرَ على الكثيرِ من الرسائلِ تحتَ فراشِهِ في سريرِ المستشفى.

أخرجَ علاءُ الدينِ دفترَ مُلاحظاتِهِ بسرعةٍ ليدوّن الأسئلةَ التي يريدُ أن يطرحَها على الكاهنِ. وطالما أنّهُ يركّزُ على قصةِ صائغ

الفضّةِ، أصبحَ من السهلِ عليهِ تجنُّبُ التفكيرِ في الأمورِ الصّعبةِ الأُخرى، كحقيقةِ أنهُ يجهلُ كيفَ استطاعَ الصبيُّ ذو السروالِ القصيرِ أن يمشيَ على الثلجِ بدونَ أن يتركَ آثارَ أقدامٍ.

لا بدّ من أنني كنتُ مخطئاً، فكّر علاءُ الدينِ. كانَت الدنيا مُعتِمةً والثلجُ يتساقَطُ بكثافةٍ عندما خرجنا من الكنيسةِ؛ لا بدّ من أنني كنتُ مخطئاً.

وتابعَ كتابةَ الملاحظاتِ.

التقيا هوَ وبيلي على درجِ الكنسيةِ بعدَ انتهاءِ المدرسةِ، وارتفَعَ المبنى فوقَهما مثلَ ظلٍّ قاتمٍ هائلٍ. بحثَ علاءُ الدينِ عن الصبيِّ ذي السّروالِ القصيرِ، ولم يجِدْ لهُ أثراً.

«عن أيِّ شيءٍ تبحث»؟ سألَتْ بيلي.

«لا شيءَ». لم يشأ علاءُ الدينِ أن يخبرَ بيلي بأنه رأى الصبيَّ مرةً أُخرى؛ وإنما أخبَرها بدلاً من ذلكَ بما عرفَهُ منَ الكتابِ الذي أعطَتهُ لهُ أوسا.

«عظيمٌ»، قالت بيلي. «يتحتمُ علينا أن نجِدَ الفضّةَ، وبسُرعةٍ! أو أننا يجبُ أن نفكِّرَ بطريقةٍ أُخرى لكَسبِ النقودِ. بالمناسبةِ، أفُقِدَ

المزيدُ منَ الطعامِ»؟

«ليسَ في الليلةِ الفائتةِ. لا».

«ربّما انتهَى هذا الأمرُ»، قالَت بيلي بتفاؤلٍ.

«ربّما».

ابتسمَت بيلي. «تتذكّر ما قُلنا طبعاً: إذا استمَرَّ الأمرُ، فسنُساعِدُكَ أنا وسيمونا في مراقبةِ السارقِ في نهايةِ الأسبوعِ».

السّارقُ... إذا كان الصبيُّ هو الذي يأخذُ الطعامَ، فإنَّ علاءَ الدينِ لم يجدْ منَ الصوابِ وصفَهُ بالسّارقِ.

«لعلّه ليس لصّاً حقيقياً»، قالَ.

«بالطبعِ هوَ كذلِك».

«ليسَ إذا كانَ الشّخصُ الذي يأخذُ الطعامَ يفعلُ ذلكَ لأنهُ هو أو هي جائِعٌ».

«ما الذي تفكّرُ فيهِ؟ لا يستطيعُ المرءُ أنْ يسرِقَ الأشياءَ فقط لأنهُ جائعٌ»!

«مممم»، همهَم علاءُ الدين. «هيّا، ندخُل».

فتحَا بابَ الكنيسةِ وانسلّا إلى الدفءِ في الداخلِ.

كان يتأبطُ دفترَ ملاحظاتهِ الذي يضُمُّ قائمةً بالأسئلةِ، وواصلَ التفكيرَ في الملاحظاتِ والرسائلِ التي عُثِرَ عليها تحتَ فِراشِ صائغِ الفضّةِ.

كلُّها قالتِ الشيءَ نفسَهُ: أورفار هو الذي أخذَ الفضّةَ.

ولكنْ، مَن هوَ أورفار؟

١٥

«أورفار كانَ عدوٌّ صائغِ الفضّةِ اللدودِ»، أوضح الكاهنُ.

جلس الثلاثة متجاورينَ في المقصورَة الأماميةِ، قربَ المذبحِ مباشرةً، والكاهنُ في الوسط. واليوم، ثمّةَ شموعٌ تحترقُ في الشمعداناتِ على طولِ الجدرانِ، ولوهجها أشكالٌ منَ الظلالِ على الأسطُحِ البيضاءِ؛ أشكالٌ بدَت تقريباً مثلَ الأشباحِ.

لم يستطِعْ علاءُ الدينِ مقاومةَ الرّعدة التي سرَت فيه.

«كانَ أورفار وصائغُ الفضّةِ واقعَينِ في غرامِ الفتاةِ نفسها»، أردف الكاهنُ. «وقد خطَبا وُدّها لسنواتٍ قبلَ أن تتخذَ قرارَها أخيراً: اختارت الارتباطَ بالصائغِ، وليسَ أورفار».

«لكنَّ الكتابَ الذي قرأتهُ يقولُ أنَّ صائغَ الفضةِ كانَ وحيداً»، قاطعَهُ علاءُ الدينِ.

«هذا صحيحٌ. أو كي نكونَ أكثرَ دقّةً، انتهى بهِ المطافُ وحيداً. فقد مرِضَتْ خطيبتُه في الأسبوعِ الذي سبقَ الزفاف، وماتت قبلَ أن يتزوّجا».

«آه، لا! هذا فظيعٌ»! هتفت بيلي وعيناها تترقرقان بالدموعِ.

«هذا ما حدثَ في الحقيقةِ»، قالَ الكاهنُ. «ثم أصبحتِ الأمورُ أسوأ، لأنَّ أورفار زعم أنَّ ذلك خطأ الصائغِ. لو أنه اعتنى جيّداً بالفتاة، لما تُوفيَت. كان ذلكَ من بابِ الثرثرة السامّةِ بطبيعةِ الحالِ؛ فقد ماتَت الفتاةُ من الالتهابِ الرئوي، لكنَّ الصائغَ وأورفار لَم يستطيعا تجاوُزَ فجيعَةِ موتِها».

«وإذن، ماذا حدثَ بعد ذلك»؟ سأل علاءُ الدين بنفادِ صبر.

«بقيا عدوّين. التقى أورفار بفتاةٍ أخرى وتزوّجها، لكنَّ الصائغ لم يتزوّج قطّ. وعندما تدمّرت ورشتُه، لم يتبقَ لهُ شيء. فقدَ حُبّهُ وصنعَته، وعندئذٍ فقدَ عقلَه أيضاً، وانتهى به المطافُ في مستشفى

الأمراضِ العقلية».

فقدَ عقلَه. بدا ذلك مُروِّعاً.

«هل ظنَّ أحدٌ آخرُ ما عدا الصائغِ أنَّ أورفار هو من أخذَ الفضّةَ»؟ سألت بيلي.

«آه، نعم»، أجاب الكاهنُ. «كانتِ الشرطةُ مُقتنعةً بأنه هو اللصُّ، لكنها لم تعثُرْ على دليلٍ؛ فالفضّةُ اختفتْ، ولم يكن في وسع الشرطةِ القبضَ على أورفار بلاِ دليلٍ».

«مع أنهُ يبدو أن ذلكَ هو ما يستحِقُّه»، قال علاءُ الدين، وقد اعتراهُ الغضبُ عندما فكَّر بأورفار الذي بدا أنهُ دمَّرَ حياةَ الصائغِ.

وضعَ الكاهنُ يدَه على كتفِ علاءِ الدينِ. «لا تَقسو كثيراً في الحكمِ على أورفار»، قال. «فقد نالَ نصيبَهُ من البُؤسِ هو الآخَرُ أيضاً».

«نالَ ما يستحِقُّه»، تمتمَ علاءُ الدينِ.

بدا الكاهنُ حزيناً. «الصائغُ فقدَ عروسَه»، قال، «لكن أورفار

فقدَ عائلتَه كلَّها. وإذا كانَ هو من أخذَ الفضّةَ فعلاً، فقد عُوقِبَ بشدّةٍ، على الرّغم من أن الشرطةَ لم تعثر على ما يدينهُ».

«ماذا حدَث»؟ سألَت بيلي.

لكنَّ علاءَ الدينِ تدخّلَ قبلَ أن يتاح للكاهن أن يجيبَ.

«ماذا تظنُّ؟ أتعتقدُ أن أورفار كانَ السارق»؟

ضحكَ الكاهنُ. «كيفَ لي أن أعرفَ؟ هذا حدثَ منذُ وقتٍ بعيدٍ».

«أيمكنُ أن يكون صائغُ الفضّةِ هو الفاعِلُ». تساءلَتْ بيلي.

أطرقَ الكاهنُ برأسهِ. «هذا ما لا نعرفهُ بالضبطِ»، قالَ. «الأمرُ هو أنهُ لم يكُنْ هناكَ أيُّ دليلٍ حقيقيٍّ يدينُ أورفار. ونحنُ نعرفُ أنَّ الصائغَ يضمرُ له الكراهية. وربما أخذَ الفضّة وأخفاها حتى يُلقيَ اللومَ على غريمِهِ ويدمِّرَ حياتَهُ. ربّما كانَ الصائغُ يُعاني مُسبقاً من بعضِ المشاكلِ العقليةِ قبلَ أن تختفيَ الفضّة، لكنَّ أحداً لم يلاحِظْ ذلك. الناسُ الذين ليسوا على ما يُرام يُقدِمون على فعلٍ

أشياءٍ غريبةٍ أحياناً».

جلسوا صامتين فترةً من الوقتِ. حاولَ علاءُ الدينِ أن يلخِّصَ ما عرفاهُ من الكاهنِ. لم يَبدُ أنهما أصبحا أقربَ إلى معرفةِ ما حدثَ للفضةِ. ومع ذلكَ، بدا واضحاً جدّاً أن اللصَّ هو إما أورفار أو صائغُ الفضّةِ نفسُهُ.

أورفار أو الصائغُ... كيفَ يمكنُ أنْ يعرفا؟

ثم فكَّرَ في السؤالِ الذي طرحتْهُ بيلي قبلَ أن يُقاطِعَ الحديثَ، وسألَ: «قلتَ أن أورفار فقدَ عائلتَهُ. ماذا حدَثَ»؟

«تزوَّجَ أورفار امرأةً من بلدةٍ مُجاورةٍ»، قالَ الكاهنُ. «أعتقدُ أن اسمَها كان إلفيرا. وأنجبَتْ لأورفار ولدَين. وفي أحدِ الأيامِ، أرسلَتِ الولدَ الأكبرَ في مَهَمّةٍ، لكنَّه لم يعُدْ إلى البيتِ قطّ؛ ماتَ في حادِثٍ. وانهارت أمّه انهياراً هائلاً إلى درجة أنها هجرت أورفار. اصطحبَت معها ابنَهما الصغيرَ، ولم تعُد مطلقاً. أعتقدُ أنها انتقلَت إلى كريستيانستاد لتعيشَ مع والدتِها. وهكذا، تُرِكَ أورفار وحدَه في أوهوس مع كلبِهِ».

تناولَت بيلي كتابَ ترانيمٍ من على الرفِّ أمامَها.

«وإذن، لم يكُن أورفار وحيداً تماماً»، قالت. «ليسَ إذا كان لديهِ كلبٌ».

«يمكنُكِ النظرَ إلى الأمرِ على هذا النحوِ، كما أعتقدُ»، قالَ الكاهنُ.

«ولكنْ، إذا كان لدى المرءِ زوجةٌ وأبناءٌ وفقَدهُم، لا أعتقدُ أن وجودَ كلبٍ سيكونُ كافياً، بطريقةٍ ما».

تحرَكَ الكاهنُ على المقصُورةِ المصنوعةِ من الخشَبِ الصّلبِ. «حسناً، أخشى أنَّ هذا هو كلُّ ما عندي لأخبركُما به».

«هل هناكَ مَن يمكن أن يعرفَ شيئاً عن تحقيقاتِ الشرطةِ في السَّرقةِ»، سألَ علاءُ الدينِ. «كضابطِ شرطةٍ سابقٍ كان قد شارك فيها»؟

«أشكُّ كثيراً في ذلكَ»، قالَ الكاهنُ مُبتسماً. «أيُّ شخصٍ شارَكَ في القضيةِ لا بدّ من أن عمرَه اليوم يربو على مئةِ سنةٍ».

نهضَ، ثمَّ عادَ وجلَس. «هناكَ شخص واحد يمكنُ أن يفيدكما؛

إنَّها سيدةٌ عجوزٌ تُساعِدُ هنا في الكنيسةِ. اسمُها إيلسا. كانَت تعتني بأرشيفنا، وأنا متأكدٌ من أنها تستطيعُ أن تريكُما بعضَ صُورِ أورفار وصائغِ الفضّة. هل سيساعدُ هذا»؟

هزَّ علاءُ الدين وبيلي رأسيهِما بلهفةٍ؛ سيكونُ ذلكَ عظيماً!

«جيّد. في هذهِ الحالةِ سأتصلُ بها وأعرفُ متى تكونُ هنا».

«رائعٌ»، هتفَ علاءُ الدينِ.

«وحالما أتحدّث إليها سأتصلُ بِكما»، قال الكاهن. ثم عاد ووقفَ، وقد ارتسمَتْ على شفتَيهِ ابتسامةُ العارفِ ببواطِنِ الأمورِ.

«فقط لا تترُكا لها المجال لتفزعكُما بقصَصِها المخيفةِ. إنها تؤمنُ بالأشباحِ ومختلفِ أنواعِ الأشياءِ الغريبةِ. وإذا بدأتْ في الحديثِ عن صبيِّ الفضّة، عِداني بألاّ تُصدِّقا ما تقولُ، لأن هذا كلّه محضُ هُراءٍ».

«صبيُّ الفضّة»؟ ردَّدَ علاءُ الدينِ مُندهِشاً.

«إنها مجرّد حكايةٍ قديمةٍ»، قال الكاهنُ مُتهرِّباً.

«عن ماذا»؟ أصرَّ علاءُ الدينِ.

تردّد الكاهنُ. «عن صبيٌّ آخر أرادَ بشدّةٍ أن يعثُرَ على الفضّة»، قالَ. «والذي ماتَ قبلَ زمنٍ طويلٍ».

١٦

في مساءِ اليومِ نفسه، اتصل الكاهنُ بالسيدةِ التي تُساعدُ في الكنيسةِ، وعلى الرّغم من أنها لم تكُن على ما يرام أعربَت عن سرورِها بالاجتماعِ بهما في الأسبوعِ القادمِ. كانَ ذلكَ الوقت أطول مما أمِلَ فيهِ علاءُ الدينِ، بيدَ أنّه لم يكن في وسعِه فعلُ شيءٍ إزاء ذلك. فهُما في حاجةٍ إلى كلّ المُساعدةِ التي يمكِنُ أن يحصلا عليها، وهو يريدُ حقاً أن يسمعَ المزيدَ عن صبيِّ الفضّةِ.

ولكنْ، سُرعان ما أصبحَ لديهِ شيءٌ آخرُ ليفكّرَ فيه. فُقِدَ المزيدُ من الطعامِ من المطبخِ. وناقشَ والداهُ فكرةَ تركيبِ كاميرا، لكنْ ترتيبَ ذلكَ سيتطلّبُ بعضَ الوقتِ. ربّما بعدَ أسبوعٍ.

اتصلَ علاءُ الدين ببيلي وسيمونا.

«أراكَ في نهايةِ الأسبوعِ إذَن»، قالت سيمونا. «في مساءِ السّبتِ. سترى. سنضعُ حداً لِسارِقِ طعامِكُم قريباً».

جعلَت سيمونا الأمرَ يبدو بسيطاً، لكنَّ علاءَ الدينِ لم يكُن مقتنِعاً.

ومع ذلكَ، أزعجهُ الانتظارُ حتى يوم السبت. كان والداه يعملانِ بجدٍّ كبيرٍ بحيث ما عاد يراهما إلا لِماماً. على نحو ما بدا ذلكَ جيّداً؛ إنّهما بالتأكيدِ مشغولان بحيثُ لا يتسنى لهما الوقتُ للبدءِ في التخطيطِ للعودةِ إلى تركيا.

وأخيراً مضى الأسبوعُ، وأنهى علاءُ الدينِ العملَ على إحدى طائراتهِ الصغيرةِ بينما ينتظرُ وصولَ بيلي وسيمونا، ثمّ نزل إلى القبوِ لإحضارِ الفُرُش القابلةِ للنفخِ من أجل ضَيفتَيهِ. وركضَ في النزول والصعود، وتُرِكَ هذهِ المرّة بسلام؛ لم يفزِعْهُ أحدٌ وهوَ في غرفةِ التخزينِ.

«هذا لطيفٌ»، قالتْ أمُّهُ عندما مرّتْ أمامَ غرفتِه ورأتهُ يرتِّبُ

الأسرَّة. بدَت متعبةً للغايةِ. «أنا سعيدةٌ لأنكَ الليلةَ ستحظى برفقَةٍ». وابتعدَتْ مُسرعةً.

تذكَّرَ علاءُ الدينِ تلكَ الأوقاتَ القديمةَ عندما كان صغيراً: في ذلكَ الحينِ، حرصَ والداهُ على أنْ لا يعملا في نهاياتِ الأسبوعِ معاً؛ كانَ أحدُهما دائماً في إجازَةٍ ليلعبَ معهُ. وأحزنه التفكيرُ في ذلكَ؛ لقد تغيَّرتِ الأوضاع حتى من غيرِ أن يلاحظَها.

وصلتْ بيلي وسيمونا في السّاعةِ السادسةِ، حسبَ الاتفاقِ. وكالعادةِ، جلبَت سيمونا معَها حقيبةً كبيرةً، بينما حملَت بيلي حقيبةً مكتظّةً بالكتبِ. ماذا ستفعلُ بها؟ أتنوي أن تخبطَ بها اللصَّ على رأسِهِ؟

«متى يضربُ السارقُ ضربتَه في العادة»؟ سألَت بيلي.

«كيفَ لي أن أعرفَ»؟ أجابَ علاءُ الدينِ. «لو كنتُ أعرفُ لضبطناه قبلَ أسابيعَ».

«صحيحٌ»، تنهدّت بيلي. «أردتُ فقط أن أعرفَ إذا كان علينا أن نبقى مستيقظينَ طوالَ الليلِ».

أحضرَ الأصدقاءُ بعضَ الطعامِ من المطعمِ وجلسوا على الأريكةِ ليأكلوا. وروَت سيمونا حكايةً عن شيءٍ سخيفٍ فعلَه أبوها؛ وضحكَت بيلي، لكنَّ علاءَ الدين لم يكن يستمِع حقاً. وأرادَ فقط أن يمُرَّ الوقتُ حتى يضعوا خطّتهُم قيدَ التنفيذ. في نهايةِ الأسبوعِ يسمَحُ له والداهُ أن يبقى مستيقظاً كما يشاء، إلا أنهما قد يتفاجآن قليلاً إذا لم ينَمْ على الإطلاقِ.

«حسناً، بالتأكيدِ سننامُ»، قالت سيمونا. «وإلا لن نفلحَ في مواجهةِ الموقفِ».

«إذن، أينَ سيكونُ الشخصُ المستيقِظُ»؟ سألت بيلي. «في الأعلى حيث المطعمِ»؟

فكَّرَ علاءُ الدينِ قليلاً في الأمرِ. سيُغلَقُ المطعمُ في السّاعةِ العاشرةِ، وفي الحاديةِ عَشرة يُنهي والداه أعمالَ التنظيفِ وغسلِ الأواني. وعندئذٍ يكونان متعَبين، وهما عادةً يذهبان إلى النوم مباشرةً.

«علينا أن ننتظرَ إلى أن ينام أبي وأمي»، قالَ. «ثمّ يستطيعُ

الذي سيتولّى المراقبةَ أن يتسلّلَ ويصعَدَ إلى المطعَمِ».

لم يكُنْ واثقاً من أنهم سينجَحونَ في خطّتهم. فبعدَ كلِّ شيءٍ، مَن يريدُ أن يجلسَ وحيداً في مطعمٍ مُظلِمٍ لساعاتٍ، وهو ينتظرُ لصّاً»؟

خمّن أن بيلي تفكّرُ في الشيءِ نفسِهِ. وكالعادةِ، لم يظهر على سيمونا أنها خائفةٌ من شَيء، مع ذلك فكّر علاءُ الدينِ بأنها قد تُغيرُ رأيَها عندما تجلسُ هناكَ في الظلامِ.

وعندَ ذلكَ خطرَتْ لهُ فِكرةٌ.

«يمكنُنا أن ننامَ هناكَ في الأعلى»، قال. «كلُّنا نحنُ الثلاثةُ. بعد أن ينامَ أبي وأمي، نأخذُ فراشنا إلى المطعمِ. وينام اثنان منّا بينما الثالثُ يُراقِبُ؛ ويعني هذا أن لا يبقى أيٌّ منّا وحيداً».

عبثَت سيمونا بالصفّارةِ التي جلبَتها معَها؛ وهيَ منَ النوعِ الذي يمكِنُ أن يُثبّتَ على سُترةِ النجاةِ؛ وصوتُها عالٍ بشكلٍ لا يُصدَّق.

«يَعني هذا أننا سنسمَعُ قَطعاً عندَما يُطلقُ أحدٌ الصفّارةَ»، قالت.

وهوَ شيءٌ جيِّد أيضاً. سيكون الأمرُ فظيعاً إذا كانَ أحدُهُم وحدَه في الأعلى ونفَخَ الصفّارة ولم يسارِع إليه أحَدٌ.

«علينا أن نتوخّى الحذرَ»، نبّهَ علاءُ الدين صَديقتيه. «يجبُ أن لا نُطلِقَ الصفّارة إلا عندما نتأكّد فعلاً من أنّ اللصّ هناك. إذا استيقظَ والدايَ واكتشفا أننا في المطعمِ، سيغضَبان».

«لكنّ علينا أن نوقظَهما بالتأكيدِ إذا ظهرَ اللصُّ»؟ قالت بيلي بقلقٍ.

«نعم، بالطبعِ»، أجاب علاءُ الدينِ. «ولكنْ آنذاك فقط».

«ماذا إذا لم يظهرِ اللصُّ»؟ سألتْ سيمونا.

«في هذهِ الحالةِ نحتاجُ فقط إلى إعادةِ الفُرش إلى هنا قبلَ أن يستيقظَ أبي وأمي»، قال علاءُ الدينِ، وهو يرجع إلى الوراء على الأريكةِ. إنّ لديهِم خطةً على الأقلّ.

«كنتُ أفكّرُ في الطّفلَين اللذين يعيشان ربما في قَبوِ ماتس»،

قالت سيمونا بعدَ حينٍ.

كانَ علاءُ الدين قد نسِيَ تماماً أمرَ الطّفلين. هناكَ الكثيرُ جداً منَ الأشياءِ الأخرى التي تشغَلُ ذهنَهُ.

«لماذا»؟ استفهمَت بيلي.

هزّتْ سيمونا رأسَها. «لا أدري حقاً. هناكَ شيءٌ ما في طريقةِ جلوسهِما على الأرضيةِ، وهناكَ وملابِسهما أيضاً. كنتُ أتساءلُ ما إذا...».

«ماذا»؟ قالَ علاءُ الدين.

«أوه، لا شيء. فكرتُ فقط في أنهُما يبدوان وحيدين. اِنسيا الأمرَ . علينا أن نركّز على ضبطِ مَن يسرقُ طعامَكم».

في ذلكَ المساءِ بالتحديدِ بقي المطعمُ مفتوحاً لوقتٍ أطولَ من المُعتادِ؛ ودقّتِ الساعةُ معلِنةً الحاديةَ عشرةَ قبلَ أن تنزلَ والدةُ علاءِ الدينِ لتتمنى لهُم ليلةً سعيدَةً.

«المكانُ جميلٌ ومريحٌ هنا»، قالت وهي تدخلُ غرفةَ علاءِ الدينِ. كانَ ثلاثتُهم يرتدون ملابسَ النّوم، ويجلسون في الأسرّةِ. تماماً

كما لو أنهم سينامون قريباً.

«مممم»، همهم علاءُ الدينِ.

قبّلت أمُّه جبينَه كما تفعلُ دائماً كآخرِ شيءٍ تقومُ بهِ في الليلِ.

«لا تُطيلوا السّهرَ كثيراً»، قالت.

وعندما غادرَتْ عائدةً إلى الطابقِ العُلويِّ، التزموا الهدوءَ فترةً من الوقتِ.

«آملُ أن لا يستغرقهُما غسلُ الأطباقِ مدّة طويلةً»، قالت سيمونا وهي تتثاءبُ. «أنا مُتعَبةٌ حقاً».

«لماذا لا تنامينَ قليلاً»؟ اقترحَ علاءُ الدينِ.

«نوقظُكِ أنا وبيلي عندما يحينُ الوقتُ، ويمكِنكِ أن تأخذي المناوبةَ الأولى».

هكذا رُتّبَت الأمورِ. كانَ الوقتُ قد اقتربَ من مُنتصَفِ الليلِ عندما تأكدوا أنَّ والدَيّ علاءِ الدين ذهبا إلى النومِ؛ وحتى يكونوا على الجانبِ الآمنِ، سارَ علاءُ الدينِ على أطرافِ أصابعهِ صاعداً إلى غرفةِ نومِهما واستمعَ من خارجِ البابِ.

«إنهما نائمانِ بالتأكيدِ»، قال لبيلي عندما عادَ.

أيقظا سيمونا، واتخذوا طريقَهُم صاعدِينَ إلى المطعمِ. كانَ المرورُ من فسحة الدّرج الضيقِة مع الفرشات والوسائدِ واللحُف صعباً. وللمرةِ المئةِ فكَّر علاءُ الدينِ بأنَّ المراقبةَ طوالَ الليلِ ليست فكرةً جيدةً ربما. ماذا لو وجدَهُم أبوه وأمهُ هُناك؟ أو ماذا إذا ظهرَ اللصُّ فِعلاً؟ جعلتهُ هذه الفكرةُ في حدّ ذاتِها يشعرُ بالاضطرابِ.

وصلوا في نهاية المطافِ. واضطرّوا إلى زحزحة بعض الطاولاتِ ليُفسحوا المجالَ لوضعِ الفُرش على الأرضيةِ؛ وبدا ذلكَ كلُّهُ في منتهى الغرابةِ؛ الاستلقاءُ على الأرضيةِ والأثاثُ يحيطُ بهم.

«طالما أن أبي لا يُقرِّرُ النهوضَ للتأكُّدِ من أنَّ كلَّ شيءٍ على ما يُرام في منتصفِ الليلِ»، همسَ علاءُ الدينِ.

«مستحيلٌ»، همسَت سيمونا. «ألمْ تسمعْهُ يَشخُرُ عندما مررْنا من أمامِ غرفةِ النومِ»؟

«أنتِ لن تنامي، أليسَ كذلِك»؟ قالَ لها علاءُ الدينِ. «إذا شعرتِ بالتعبِ، أيقظيني أنا أو بيلي».

«سأفعلُ»، وعَدَتْ سيمونا.

«مَن مِنّا ستوقِظينَ أولاً»؟ سألَت بيلي وهي تجلسُ في فراشِها.

«أنتِ. علاءُ الدين يمكنُ أن يأخُذَ المناوبةَ الأخيرةَ ويقرّرَ متى يكونُ الوقتُ قد حانَ لنعودَ إلى غرفتِه».

يَبدو هذا معقولاً. عليهم أن يكونوا خارجَ المطعمِ قبل أن يستيقظَ والدا علاءِ الدينِ.

«أنتِ لستِ خائفةً، أليسَ كذلك»؟ همسَتْ سيمونا لبيلي.

نظرَ علاءُ الدينِ إلى بيلي، فوجَدَها باهِتة اللون مثلَ غلالَةٍ بيضَاءَ.

«ربّما قليلاً»، همسَتْ وهي تستلقي في فِراشِها.

لم يرغبوا في إضاءةِ مصابيحِ الكهرباءِ الرئيسة، ولذلك أحضروا معَهم مصابيحَ يدويةً. وعندما أُطفِئت، غرقتِ الغرفةُ في الظلامِ. وكان هذا جيّداً؛ لن يراهم اللصُّ على الأرضيةِ وراء هذه الطاولات كلّها.

اِتفقوا على أن يجلسَ من سيتولّى المراقبةَ في الزاويةِ، قرب

البابِ مباشرةً. وبعدَ فترةٍ، اعتادت عيونُهُم على الظلامِ، وصار في وسعهم أن يميّزوا أشكالَ الطاولاتِ والكراسي على الأقل.

«أيمكِنُ أن أقرأ على ضَوءِ المصباحِ اليدويّ»؟ سألَتْ بيلي.

«لا»، اعترضَت سيمونا. «إذا فعلتِ، سيعرف اللصُّ أنَّ هناكَ أحداً في المطعمِ».

«بالطّبعِ».

أغمضَت بيلي عينَيها بقَدرِ ما تستطيعُ من الإحكامِ واستدارَتْ. وجلسَت سيمونا في الزاويةِ.

اِستلقى علاءُ الدينِ بدوره، وظلَّ مُستيقِظاً لوقتٍ طويلٍ، وهو يتلوّى ويتقلّبُ. لن يستطيعَ أن يغفوَ أبداً، فهذا الأمرُ يبدو مثيراً للغايةِ. ألقى نظرةً على بيلي؛ كانت قد غفَتْ بسرعةٍ، وأصبحَت أنفاسُها بطيئةً ومنتظمَةً. تنهّدَ علاءُ الدينِ. لم يسمَعْ أيَّ صوتٍ يأتي من جهةِ سيمونا، وأملَ أنها لم تنَمْ هيَ الأخرى.

قعدَ ونظرَ في اتجاهِها، لكنّهُ لم يستطِعْ أن يراها. فوقفَ ورآها. كانت تحدّقُ في البابِ والسلالِم، من غيرِ أن تتحرّكَ ولا قيدَ

أنملَةٍ. شعرَ بالاطمئنانِ، واستلقى مرةً أخرى. ربما يستريحُ هو أيضاً، وإلا لَن يفلح في تدبّر أمرِ مناوبتِهِ. وغفا والفكرةُ لم تكتمل بعدُ في ذهنهِ.

١٧

استغرَقَ علاءُ الدينِ في نومٍ عميقٍ كأنَّهُ كانَ مُستيقظاً لآلافِ الساعاتِ قبلَ ذلك.

هزّتهُ بيلي بقوةٍ. «إنه دورُك الآن»، همسَتْ لهُ.

كانتْ مُتعبةً جداً بحيث أنّ علاءَ الدين لم يكن قد تحرّك من مكانهِ بعدُ عندما استلقَت على فراشِها.

«أرأيتِ أيَّ شيءٍ»؟ سألَ.

«لا شيءَ. ولم ترَ سيمونا شيئاً أيضاً».

«ولكنْ، أبقيتِ مُستيقِظةً»؟

لاحَ الغضبُ على بيلي. «طبعاً فعلتُ»! ثمّ تردّدتْ. «لكنّهُ أمرٌ

رهيبٌ، الجلوسُ هناكَ وحيداً تماماً في الظلامِ. من الجيّدِ أننا قرّرْنا أن ننامَ هنا كلّنا، وإلا ما كنتُ لأبقى هنا وحدي مطلقاً»!

قالتْ ذلكَ واستدارت وغفَتْ في الحالِ. وذهبَ علاءُ الدينِ وجلسَ في الزاويةِ.

مِن موقعِ المطعمِ في أعلى البرجِ، يستطيعُ المرءُ أن يرى أوهوس كلّها. وليس هناك إلا بضعةُ مصابيحَ مُضاءةٍ؛ وبدا آنذاك كما لو أنّ القريةَ بأكملِها نائمةٌ، باستثناءِ علاءِ الدينِ. وكما قالتْ بيلي توّاً: يشعرالواحدُ أنهُ وحيدٌ، على الرغمِ من أنّ معَهُ رفقةً.

عجزَ علاءُ الدينِ عن منعَ نفسهِ من التفكيرِ في الصبيِّ صاحِبِ السروالِ القصيرِ. ما الذي يسعى إليه وهو يركُضُ في الأنحاءِ ويختبئُ في أقبيةِ الناسِ؟ لماذا؟ ماذا يريدُ؟ ألم يدرِكْ أنهُ ليسَ منَ الجيّدِ فعلُ مثلِ هذهِ الأشياءِ؟

عدّلَ وضعَهُ بحيثُ أصبحَ شِبْهَ مُستلقٍ ومتكئاً على الجدارِ. كان المكانُ هادئاً ومُسالماً. في الواقعِ لم يكُن هادئاً تماماً، فقد استمرَّ علاءُ الدينِ يسمع ضجيجاً مختلفَ الأنواعِ من ثلاجةِ التجميدِ في المطبخِ، ومن الريحِ التي تصفُرُ خارجَ النافذةِ. ضمَّ ركبتَيهِ ولفَّ

ذراعيهِ حولَهما. لم يعرفْ ما إذا أراد أنْ يظهرَ اللصُّ أم لا. كانَ يضعُ الصفارةَ حولَ عنقهِ؛ وإذا جاءَ أحدٌ، فسينفخُها بكلِّ قوتهِ.

حاولَ أن يُقاومَ، لكنّهُ شعرَ أنَّ النُّعاسَ يغالِبُه مع مرورِ كلِّ دقيقةٍ. والظلامُ، بطبيعة الحالِ، لم يساعده. لم يبقِه مستيقظاً سوى الخوفِ. وأدركَ عدّةَ مراتٍ وعلى حينِ غرّةٍ أنَّ عينيهِ مُغمضتان، لكن كلّما ظنَّ أنهُ سمِعَ صوتاً، صحا من جديدٍ.

«يجبُ أن أبقى مُستيقظاً»، همسَ لنفسهِ. «لا ينبغي أن أنامَ».

لكنّهُ خسِرَ المعركةَ في نهايةِ المطافِ. وعلى الرغمِ من أنهُ كانَ مشدوداً مثلَ وترِ الكمانِ، أسندَ علاءُ الدينِ رأسَهُ على الجدارِ، والصفارَةُ تحيطُ بعنُقهِ.

حلُمَ بأنهُ يسمَعُ صوتاً. كان الصوتُ خافتاً واستمرَّ لفترةٍ قصيرةٍ فقط. ثم سمعَهُ ثانيةً؛ وكان ما يزالُ خافتاً، إلا أنه بَدا كما لو أنّه ازدادَ اقتراباً. ظنَّ علاءُ الدينِ أنه يأتي من ناحيةِ الدّرجِ. نعم، من الدّرجِ بالتأكيدِ. إنّه وقعُ أقدامٍ بما لا يقبلُ الشكَّ. ومع أنّه كانَ نائماً، أخذَ يبحثُ عن الصفارةِ.

عليكَ أن تستيقظَ، فكّرَ، استيقِظْ يا علاءَ الدينِ!

كانَ وقعُ الخطواتِ خفيفاً جداً بحيثُ لا يمكنُ أن يكونَ صادِراً من قدمي ماتس. ولم يعرفْ علاءُ الدينِ أهوَ مستيقظٌ أم أنهُ يحلُم، لكنَّ الخوفَ بعثَ رعشةً في أوصالهِ.

ثمّةَ أحدٌ يقفُ هناكَ في المدخلِ، أليسَ كذلك؟

طرفَتْ عينا علاءُ الدينِ مرةً تلوَ المرةِ.

نعم، هناكَ بالتأكيدِ أحدٌ ما. إنَّهُ الصبيُّ ذو السروالِ القصيرِ. وقفَ هناكَ وقتاً طويلاً، مُحدِّقاً في علاءِ الدينِ.

كانَ يرتدي الملابسَ نفسها التي ارتدَاها في أولِ مناسبَتين رآهُ فيهما علاءُ الدين: سروالاً أخضرَ وكنزةً مخططةً، وجواربَ طويلةً وحذاءً طويلاً.

نظر الصبيُّ إلى الأرضِ، وقد ارتسمَ تعبيرٌ حزينٌ على وجهِهِ.

تقافَزَ قلبُ علاءِ الدينِ في صدرِهِ. ثمَّ تحدّثَ الصبيُّ للمرةِ الأولى. «يجبُ أن تساعدَني»، همسَ الصبيُّ. «عليكَ أن تعثرَ على الفضّة التي اختفَت من الورشةِ».

تدلّى فكُّ علاءِ الدينِ. وعجزَ عن الإتيانِ بأيِّ صوتٍ.

«عليكَ أن تجدَ الفضّة»، كرّرَ الصبيُّ. «تحدّثْ إلى إيلا. إنها تعرفُ».

قالَ ذلكَ ثمَّ اختفى بسرعةِ ظهورِه نفسِها. وبعدَ ثانيةٍ من ذلكَ، أيقظت علاءَ الدين رجفةٌ ما. كانت سيمونا تهزُّ ذراعَهُ.

«لا ريبَ في أنّكَ أسوَأُ جاسوسٍ في العالمِ»، قالَتْ بنبرةٍ متقطّعةٍ.

كانت بيلي تتحرّى المكانَ بسرعةٍ، محاولةً لملمةَ أغراضهم كلّها. «علينا أن نعودَ إلى الأسفلِ»، قالت. «بسُرعةٍ، قبلَ أن يستيقظَ والِداك».

بالكاد استطاعَ علاءُ الدينِ أن يتذكّرَ أينَ هو؛ ثمَّ عادَ إليه كلُّ شيءٍ وقفزَ واقِفاً. لقد حلُمَ بالصبيِّ.

وماذا قالَ؟ تحدَّثَ عن الفِضّةِ. وعن أحدٍ يُدعَى إيلا.

«الطعام»، تمتَمَ علاءُ الدينِ.

«تفقّدْناه فِعلاً»، قالتْ بيلي. «لم يُؤخَذْ منهُ شَيءٌ».

وقد أراحَهُ ذلكَ. كانَ علاءُ الدينِ خجلاً حقاً لأنه غَفا خلال نوبتِه. وبهدوء، حمل الأصدِقاءُ الفُرشَ والأغطيةَ إلى الطابقِ السفلي.

لم يستطِع علاءُ الدينِ أن يتوقّفَ عن التفكيرِ في حُلمِه. قالت أمُّهُ مرّةً أننا نحلُم دائماً بالأشياءِ التي فعلناها أو الأشياءِ التي تعتملُ في أذهانِنا، ولذلكَ لم يكُنْ من المفاجئِ كثيراً أن يحلُم علاءُ الدين بالفضّة والصبيِّ صاحبِ السروالِ القصير. ولكن، ماذا عن إيلا... لماذا حلُم بمَن تُدعى إيلا؟ ولماذا تراءى له أنهُ يميِّزُ الاسم؟

١٨

غادرَت بيلي وسيمونا إلى بيتيهِما بعدَ الإفطار.

«تَبدوان مُتعبتين»، قالت لهما والِدةُ علاءِ الدينِ وهما تقِفان في الرَّدهَةِ وترتديانِ معطفَيهِما. «ألم تناما جيداً»؟

تبادلَت البنتان النَّظرَ وضحكَتا. لا، لم تناما جيداً، وأغاظت بيلي وسيمُونا علاءَ الدينِ لأنَّهُ غفا.

«لا، لا أعتقدُ أنَّ أياً منّا قد نامَ»، قالَت سيمونا.

لم تكُنْ لدى علاءِ الدِّينِ أعذارٌ؛ هو بكلِّ بساطةٍ لم يقدر على البقاء مستيقظاً، وقرَّرَ أن لا يخبرهُما عن حلُمِهِ الذي تحدَّثَ فيهِ الصبيُّ صاحبُ السروالِ القصيرِ وطلبَ المساعدَةَ من علاءِ الدينِ.

هزّ رأسَهُ. إنّ الحلْمَ يظلُّ حلْماً، ولا شيءَ آخرَ، لكنّ ذِكْرَ الصبيِّ اسمَ إيلا علقَ في ذهنِهِ.

أقفلَ البابَ عندما غادرَت بيلي وسيمونا. لم يكونوا يهتمّونَ بإغلاقِ البابِ عادةً خلالَ النهارِ، لكنّ علاءَ الدينِ شعَر أنّه يكونُ أكثرَ أماناً والبابُ مُقفلٌ.

بدأ يرتقي الدّرجَ عائداً إلى غرفتِه، وفجأةً جاءتهُ الفكرةُ: إنّ إيلا هي السيدةُ العجوزُ التي ساعدتْهُ هو وبيلي في السّابقِ عندما كانا يحاولانِ الإمساكَ بالشّبحِ في منزلِ بيلي! وقد عاشَت إيلا في أوهوس مدةً طويلةً جدّاً. غمرَتْ علاءَ الدين موجةٌ من الارتياحِ. ليسَ مِنَ الغريبِ إذَن أن تظهرَ إيلا في حلْمِهِ بعدَ كلِّ شيءٍ! إنّهُ يتساءلُ عمّا إذا كانَ يُمكِنُ أن يكونَ الصبيُّ شبَحاً، خصوصاً أن إيلا كانَت ثرثارةً حقيقيةً تؤمنُ بالأشباحِ والأرواحِ التي لا تهدأُ.

جلسَ علاءُ الدينِ على الأريكةِ وأخذَ يعملُ على واحدةٍ من نماذجِ الطائراتِ الصغيرةِ التي يصنعُها. ولكنْ، سُرعانَ ما قاطعَتْهُ أمُّهُ.

«خمِّنْ ما حصَلَ؟ لم يُسرَقْ شيءٌ مِنّا في الليلةِ الماضيةِ»، قالتْ.

«هذا جيّدٌ».

«مَن يدري؟ ربما يكونُ الذي يأخُذُ الطعامَ قد شبعَ الآن»! قالت أمُّهُ وهي تغمزُ بعينِها.

«ربّما».

دأبَ اللصُّ على القدومِ كلَّ ليلةٍ تقريباً طوالَ الأسبوعِ الماضي. فلماذا لم يأتِ في الليلةِ الماضيَةِ، عندما كانَ علاءُ الدينِ وصديقتاهُ يراقبون المطعمَ؟

أم تراه جاءَ ولم يلاحِظوه؟ لعلّه كانَ هناك بينما استولى النومُ على علاءِ الدين، وولّى الفرار عندما أدركَ أنّهُ ليسَ وحدَهُ؟ أم أنّهُ كانَ الصبيّ صاحبَ السروالِ القصيرِ؟ أيحتملُ أن علاءَ الدين لم يكُن يحلُمُ بعدَ كلِّ شيء؟

جاء والدُه إلى الغرفةِ. «ربّما بدأتِ الأمورُ تتحسّنُ»، قالَ.

حدّق علاءُ الدينِ في والدَيهِ. بديا متعَبين. هل بذلا جهداً إضافياً خلالَ الأسبوعِ الماضي؟ أم أنّ ذلكَ بسببِ مخاوفِهما الماليةِ؟ شعرَ فجأةً أنهُ وحيدٌ جداً. لماذا لا يُخبرانهُ عمّا يَجري؟ إنّ محاولةَ

التخمينِ هي أسوأ من أيِّ شيءٍ آخَر.

«أعتقدُ أننا يمكنُ أنْ نحظى بشيءٍ من المرحِ اليوم»، قالت أمُّه. «كلُّنا، ما رأيُك؟ ماذا تحبُّ أن نفعَلَ»؟

كانَ علاءُ الدينِ في منتهى الإعياء إلى درجة أنه لم يستطِع إبقاءَ عينيهِ مفتوحتَين إلا بصعوبةٍ، لكنَّهُ بذلَ جهداً ليبدوَ مسروراً. ولم ينفعْ ذلكَ حقاً.

«أتُعاني من شيءٍ يا علاءَ الدينِ»، سألهُ والدُه بقلقٍ، وهو يضَعُ يدَهُ على جبهتِهِ.

أدارَ علاءُ الدينِ رأسَهُ جانبًا. «أنا بخيرٍ»، قالَ. «ماذا سنفعلُ اليومَ»؟

«يمكنُ أن نذهبَ بالسيارةِ إلى كيفِك»، اقترحتْ والدتُهُ. «هناك تلةُ تزلّجٍ رائعةٌ».

«فكرةٌ جيِّدةٌ»، قالَ والدُهُ. «يمكنُ أن نتناولَ الغداءَ هناكَ أيضاً».

كانَ التزلُّجُ آخرَ شيءٍ يريدُ علاءُ الدينِ أن يفعلَهُ اليومَ، ومن

ناحيةٍ أخرى رغبَ فعلاً في أن يبتعدَ عن البُرجِ والمطعَمِ مدّةً من الزّمنِ. ولا بدّ من أنّ الشعورَ نفسه كان يعتملُ في والديهِ، لأنهما تجهّزا للخروج خلالَ وقتٍ قصيرٍ. وبعدَ بضعِ دقائقَ كانوا في السيارةِ. فتحَ والدُهُ المذياعَ بينما تُخرِجُ والدتُه السيارةَ من المرآبِ. كانَ المذياعُ يبثُّ نشرةَ الأخبارِ المحليةِ، والمذيعُ يتحدّث عن مركبِ اللاجئينَ في الميناءِ.

«لا أريدُ حقاً أن أسمعَ هذا الآنَ»، قالَ والدُهُ، وأغلَقَ المذياعَ.

استرخى علاءُ الدينِ في المقعدِ وأراحَ رأسَهُ على مِسندِ الرأسِ. يُمكنُهُ أن يأخذَ إغفاءةً صغيرةً في السيارةِ، ثم سيشعُرُ بأنهُ أكثرُ إشراقاً عندما يصلون. وبينما هم ينعطِفون نحو الطريقِ الرئيسيِّ، نظرَ تلقائياً إلى الوراء نحوَ البرجِ، وانقلبتْ معدتُهُ. كانَ هناك صبيٌّ يرتدي سترةً وسروالاً قصيراً يجلسُ على العتبةِ ويُحدّقُ في سيارتِهِم.

همّ علاءُ الدينِ بإخبار والدَيهِ لولا أنّه لاحظَ شيئاً جعلَه يغيِّرُ رأيَهُ. كانَ الصبيُّ على العتبةِ يبكي.

كانَ الظلامُ قد حلَّ عندما عادوا من كيفِك. وبدا والداهُ

سعيدَينِ حقاً وهما يُثرثرانِ ويضحَكان. وشعر علاءُ الدينِ بأنّهُ أفضلُ حالاً أيضاً؛ لقَد قضوا يوماً لطيفاً.

بطبيعةِ الحالِ، لَم يرَ أحداً يجلِسُ على العتبةِ عندما ترجّلوا منَ السيارةِ. فالصبي ما كانَ ليبقى هناكَ فترةً أطولَ من اللازمِ. ومن الجيِّدِ أنَّ علاءَ الدينِ لم يقلْ شيئاً لوالدَيهِ.

«أنا جائعةٌ»! هتفَت والدتُهُ وهي تهرع صاعدة السلالِم إلى المطبخِ. «سأحضّر عشاءً لذيذاً»!

نزلَ والدُهُ إلى القَبوِ، ثم عادَ بعدَ أقلِ من دقيقةٍ. ولم يتح لعلاء الدين الوقت لأن يفعلَ شيئاً سوى خلعِ حذائهِ فقط.

«ها»، قالَ أبوه. «تعالَ معي! هناكَ شيءٌ أريدكَ أن تراه».

ثمُ جرَّ علاءَ الدينِ عملياً على درجِ القبوِ.

«لا أعرفُ لماذا لم أفكِّرْ في هذا مِن قبل»، قالَ الأبُ، وقطع القبوِ إلى الجدارِ الخارجيِّ. وهناكَ، كانَ يوجدُ بابٌ شِبه مختفٍ وراءَ خِزانةِ كُتُبٍ قديمَةٍ. ولم يتذكّر علاءُ الدينِ أنّه قد رآه من قبلُ قط.

«إنه بابُ الحرائقِ»، شرحَ والدُه. «ظننتُ دائماً أنَّهُ مُغلقٌ وقفلُهُ مُعطّلٌ، لأنهُ مُغرق في القِدمِ وصدِئ. لكنْ أُنظرْ ما يحدُثُ عندما أُحرّكُ المِقبَضَ».

دفعَ المقبضَ إلى أسفلَ، وانفتحَ البابُ بسهولَةٍ.

«أتظنُّ أنَّ اللصَّ يدخلُ من هنا»؟ قالَ علاءُ الدينِ.

«بالتأكيدِ».

«لكنَّ البابَ لا ينفتحُ على وسعِهِ لأنَّ خِزانةَ الكتُبِ تعترضُ الطريقَ. لا بدَّ من أنهُ لصٌّ صغيرٌ في هذهِ الحالةِ»!

«هذا صحيحٌ»، قالَ والدُهُ. «ماذا تظُنُّ؟ هل يستطيعُ الصبيُّ الذي رأيتَهُ أن يعبُرَ من هنا»؟

نظرَ علاءُ الدينِ إلى الفجوةِ. وتدفَّقَ الهواءُ الباردُ إلى الداخلِ وجعلَهُ يرتعشُ. أطرقَ رأسَهُ ببطءٍ. «أعتقدُ أنَّهُ يستطيعُ»، قالَ بتأنٍ.

لماذا شعرَ كأنَّهُ يخونُ الصبيَّ؟ ربَّما كانَ جائعاً...

«جيّد»، قالَ والدُهُ. «في هذهِ الحالةِ، سأتأكّدُ من أنْ يبقى هذا البابُ مغلقاً في المستقبلِ».

ونظرَ إلى علاءِ الدينِ. «لا تقلَقْ بشأنِ الصبيِّ»، قالَ. «سنتركُ له الليلةَ كيساً من الطعامِ في الخارجِ، ثم سنرى إذا كانَ سيأخذُهُ، أو أنَّ هذهِ هي نهايةُ الزياراتِ الليليةِ كلِّها».

هذا جعل شعور علاء الدين يتحسّن. بدتْ فكرةُ كيسِ الطعامِ جيدَةً. والآن انتهى الأمر إلى مجرّد انتظارٍ فقط، لاكتشاف ما إذا كانَ سيأتي أحَدٌ ليأخذَ الكيسَ.

١٩

وقد حدَثَ. اختفى كيسُ الطعامِ الذي تركهُ أبوه على الدّرجِ. واستقرّ رأيُ أمّهِ على أنّ صبيَّ السروالِ القصيرِ هو من أخذَهُ. واتفقوا على أن يثابروا على تركِ الطعامِ في الخارجِ من أجلِهِ، على الأقلِّ، طالما بقي اللاجئونَ يعيشونَ في المركبِ عند الميناءِ.

كانتْ الصحفُ تنشرُ المزيدَ والمزيدَ من المقالاتِ عن مركبِ اللاجئين. وبدأ الناس يعربون عن غضبِهم من بقائهِ هناك كلَّ هذا الوقتِ الطويلِ. ولم يستطعْ علاءُ الدينِ أن يستوعبَ الأمرَ؛ فبعدَ كلِّ شيءٍ، لم يكنْ اللاجئون يتسببون بأيِّ أذىً. كانوا يجلسونَ هناكَ

فقط على سطحِ المركبِ، وينتظرون. ينتظرونَ أن يُمنحَ لهم الإذنُ بالبقاءِ في السويدِ. وعلِمَ في المدرسةِ أن اللاجئين أتَوا من الشّرقِ. وشرحتْ معلمتُه، أوسا، كيفَ سافروا عابرينَ أوروبا كلّها بالشّاحناتِ، ثم بالمركبِ عبر بحرِ البلطيقِ إلى أوهوس.

هل قطعوا كلَّ هذهِ المسافةِ فقط ليُعادوا ثانيةً إلى وطنهم؟ تساءلَ علاءُ الدينِ.

«لقد حلّ هذا على الأقلّ إحدى مشاكِلنا»، قال أبوهُ في المساءِ الثالثِ، بعد أن وضعَ كيسَ الطعامِ في الخارجِ. ونظرَ إلى والدةِ علاءِ الدينِ وعلى وجههِ تعبيرٌ حزينٌ.

غلبَ على علاءِ الدين الشعورُ نفسُه. من الجيدِ أن اللصَّ لم يعُدْ يدخلُ البُرجَ، بطبيعةِ الحالِ، لكنّ ذلك لا يكفي لإنقاذِ المطعمِ. أدركَ علاءُ الدينِ ذلكَ.

اتصلَ بهِ الكاهنُ مساءَ الاثنينِ. أصبحَت حالُ السيدةِ التي سيجتمع بها هو وبيلي أفضلَ. وشعرَ علاءُ الدينِ بالارتياحِ؛ إنّهُ يريدُ

أن يعثرَ على الفضّة، وربّما تعرفُ السيدةُ العجوزُ أينَ هي. واقترحَ الكاهنُ أنْ يلتقوا في مقهَى كرينغلان في اليومِ التالي مباشرةً. وستُحضِرُ السيدَةُ معها بعضَ الصُّوَرِ، كما اقترحَ الكاهنُ سابقاً. وفكَّرَ علاءُ الدينِ بأنَّ هذا سيكونُ شيئاً حسناً؛ وستتمكّنُ بيلي من القُدومِ أيضاً. وكانَ على وشكِ أن يُغلقَ الخطَّ عندما خطرَتْ له فكرةٌ.

«عفواً»، قالَ. «ما اسمُ السيدَةِ مرةً أخرى؟ هل هوَ إيلسا»؟

«لا، إنه ليسَ إيلسا. لعلي أخطأتُ بالاسم الذي ذكرتُه لكَ، لأنَّ اسمَ قائدةِ جوقةِ الترتيلِ لدينا هو إيلسا. السيدةُ التي ستقابِلُها اسمها إيلا».

كادَ علاءُ الدينِ يُسقِطُ الهاتفَ مِن يدِهِ. «إيلا»؟ همَس.

«هذا هو اسمُها. بالمناسبةِ، إنها متأكّدةٌ من أنها قابلتْكَ أنت وبيلي مِن قبل! أيعقلُ أن يكون هذا صحيحاً»؟

ابتلعَ علاءُ الدينِ ريقَه. «أعتقد أنّه صحيحٌ»، أجاب بهدوءٍ.

بَدت الحالُ تماماً كما قالَ الصبيُّ في الحلُمِ. تحدَّثْ إلى إيلا، إنّها تعرفُ.

وتماماً عندما ظنَّ علاءُ الدينِ أنَّ الوضعَ يتحسَّنُ قليلاً، أصبحَ أسوأ. أسوأ بكثيرٍ.

نظَّفَ أسنانَهُ بالفرشاةِ ويمّمَ السريرَ. في كثيرٍ من الأحيانِ، كانَ يسمعُ أصواتاً غريبةً تأتي من المطعمِ في الليلِ، لكنَّ الهدوءَ حلَّ بطريقةٍ غيرِ مُعتادةٍ في البُرجِ هذا المَساء. ووجَدَ أباهُ جالِساً على سريرِهِ ينتظِرُهُ عندما عادَ من الحمامِ.

«ما الحكايةُ»؟ قالَ علاءُ الدينِ مُندهشاً. «أحدَثَ شيءٌ»؟

ابتسمَ الأبُ، بيدَ أن علاءَ الدينِ استشفَّ قلقه. لم يُجِبْ عَن سؤالِه؛ وقالَ بدلاً من ذلكَ: «هل أمضيتَ يوماً جيداً في المدرسةِ؟ لم أرَكَ منذُ عدتَ إلى المنزلِ». قالَ ذلكَ كما لو أنَّ علاءَ الدينِ وليسَ هو الذي ظلَّ مشغولاً طوالَ فترتي العصرِ والمساءِ.

«كنّا نعملُ على مشروعِنا. كتبتُ عنِ الفضّةِ المفقودةِ»، قالَ.

أطرقَ والدهُ برأسِهِ كما لو أنَّهُ يُفكِّرُ بما أخبرَهُ بهِ علاءُ الدينِ للتوّ. «يبدو هذا لطيفاً»، قالَ في نهايةِ المطافِ. وبدا صوتُهُ غريباً حقاً.

«هل حدَثَ شيءٌ»؟ سألَه علاءُ الدينِ مرةً أخرى، وهو يجلِسُ على السريرِ.

حكَّ والدُهُ ذقنَهُ، ولم تكُنْ هذِه علامةً جيِّدةً. فهوَ يفعلُ ذلكَ عادةً عندما يقلقهُ شيءٌ.

«نعم»، قالَ وهو يتنهَّدُ بعمقٍ. «أخشى ذلكَ. جدُّكَ مريضٌ، وعليَّ أن أذهبَ إلى تركيا، الليلةَ. سأطيرُ من كوبنهاغِن عندَ مُنتصَفِ الليل».

أحسَّ علاءُ الدينِ بالبردِ يكتنفُه. إنَّهُ يُحبُّ جدَّهُ.

«ما مدى سوءِ الوضعِ»؟

ظهرَ الانزعاجُ على والدِه. «أخشى أنَّ الوضعَ خطيرٌ».

«لكنَّهُ ليسَ كبيراً كثيراً في العُمرِ»!

اضطُرَّ والدُه إلى الابتسامِ. «سيبلُغ جدُّكَ الحاديةَ والثمانين خلالَ بضعةِ أسابيعَ. وهذه سنٌّ كبيرة فعلاً، خصوصاً إذا عاشَ المرءُ مثل تلكَ الحياةِ الصَّعبةِ».

كانَ علاءُ الدينِ يعرِفُ ذلكَ بطبيعةِ الحالِ، إلا أنَّ الشعورَ بالحزنِ والاستياءِ لم يفارِقه، وإن لم يخمّن ما الشيء الذي يُغضِبُهُ.

«ومتى تعودُ»؟ سألَ.

«في الأسبوعِ القادمِ. وجدتُ شخصاً ليساعدَ أمَّكَ في المطعمِ خلالِ فترةِ غيابي».

«أريدُ أن أرافقكَ»، قالَ علاءُ الدينِ.

«مستحيلٌ»، قالَ أبوهُ. «عليكَ أن تذهبَ إلى المدرسَةِ».

«ولكن، إذا ماتَ الجَدُّ...» ولم يستطِعْ علاءُ الدينِ أن يُكمِلَ؛ شعَر بغصّةٍ كبيرةٍ تستقرُّ في حلقِهِ.

«إذا ساءَ وضعُ جدِّكَ ورأيتُ أنّهُ سيموتُ، أعِدُكَ عندئذٍ بأنْ أُرسلَ في طلبِكَ»، قالَ أبوهُ وهو يُربِّتُ ظهرَه.

«إذا بقيت جدّتي وحدها ينبغي أن تأتيَ إلى هنا لتعيشَ معَنا»، قالَ علاءُ الدينِ.

شعر بأنَّ والدَهُ توتَّرَ.

«جدتُكَ تحبُّ تركيا كثيراً بحيثُ يستحيلُ أن تُفكِّرَ في الانتقالِ

إلى هنا»، قال. «وإلى جانبِ ذلكَ، بقيّةُ أفرادِ عائلتِنا يعيشون هناكَ، وليسَ هنا. لكنّها فكرةٌ لطيفةٌ منكَ».

هناكَ، ليسَ هنا. يا لَهُ من اختلاف كبيرٍ.

تنحنحَ والدُه. هناكَ شيءٌ آخرُ أردتُ أن أكلّمك عنه».

شعر علاءُ الدينِ بانقِباضٍ في نفسِهِ؛ وعرفَ ما سيأتي.

«إنه شيءٌ كنتُ أنا وأمُك نناقشُه منذُ فترةٍ»، قالَ أبوهُ. «إذا أردتَ الحقيقةَ، أمورُنا لا تسيرُ على ما يرامُ هذهِ الأيام».

بدا كما لو أنَّ أذنيّ علاءِ الدينِ لم تعودا تعملان. لَم يسمع كلمةً واحدةً مما يقولُه أبوهُ. كانَ هناك كتابٌ ملقىً على الأرضِ، وعجزَ علاءُ الدين عن رفعَ نظرهِ عنهُ. تابعَ الوالدُ حديثَه، لكنَّ علاءَ الدينِ واصلَ التحديقَ في الكتابِ. لم يسمعْ ما يقولُهُ أبوه، ولم يرِدْ كشفَ حقيقةِ أنّه كان يتنصّتُ على والديهِ.

وفي النهايةِ لم يعُدْ قادراً على التحمّلِ، بينما راح أبوه يتكلّم ويتكلّم.

«وهكذا، الأمرُ هوَ أننا نتساءلُ أنا وأمُّك ما إذا كانَ من الأفضلِ أن نعودَ إلى تركيا»، قالَ أبوهُ. «يمكننا أن نحاولَ هناكَ، ونرى كيفَ نُبلي. أعني أنَّ السُّويدَ ستظلُّ هنا في حالِ غيّرنا رأيَنا».

وعندما لم يقُلْ علاءُ الدينِ أيَّ شيءٍ، تابع والدُه الكلامَ: «لن نعودَ إلى أنقرة؛ سنحاولُ في أحد مُنتجعاتِ الإجازات على شاطئِ البحرِ. أنتَ تعرفُ كم يُحبُّ السُّويديون قضاءَ عُطلاتهِم في تركيا. لدينا فُرصٌ وافرةٌ لنفتحَ مطعماً وفندُقاً هناكَ. ذلك سيكونُ... مغامرةً. للعائلةِ كلِّها».

أخيراً، تجرّأ علاءُ الدينِ على رفعِ عينيه عن الكتابِ المُلقى على الأرضِ.

«أنا لا أريدُ مغامرةً»، قالَ. «أريدُ أنْ أبقى هنا».

والآن جاءَ دورُ والدِه ليشيحَ بوجهِهِ بعيداً.

«في وسعي أن أفهمَ هذا»، قالَ الوالِدُ بهدوءٍ. «لكن لا بدّ من أن نكونَ قادرينَ على أن نعيشَ حياةً كريمةً يا علاءَ الدينِ، ثلاثتنا. وهنا في السُّويد...»، وأشارَ بيدِه بطريقةٍ غريبةٍ. «الأوضاعُ تتغيرُ.

أوهوس والناسُ الذين يعيشون فيها يتغيَّرون. أنظر إلى كلِّ هذه الضّجةِ حولَ مركبِ اللاجئين، على سبيلِ المثالِ».

اتسعَت عينا علاءِ الدينِ. «لكنَّ مركبَ اللاجئينَ لا علاقةَ لهُ بنا».

«هذا صحيحٌ بطريقةٍ ما»، قال والدُه. «إلا أنَّ الكثيرَ من الأشخاص الذين يعيشونَ هنا غاضبونَ جداً، ويعتقدون أنَّ الناسَ في المركبِ يجبُ أن يعودوا من حيثُ أتَوا، بينما هناكَ آخرونَ، مثلنا، ممن يقدّمونَ لهُم الطعامَ».

اعتدَلَ علاءُ الدينِ في جلستهِ. «في هذهِ الحالةِ علينا بالتأكيدِ أن نبقى هنا»، قالَ بنبرة غاضبة. «ماذا لو أنَّ كلَّ شخصٍ مُستعدٌّ للمساعدَةِ حزمَ أمتعتَهُ وغادرَ فقط»؟

ضحِكَ والدُه. «نتحدَّثُ عن هذا عندما أعودُ. يجبُ أن أذهبَ وأحزمَ أغراضي».

نهضَ وتركَ علاءَ الدينِ وحدَهُ في الغرفةِ.

لن أغادرَ هذا المكانَ أبداً، فكَّرَ علاءُ الدينِ. أبداً!

ثم عاهدَ نفسَه. سيناضلُ بكلِّ ذرّةٍ من قوّتِهِ ليبقى في أوهوس.

٢٠

بدا برجُ الماءِ مُقفِراً بدونِ الأبِ. تولّت والدةُ علاءِ الدينِ وصديقٌ للعائلة إدارةَ المطعمِ، وذهبَ علاءُ الدين إلى المدرسةِ كالمعتادِ. أعياهُ الانتظارُ وهو يترقّب مجيء فترةِ العصرِ ليقابلَ إيلا. إنَّ الوقتَ ينفَدُ. ويجبُ أن يعثروا على الفضّةَ، مهما كلّفَ الأمرُ. وإذا لَم يُسمحْ لهُم أن يحتفظوا بها، ربّما تكونُ هناكَ مكافأةٌ. ولا بدَّ من أنَّ الصحفَ ستكتُبُ عن الأمرِ أيضاً، ما يعني أن المزيدَ من الناسِ سيرغبون في أن يرتادوا مطعمَ التركيِّ في البرجِ. والمزيدُ من الزبائنِ، يعني المزيدَ من النقودِ.

كانَ المطبخُ يفوح برائحةِ القِرفَةِ عندما عادَ علاءُ الدينِ إلى البيتِ من المدرسةِ. وكانتْ والدتُه تُحرِّك وعاءً كبيراً من اللّحمِ المفرومِ، وتبدو

متوترةً قليلاً. وكان ماتس يغسلُ الأواني.

«هل اتصلَ بابا»؟ سألَ علاءُ الدينِ.

«نعَم، سارت الرحلةُ على ما يرام. وهو يبلّغكَ حُبّهُ».

«ما حالُ جَدّي»؟

«ليسَ على ما يرامُ، ولكن ليسَ بالسّوءِ الذي وصفتْهُ جدّتُكَ».

لم يعرِفْ علاءُ الدينِ ما تعنيهِ بالضّبطِ. إذن، الجدُّ مريضٌ، وإنما ليسَ مريضاً جداً»؟

ذهبَ ووقفَ بجوارِ أمِّهِ. «هل قالَ بابا شيئاً آخرَ عن الانتقالِ إلى تركيا»؟

أشاحَت أمُّه بنظرها بعيداً. «لا، إسمَع يا حبيبي. لا وقتَ لديَّ حقاً للتحدّث عن هذا الأمرِ الآن».

وحملَت وعاءَ اللحمِ المفرومِ وذهبَت إلى فُرنِ الطبخِ.

لم يقُلْ علاءُ الدينِ أيَّ شيء. إذا انتقلوا إلى تركيا، ربما يعمل والديه وقتاً أقلّ. في أيامٍ كهذهِ، تمنّى علاءُ الدين لو أنّ والديهِ يزاوِلان أعمالاً عاديّةً.

«أنا وبيلي سنقابِلُ سيدةً ربّما تعرفُ شيئاً عن الفضّةِ المفقودة»،

قال. «أعودُ وقتَ العشاءِ».

«هذا لطيفٌ»، أجابت أمُّهُ.

«مممم. إذا وجدنا الفضَّةَ، قد نحصلُ على مكافأةٍ».

«جميلٌ».

نظرَ إلى والدتهِ التي تقفُ وقد أولتْهُ ظَهرَها. جميل؟ هل تُنصِتُ حقاً لما يقولُ؟

«لقد اشتريتُ كلباً صغيراً»، قالَ علاءُ الدينِ.

لم تتفاعلْ والدتُه. «يبدو هذا عظيماً». قالتْ. «أيمكنُ أن نتحدَّثَ عن هذا غداً»؟

لم يجبْ علاءُ الدينِ؛ غادرَ المطبخَ ونزلَ إلى غرفتهِ. لم يرغب حقاً في كلبٍ صغيرٍ، أرادَ فقط أنْ يعودَ كلُّ شيءٍ إلى طبيعتهِ.

كانَ شارعُ كويمانغاتن خالياً مِن المارَّةِ تقريباً عندما سلكَ علاءُ الدينِ وبيلي الطريقَ إلى المقهى. في بعضِ الأحيانِ فكَّرَ علاءُ الدينِ بأنه من الجميل لو أنَّ أوهوس كانت أكبَر، بحيثُ لا تتمركزُ المحلاتُ كلُّها في شارعٍ واحدٍ فقط.

خاضَ علاءُ الدينِ وبيلي طريقهما على الثلج بحذَرٍ. لقد مرَّ زمنٌ

طويلٌ منذ رأيا إيلا. وتذكّر علاءُ الدينِ جيداً كيفَ شعَرا عندما ذهبا إلى بيتِها تحتَ المطرِ المنهمِر أيامَ قصةِ الأشباحِ، وكيفَ كانَت قططُها خائفةً من العاصفةِ الرعديةِ، واختبأتْ تحتَ الطاولةِ. كانَ الأمرُ كلُّه مثيراً للتوترِ.

عندما وصلا شارعَ كوبمانغاتن، سمعا فجأةً صوتَ صفارات الإنذار، ومرّتْ بهما سيارتا شرطةٍ منطلقتانِ بأقصى سرعَةٍ.

«أتساءلُ إلى أين يذهبون»، قالَت بيلي وهي تُلاحِق السيارتَين بعينيها.

سمعَها رجلٌ واقفٌ على مقربةٍ. «أعتقدُ أنّ هناكَ حريقاً في مركبِ اللاجئين»، قالَ.

وقفَ علاءُ الدين وبيلي متجمّدَينِ كالأمواتِ.

«أينَ هي سياراتُ الإطفاءِ»، تساءلَ علاءُ الدينِ.

وبعدَ لحظةٍ سمعا ورأيا المركباتِ الكبيرةَ الحمراءَ وهيَ تقترِبُ. وسدّ علاءُ الدين أذُنَيهِ.

«هذا فظيعٌ»، قالت بيلي بينما كانت عرباتُ الإطفاءِ تختفي صوب الميناءِ.

بدا علاءُ الدين أكثرَ فضولاً وقلَقاً. «تعالي نذهبُ إلى هناكَ»!

هتَفَ وهو يشرُعُ في الركضِ.

«لا وقتَ لدينا»! هتفَت بيلي وراءَهُ.

«نعَم لدينا وقتٌ، إذا أسرَعنا».

لم يستغرقا وقتاً طويلاً وهما يجريان ليصلا إلى الميناءِ ومركبِ اللاجئين.

كان الرجلُ على الرصيفِ مُحِقاً. شاهدا دخاناً يتصاعدُ من المركبِ، لكنّهما لم يريا أيّ نيرانٍ. وكانَ هناك عددٌ قليلٌ من الناسِ يتجمّعون عند رصيفِ الميناءِ ليستطلعوا ما يجري.

«ماذا حدَثَ»، سألَ علاءُ الدينِ فتاةً هناكَ.

«يبدو أن سخّاناً ما لم يعملْ كما يجبُ واشتعلَ. لا أعتقدُ أنَّ الأمرَ خطيرٌ؛ لم يُصَبْ أحدٌ في المركبِ».

وقَفَ حشدٌ صغيرٌ من الناسِ أبعدَ قليلاً عند رصيفِ الميناءِ؛ وافترَضَ علاءُ الدين أنهم اللاجئون. وبدوا كلُّهم منزعجين وهم يقفونَ هناكَ ويُحدّقون في الدخانِ. أين يذهبون إذا لم يعُد في وسعِهم البقاءُ في المركبِ؟

لاحظَ علاءُ الدينِ أنَّ بينهم مجموعةً من الأطفالِ، فتفحصَّهم بسرعةٍ ليرى ما إذا كان أحدهم يرتدي سروالاً قصيراً، لكنَّه لم يجدْ أحداً بتلكَ المواصفاتِ.

«هيّا نذهب»، قالت بيلي وهي تشدُّ ذراعَهُ.

اتجها عائدَين إلى كوبمانغاتِن، وقد جعلَ الثلجُ البيوتَ والمباني كلّها تبدو متشابهةً. وتساءلَ علاءُ الدينِ كيفَ ستكونُ الحالُ لو أنَّ المرءَ لا يشاهدُ الثلجَ أبداً.

كان مقهى كرينغلان مكتظاً بالرواد. ووصلَ الصديقان متأخرَين خمسَ عشرةَ دقيقةً.

«عساها ما زالت هنا»، قالَ علاءُ الدينِ.

لا شكَّ في أنَّ إيلا مُهِمّةٌ. وبدونِها لن ينجحا في العثورِ على الفضّة. كان علاءُ الدين متأكّداً من ذلكَ.

٢١

اِكتشفا أنّ إيلا ما زالت هناكَ، تنتظرُ بصبرٍ وهيَ تجلسُ إلى طاولةٍ في الزاويةِ. وعندما لمحتهُما، ابتسمَت.

«كمْ هو جميلٌ أن أراكُما ثانيةً»، قالتْ.

حيّاها علاءُ الدينِ وبيلي بأدبٍ وسحبَ كلُّ منهما كرسياً وهمّا بالجلوس.

«عساكَ انتبهتَ إلى إيرلاند يا عزيزي»، قالت إيلا لعلاءِ الدين.

أطرق يرنو إلى المقعد وأدركَ أنَّ هناكَ حاملَ قططٍ عليهِ. لا بدَّ من أنَّ إيرلاند قطٌّ.

«معذرةً»، قال. «لم أرهُ».

«إنه أحدَثُ قِطٍّ لديّ»، أوضحت إيلا. «في وسعكَ أن تقولَ أنه قِطٌّ صغيرٌ. ولهذا جلبتُه معي؛ هو لا يُحِبُّ أن يبقى وحيداً».

«إنهُ رائعٌ»، قالتْ بيلي وهي تُطلُّ على حاملِ القططِ.

«الثلجُ يغطيكما»، قالَت إيلا، وهي تشيرُ إلى سترتَيهما. «ما رأيكُما بكوبينِ من شرابِ الشوكولاتةِ الساخنةِ»؟

ذهبَت إيلا إلى منضدةِ الخدمةِ، وانحنَت بيلي في اتجاهِ علاءِ الدينِ.

«يجبُ أن نسألَها عن صبيِّ الفضّة»، قالت بيلي. «حتى ولو أنَّ الكاهنَ نصحنا أن لا نأخذ ما تقولُه على محمَلِ الجِد».

«بالطبعِ»، وافقها علاءُ الدينِ. «آملُ أن تكونَ قد جلبَتْ معها الكثيرَ من الصورِ لنراها».

مفعماً بالترقُّبِ، نظرَ إلى حقيبةِ اليد الكبيرةِ التي تركتْها إيلا على مقعدِها. وفي الحقيقةِ، لم تكُن لديهِ أيُّ فكرةٍ عما يأملُ بأن يعرفَه من إيلا. لو أنّها تستطيعُ فقط أن تلمّح لهم بشيء يخصّ الفضّة المسروقةَ ومن استولَى عليها!

عادَت إيلا بكوبَين من الشوكولاتةِ الساخنَةِ يتصاعدُ منهما البخارُ. «أنتم تعرفون حقاً كيفَ تختارون منازِلكُم»، قالتْ ضاحكةً. «أولاً انتقلَتْ بيلي إلى منزلٍ مسكونٍ في سباريسفاغِن، والآن ينتقلُ علاءُ الدين إلى منزلِ صائغِ الفِضّةِ. رائعٌ»!

«أنا لا أقيمُ في منزلٍ مَسكونٍ»، قالتْ بيلي.

«لا؟ هل توقّفَ ضوءُ السقفِ في غرفةِ المعيشةِ عن التأرجُحِ جيئةً وذهاباً»؟

لم تُجِبْ بيلي؛ واكتفَت بأخذِ رشفةٍ من كوبِها.

«ماذا تعنينَ بقولك أنني انتقلتُ إلى بيتِ صائغِ الفضّة»؟ سألَ علاءُ الدينِ. «لقد بُني برجُ المياهِ بعدَ أنْ تدمّرتْ الورشةُ».

حرّكَتْ إيلا قهوتَها. «لا أعتقدُ أن ذلكَ يهُم بالنسبةِ إلى صبيِّ الفضّةِ»، قالتْ. «برجُ المياهِ يقَعُ بالضَّبطِ في مكانِ الورشةِ السابقِ، ولذلكَ سيبحَثُ هناكَ».

«صبيُّ الفضّة»! هتفَ علاءُ الدينِ واللونُ يفرّ من وجهِهِ.

«تماماً»، قالتْ إيلا وهي تخفِضُ صوتَها. «صبيُّ الفِضّةِ. إنّهُ

بمثلِ عُمرِكَ. ولن أتفاجأ إذا ما حاولَ الاتصالَ بكَ، لأنّهُ يحتاجُ إلى المساعدة منكَ».

«بخصوصِ ماذا»؟

«يحتاجُ أن تساعدَه في العثورِ على الفضّة المفقودةِ، بطبيعةِ الحالِ».

بدَتْ هذهِ بدايةً جيدةً. ما جلسوا إلا توّاً، لكِنَّ إيلا أتت مباشرةً على ذكرِ الفضّةِ وصبيِّ الفضّةِ.

صدرَ حفيفٌ من حامِل القططِ حيثُ كانَ القطُّ يتمطّى.

«أنا لا أفهمُ مَن هو صبيُّ الفضّة»، قالَ علاءُ الدينِ ببطءٍ.

«إنّهُ ابنُ أورفار».

لسعَ علاءُ الدين فمَهُ بالشوكولاتةِ الساخنةِ فوضَع كوبَهُ مِن يدِه. «ابنُ أورفار؟ لكنني ظننتُ أنهُ ماتَ في حادثٍ»، قالَ بارتباكٍ بالغٍ.

«هذا صحيح في الواقعِ»، قالت إيلا. «لقد ماتَ فعلاً».

انحنَتْ نحوهما عبرَ الطاولةِ. وذكّرت عيناها الداكنتانِ

وشعرُها الأشيَبُ علاءَ الدينِ بجدّتِه. ثم أحكَمَت لفَّ شالِها الأخضرِ حولَ كتفيها.

«لقد مات، لكنهُم يقولون أنّهُ بقيَ هنا في أوهوس كشَبحٍ، ليبقى برفقةِ والدِه وليساعدَه، بعدما تركته زوجتُه ورحلَت».

ذكَّر علاءُ الدينِ نفسَه بأنّهُ لا يُؤمِنُ بالأشباحِ. هذا ليسَ حقيقياً. مع ذلك هناك شيءٌ فاتِنٌ في قصّة إيلا. شيءٌ جعلَه يستمعُ بانتباهٍ شديدٍ.

«يساعدُ أباهُ في ماذا»؟ أرادت بيلي أن تعرفَ.

«في العثُورِ على الفِضَّةِ المفقودةِ».

«لماذا أرادَ أن يفعلَ ذلكَ»؟ سألَ علاءُ الدينِ.

«يريدُ، وليسَ أرادَ»، صحَّحَتْ له إيلا. «لم يعثر أحدٌ على الفضَّةِ مُطلقاً، وما زالَ صبيُّ الفضّة يبحثُ، ليضعَ الأمورَ في نصابِها الصحيح».

تحرّكَت بيلي في مكانِها بقلَقٍ. «كيفَ تعرفينَ كلَّ هذا؟ كيفَ تعرفينَ أن لصبيِّ الفضّةِ وجودٌ، وأنّهُ يبحثُ عن الفضّةِ»؟

«إنّه السببُ نفسه الذي جعلَني أعرفُ شيئاً عما حدَثَ في منزِلكُم»، أجابت إيلا. «لقد عشتُ هنا وقتاً طويلاً. وأنا أعرفُ الناسَ؛ الناسَ الذين رأوا وسمِعوا أشياءً، وكثيرونَ منهُم رأوا صبيَّ الفضَّةِ، خصوصاً في هذا الوقتِ منَ السّنةِ».

تنهَّد علاءُ الدينِ. «ولكنْ، إذا لم يكُنْ أورفار هوَ الذي أخذَ الفضَّةَ، فمن أخذَها إذن»؟

«هذا ما أجهلهُ»، اعترفَت إيلا. «لم يكُنْ بالضرورةِ شخصاً يكرهُ صائغَ الفضّة؛ اللصوصُ هُم اللصوصُ، وهم يسرقونَ الأشياءَ فقط. أو ربّما كانَ السارقُ الصائغَ نفسَه».

رفعَ علاءُ الدينِ نظره إليها. «أتعتقدينَ ذلكَ؟ أيمكِنُ أن يكونَ الفاعِلُ هو صائغُ الفضَّةِ»؟

هزّت إيلا كتفَيها. «مَن يدري؟ كانتْ هذهِ هيَ الطريقةُ المثاليةُ لتدميرِ حياةِ أورفار. ربّما كانَ الأمرُ كلُّه عملاً من أعمالِ الانتقامِ».

لم يكُن هذا ما أمِلَ علاءُ الدينِ بسماعِه. يجبُ أن يعرفوا

بشكلٍ مؤكَّدٍ مَن هو اللصُّ، وإلا فإن الفضّة لن تظهرَ أبداً. ولم تكُن معرفةُ حقيقةِ أنَّ صبيَّ الفضّةِ يبحثُ عنها منذُ مئةِ عامٍ بلا طائلٍ مُشجِّعةً بشكلٍ خاصٍ، على أقلِّ تقديرٍ. كيفَ بحقِّ اللهِ سيعثرُ علاءُ الدين وبيلي عليها في غضُون أسابيع مَعدودةٍ فقط؟

٢٢

«أرى أنّ أملَكَ قد خابَ»، قالتْ إيلا. «ربّما تودُّ تفقّدَ بعضِ الصُّورِ بدلاً من هذا»؟

فتحَتْ حقيبةَ يدِها وأخرجت صندوقاً منَ الورقِ المُقوّى. «انتقيتُ هذه الصُّورَ من أرشيفِ الكنيسةِ في طريقي إلى هنا. آملُ أن أكونَ قد أحضرتُ كلَّ شيءٍ».

فتحَتِ الغِطاءَ ونظرَت في الصندوقِ. «لنرى الآن»، قالتْ. «هذه صورةٌ قديمةٌ لورشةِ صائغِ الفِضّةِ»، وأعطَتْ علاءَ الدينِ صورةً بالأبيضِ والأسوَدِ.

«إنّها صغيرةٌ جداً»، قالت بيلي.

«هناكَ صورٌ أكبرُ أيضاً»، قالت إيلا، وهي تريهما صورةً أخرى.

هذه المرّةِ استطاعا تبيّنَ صائغِ الفضّة بمزيدٍ من الوضوحِ. كانَ ينظرُ مباشرةً إلى الكاميرا، وقد ارتسمَ على وجههِ تعبيرٌ رصينٌ.

«التُقِطَتْ هذهِ الصورةُ قبلَ ثلاثةِ أشهُرٍ من دمارِ الورشةِ»، قالتْ إيلا. «وكانتْ الكنيسةُ قد طلبَتْ توّاً فِضيّاتٍ جديدةً، واغتنمَت الفرصةَ لتصوّر الصّائغَ».

فكّر علاءُ الدينِ بأنّ الصائغَ يبدو مُسنّاً. وقد شعرَ بالشيءِ نفسِهِ عندما نظرَ إلى صوَرٍ بالأبيضِ والأسودِ لجدّيهِ؛ بدَيا عجوزَين، حتى عندما كانا صغيرَينِ في السّنْ.

«وهذا أورفار. هذهِ الصورةُ التُقِطَتْ لَهُ في جنازةِ ابنهِ. والمرأةُ بجوارِ أورفار هي زوجتُه. وقد هجرَته بعدَ ذلكَ، كما تعرفان. وعلى اليمينِ كلبُهم، وهذا ابنهُما الأصغَر».

كانتْ هذهِ الصورةُ فظيعةً. بدتْ المرأةُ كما لو أنها ظلّت تبكي طوالَ أسابيعَ بلا توقفٍ؛ والكلبُ أيضاً بدا حزيناً. ولا يظهرُ الرجلُ فيها بوضوحٍ لأنّه أشاح بوجههِ بعيداً عن الكاميرا.

«كلبٌ لطيفٌ»، قالتْ بيلي.

وظنَّ علاءُ الدينِ ذلكَ أيضاً. «إنه يضعُ طوقاً جميلاً»، قالَ وهو يشيرُ إليه.

«هذا الكلبُ أصبحَ أقربَ أصدقاءِ أورفار»، تنهَّدتْ إيلا. «لم يتبقَّ لهُ أحدٌ آخرُ بعدَ رحيلِ زوجتِه. هذهِ صورةٌ قريبةٌ له؛ أعني الكلبَ».

«لماذا تحتفظُ الكنيسةُ بصورةٍ قديمةٍ لكلبٍ»؟ تساءلَت بيلي.

«كان أورفار يعيرُهُ للكاهنِ وعائلتهِ مِن أجلِ الحراسةِ بينَ حينٍ وآخر. وقد أحبَّهُ الأولادُ».

أظهرَتِ الصورةُ رأسَ الكلبِ وطوقَهُ؛ وهذهِ المرة بدا سعيداً حقاً.

«كما وجدتُ أيضاً صورةً للمرأةِ التي أرادَ أورفار والصائغُ الاقتران بها»، تابعَت إيلا، وهي تخرجُ صورةً أخرى منَ الصندوقِ.

استوعبَ علاءُ الدينِ جيداً لماذا اشتبكَ أورفار والصائغُ من أجلِ

الفتاةِ. كانتْ جميلةً جداً! تشبِهُ بيلي بعضَ الشيء في حقيقةِ الأمرِ.

«ثوبٌ جميلٌ»، قالتْ بيلي.

«ألديكِ المزيدَ من الصورِ لأورفار»؟ سألَ علاءُ الدينِ. «لم أستطِعْ أن أرى حقاً كيفَ يبدو في الصُورةِ السابقةِ».

«لديَّ بالتأكيدِ... لنرى الآن...».

بدا علاءُ الدين وبيلي سعيدَين بالانتظارِ؛ كان المقهى دافئاً ومريحاً. وشرعَ علاءُ الدينِ في التساؤلِ أينَ يمكنُ أن يخبئَ المرءُ كومةً من الفضّة المسروقةِ. ربّما يدفنُها في مكانٍ ما. أو يبيعُها. فبعدَ كلِّ شيءٍ، هذا هو السببُ في أنَّ الناسَ يسرقونَ الأشياءَ، أليسَ كذلك؟ من أجلِ جَني النقودِ.

شعرَ علاءُ الدين بقلبهِ يغرَقُ. لن يفلحوا في العثورِ على الفضّةِ أبداً.

«ها قد وجدتُها»، قالتْ إيلا. «هذا أورفار. أردتُ أن أجدَ صورةً لابنهِ، صبيِّ الفِضّةِ، ولكنْ لا يبدو أنَّ هناكَ واحدةً»، ومرّرتِ لهما الصورةَ.

حدّق علاءُ الدينِ وبيلي فيها. ولم يقُلْ أيٌّ منهما كلمةً واحدةً.

خفَقَ قلبُ علاءِ الدينِ بقوّةٍ حتى ظنَّ أنَّ خفقانَهُ يظهَرُ عبر كنزتِهِ.

«لا يُمكنُ أن يكونَ هذا حقيقياً»، همسَتْ بيلي.

«ماذا»؟ سألتْ إيلا. «ما الذي لا يمكِنُ أن يكونَ حقيقياً»؟

لكنَّها لم تحصُلْ على جوابٍ. ولم يستطِعْ علاءُ الدينِ أن يُبعِدَ عينيه عن الصُّورةِ. كانَ أورفار ينظرُ إلى الكاميرا هذهِ المرة. وبدا بالضَّبطِ مثلَ شخصٍ يعرفُه علاءُ الدينِ تمامَ المعرفةِ. كان أورفار صُورةً طبقَ الأصلِ عن ماتس.

في نهايةِ المطافِ، تولّت بيلي شرحَ سببِ دهشتِهما لإيلا: كانَ علاءُ الدينِ مذهولاً لدرجةِ أنّه لم يقدر على نطقِ كلمةٍ واحدةٍ.

«هناكَ إذن رجلٌ يعملُ في مطعمِكم ويبدو بالضّبطِ مثلَ أورفار»، قالت إيلا ببُطء.

«نعم»، قالَ علاءُ الدينِ الذي أسعفه الكلامُ أخيراً.

شعَرَ كما لو أنهُ اكتشفَ شيئاً مهمّاً بحقٍّ: شيئاً يمكنُ أن يُفسّرَ

كيف تترابطُ الأشياءُ معاً. لكنّهُ لم يستوعِب ذلكَ في هذهِ اللحظةِ.

«في هذهِ الحالةِ، لا بدُّ من أن يكونَ ماتس حفيدَ ابنِ أورفار. سمِعتُ أنَّ هناك قريباً لأورفار ما زالَ يعيشُ في أوهوس، ولكنْ لم أملك فكرةً عمّن يكونُ»، قالت إيلا.

حاولَ علاءُ الدين أن يخمّن ما هيَ صلةُ ماتس بأورفار.

«فكِّرَ في الأمرِ»، قالتْ إيلا. «رُزِقَ أورفار بولدَين؛ مات أحدهما؛ صبيُّ الفضّةِ. والآخرُ رحلَ إلى كريستيانستاد مع أمِّهِ. وهكذا، لا بدّ من أن يكونَ ذلك الصبيُّ جدّ ماتس».

أخذَ علاءُ الدينِ يحسِبُ الأرقامَ في عقلِهِ. نعم، هذا مُمكِنٌ.

«ربّما يكونُ الشبَهُ بينَهما مُجرّدَ صُدفةٍ»، قالَ عندما هدأ قليلاً. وحدّقَ في الصُورةِ مرةً أُخرى.

«لا أعتقدُ ذلكَ»، قالت بيلي. «إنهما مُتشابِهانِ بحيث يُمكنُ أن يكونا الشّخصَ نفسَهُ».

«علينا أن نتحدّثَ إلى ماتس»، قال علاءُ الدينِ.

«لماذا»؟ استفهمت بيلي. «ماذا سنقولُ لَهُ»؟

«لديَّ فكرَةٌ. ربّما يعرفُ شيئاً عن أورفار. إذا كانتْ بينَهما صِلَةٌ».

تنهَّدَت إيلا، «لا أُريدُ أن أرفعَ آمالَكُما كثيراً. لكِنْ إذا كانَ مثلَ جدِّهِ الأكبرِ، فهو شخصٌ لا بأس بالتحدّث إليهِ. كان أورفار معروفاً في هذهِ الأنحاءِ بأنَّهُ إنسانٌ مسكينٌ».

أطرقَ علاءُ الدينِ. إنَّ لماتس السمعةَ نفسها أيضاً.

«أيمكن أن نستعيرَ صورةَ أورفار»؟ قالَ. «أرغبُ في أن تكونَ معي عندما أتحدَّثُ إلى ماتس».

فكَّر في الحُلُمِ الذي رآه ليلةَ نومِهم في المطعمِ؛ في الصبيِّ صاحِبِ السروالِ القَصيرِ الذي جاءَ ليطلُبَ منهُ المساعدةَ في العثورِ على الفضَّةِ.

تحدَّثْ إلى إيلا، قالَ الصبيُّ في الحلُم.

والآن، ها هما يجلِسان هنا ويفعلان ذلكَ بالضبطِ؛ يتحدّثان إلى إيلا. ولم يفهَمْ علاءُ الدينِ كيفَ يُمكِنُ أن يكونَ قد حلُم بشيءٍ بهذهِ الغرابةِ، والذي تحققَّ فعلاً معَ ذلِك.

«طبعاً يمكنُ أن تستعيراها»، أجابتْ إيلا. «أعيداها إلى

الكاهنِ عندما تنتهيانِ منها».

دسَّ علاءُ الدينِ الصورةَ بعنايةٍ في جيبِهِ.

«أأنتِ متأكِّدَةٌ من أن ليسَ لديكِ أيّ صورةٍ لصبيٍّ الفضَّةِ»؟

هزّت إيلا رأسَها بحزنٍ. «أنا آسفة، ليسَ لديَّ. لماذا تسألُ؟ أتظنُّ أنكَ رأيتَهُ»؟ بدَتْ إيلا فضوليَّةً.

تحرَّكَ علاءُ الدينِ بقلَقٍ على مقعدِهِ. «لا، طبعاً»، قال. «أنا لا أؤمنُ بالأشباحِ».

مع ذلك لم يستطِعْ أن يمنعَ نفسَهُ من التساؤلِ. الصبيُّ ذو السروالِ القصيرِ الذي يجيءُ ويذهبُ كما يشاءُ، من غير أن يتركَ آثارَ أقدامٍ في الثلجِ. أيُعقَلُ أن يكونَ...؟

ضحِكَت إيلا بمرَحٍ. «كما تقول! في وسعي أن أستشفَ أنَّ لديكَ شيئاً يشغلُ ذِهنكَ»!

ابتلعَ علاءُ الدينِ ريقَهُ وامتنعَ عن مواجهةِ نظرتها المحدِّقةِ بالمثلِ.

لولا ذلكَ الحلُم الأحمَق، لما بدأ علاءُ الدينِ يتساءل مُطلقاً.

وألحَّ عليه التساؤل بينه وبينَ نفسِه: هل يُمكِنُ أن يكونَ الصبيُّ ذو السروالِ القصيرِ هو صبِيُّ الفِضّةِ؟

٢٣

بعدَ فترةٍ وجيزةٍ كانَ علاءُ الدينِ وبيلي يقفانِ خارجَ المقهى. ووعدتهُما إيلا بإبقاءِ صندوقِ الصُّورِ معَ الكاهنِ، في حالِ احتاجا إليهِ مجدّداً.

استنشَقَ علاءُ الدينِ الهَواءَ البارِدَ. وكانَ الظلامُ قد حلَّ.

«أتعتقدُ أننا يُمكنُ أن نجدَ الفضّةَ في يومٍ»، سألَت بيلي التي لاحت عليها الكآبةُ.

«أعتقدُ أننا سنفعَلُ»، أجابَ علاءُ الدينِ بهدوءٍ. «إذا بَذلنا جهدَنا».

«لكنْ، ماذا عن صبيِّ الفضّةِ»، بدَت بيلي مُتشكّكةً. «أتُؤمِنُ

بكلِّ ذلكَ أيضاً»؟

لم يعرِفْ علاءُ الدينِ بماذا يُؤمِن. «يبدو صبيُّ الفضّة غيرَ ذي صِلَةٍ نوعاً ما»، قالَ. «إنها الفضّةُ هيَ التي تهمُّ».

هزّتْ بيلي رأسَها ببُطء.

«أرى أنَّ علينا التحدُّثَ إلى ماتس»، قالَ علاءُ الدينِ.

«عن الفضّةِ»؟

«عن أورفار. وإذا واتَتنا الشجاعةُ اللازمةُ، يُمكنُ أن نسألَهُ عن الطفلَين في القَبوِ أيضاً».

لم تبدُ بيلي واثقةً كثيراً بهذا الشأنِ. «أنا لا أظنُّ حقاً...» بَدأت تقولُ.

«أو»، قاطعَها علاءُ الدينِ، «نذهبُ إلى منزلِهِ مرةً أخرى، ونرى ما إذا كُنا نستطيعُ أن نرى الطّفلين. أعرفُ أن ماتس سيكونُ في العَملِ الليلةَ».

بدَت بيلي غيرَ مُقتنِعةٍ بَعد، لكنَّ علاءَ الدينِ كانَ مُصمِّماً.

«هناك شيءٌ غريبٌ في كلِّ هذا»، قالَ. «ألا ترين أنه من

الغريبِ أن يشبه ماتس أورفار تمامَ الشّبهِ؟ وأريدُ أن أعرفَ لماذا لديه طفلَين في قبوهِ».

بدأ يسير في الشارعِ. «رافقيني إذا شئتِ»، قال من فوقِ كتفِه. «وإلا أذهبُ وحدي».

تنهّدت بيلي. «حسناً، سآتي. لكن ينبغي أن نذهبَ إلى موقفِ الحافلاتِ أولاً».

وقَف علاءُ الدينِ. «لماذا»؟

«لأنّني وعدتُ سيمونا أن أستقبلَها هُناك. وستصلُ بعد ربعِ ساعةٍ».

وصلَتِ الحافلَةُ مُبكّراً، ولذلك وجدا سيمونا تنتظرُ مُسبقاً في الموقفِ المظلّل. ولم تصدّق أذُنيها عندَما أخبراها بما يُخطّطانِ له.

«أنتُما مَجنونان»؟ هتفتْ. «تريدان العَودَةَ إلى منزلِ ماتس»؟

ثمّ هدأت عندما أكّدَ لها علاءُ الدينِ أنّ ماتس سيكُونُ في العملِ خلالَ السّاعاتِ القليلَةِ القادمة. وبينما مضَوا مسرعينَ مبتعدينَ عن محطّةِ الحافلاتِ أخذَ الثلجُ يتساقطُ من جديدٍ؛

وحطَّت نُدَفُ الثلجِ الكبيرةُ مثلَ الكُراتِ الصغيرةِ تقريباً على رؤوسهِم وأكتافِهِم. لكنَّ علاءَ الدينِ لَم يُولِها أدنى اهتمامٍ. كان يتأججُ حماسةً.

شكّلَ الثلجُ غيوماً صغيرةً حولَ أقدامِهِم وهُم يُهروِلونَ في الشارع. ومرةً أخرى فكَّرَ علاءُ الدينِ في الصبيِّ ذي السِّروالِ القصيرِ، الذي سارَ على الثلْجِ من غيرِ أن يخلّفَ أثرَ قدمٍ واحِد.

لا بدّ من أنني تخيلتُ ذلك، قال لنفسِه للمرةِ المِئةِ. لقد كنتُ مخطئاً. لا وجودَ لصبيِّ الفضّة. إنّه ليسَ حقيقياً.

بدا منزلُ ماتس مَهجوراً؛ لم تظهر فيه أي أضواءٍ من النافذةِ العريضةِ المواجِهةِ للشارعِ.

«يبدو كما لو أنّهُ انتقلَ مِنهُ»، قالتْ سيمونا. ووافقَ الصَّديقان. تتبعوا متردّدين ممرّ السيارةِ؛ ماذا يجدر بهم أن يفعلوا الآن؟ أيندفعُ الثلاثةُ إلى المنزلِ؟ وماذا يقولون إذا عادَ ماتس إلى البيتِ، ضدّ كلِّ التوقُّعاتِ؟

«نولّي الأدبار»، قرّرَ علاءُ الدينِ.

«مرةً أخرى؟» قالتْ سيمونا.

«مرةً أخرى».

وكما لَو أنَّهُم تلقَّوا إشارةً، سارَ ثلاثتُهم باتجاهِ المنزِلِ.

«إلى أينَ نحنُ ذاهبون»؟ سألَت بيلي. «هل ننعطفُ نحو الخلفِ حيثُ لمحت سيمونا الطِّفلين من خلالِ نافذَةِ القَبوِ»؟

«لنبدأ بواجهةِ البيتِ»، اقترحَ علاءُ الدينِ.

لم يناقشوا الأمرَ، لكنَّهم تقدَّموا مُتلاصقين. لم يشأ أيّ منهم أن يكونَ وحدَهُ. تحركوا نحو النافذةِ المجاورة للبابِ الأماميِّ؛ واضطرَّ علاءُ الدينِ إلى الوقوفِ على رؤوسِ أصابعهِ ليتسنّى له النظر إلى الداخِلِ.

«لماذا لا نُجرِّبُ البابَ»؟ قالت سيمونا. «ربما نسيَ أن يُقفِلَهُ».

«غيرُ ممكنٍ»، قالتْ بيلي على الفورِ.

«أليسَ هذا مُخالِفاً للقانونِ»؟ استفهمَ علاءُ الدينِ مُتردداً. «اقتحامُ منزلِ شخصٍ آخر»؟

«ما دخلُ هذا بأيِّ شيءٍ هُنا»؟ قالتْ سيمونا. «ماذا لو كانَ

الطِّفلان محبوسَين في القَبوِ؟ يجبُ أن نخرجَهم»!

لكنَ فكرةَ التسلُلِ إلى منزلِ ماتس أرسلتْ قشعريرةً في جَسدِ علاءِ الدينِ، ولذلكَ قرّروا الاكتفاء بالنظر عبرَ النوافذِ بدلاً من ذلكَ.

لَم يروا أيَّ شيءٍ غيرَ مألوفٍ. في غرفةِ المعيشةِ هناك أريكتان طويلتان، بدا لعلاءِ الدين أنهما بشعتان بشكلٍ خاصٍّ، لكنَّ ماتس ربّما لا يشاطرُهُ الرأيَ. وهناكَ طاولةٌ حُجِبَ سطحُها بالصُّحفِ والمجلاتِ، وأيضاً، أكبرُ تلفزيون شاهدَهُ علاءُ الدينِ على الإطلاقِ.

«لا بدَّ من أنهُ يُحبُّ مشاهدةَ الأفلامِ»، قالت سيمونا. «أو كرةَ القدمِ».

انتلقوا من مكانِهم. وعبرَ النافذةِ التاليةِ أبصروا ما بَدَا أنه غرفةَ نومٍ، وعبرَ النافِذةِ التاليةِ رأوا مكتباً.

معَ أنَّ علاءَ الدين كان واثقاً من أن ماتس لن يعودَ إلى البيتِ الآن، شعَرَ بالتوتّرِ. سيُجنُّ جنونُ أمّه إذا عرفت أنّهُم تسلّلوا إلى حديقةِ ماتس واستَرَقوا النّظرَ عبرَ نوافذِهِ.

«هذه مضيّعةٌ للوقتِ»، قالَت سيمونا.

جثموا وأمعنوا النّظر في نوافذِ القَبو، واحداً تلوَ الآخر.

«رأيتُ الطّفلَينِ من النافذَةِ الأخيرةِ»، قالتْ سيمونا بصوتٍ خَفيضٍ، كما لو أنّها خائفةٌ من أن يسمَعَها أحدٌ.

لم يعرِفْ علاءُ الدينِ لماذا اعتقدَ أنَّ الطّفلَين مهمّان؛ ربّما جعلتهُ الطريقةُ التي وصفتْهم بها سيمونا يفكِّرُ في الصبيِّ صاحبِ السروالِ القصيرِ. لكنَّهُ أرادَ أكثرَ من كلِّ شيءٍ أن يعرفَ لماذا لدى ماتس أطفالٌ في قَبوِهِ.

وصلوا في النهايةِ إلى النافذةِ الصّحيحَةِ. وشعر علاءُ الدينِ بالتوتُّرِ لدرجة أنّهُ حبسَ أنفاسَهُ وهو يحدِّقُ في الداخلِ.

«لا أستطيعُ أن أرى شيئاً»، همسَتْ بيلي. «المكانُ مُظلِمٌ جدّاً».

ضغطَ علاءُ الدينِ أنفَهُ على الزجاجِ البارِدِ، وإنّما بلا فائدَةٍ. وهمَّ بالتراجعِ والابتعادِ لولا أنهُ لمحَ شيئاً يلمَعُ في الداخلِ.

«أرأيتُما ذلك»؟ همسَ. وهزّت الفتاتان رأسيهما. تراجعوا إلى الخلفِ ليكونوا بعيدين عن مجال الرؤية؛ إذ ربّما هناك شخصٌ ما يجلسُ في الظلامِ، ويُحدِّقُ نحو الخارجِ.

ألقى علاءُ الدينِ نظرةً أخرى. واستطاع هذه المرّة أن يرى بصيصاً خافتاً في إحدى زوايا الغرفَةِ. كانَ من الصعبِ تبيُّنِ ماهيَّتِه، وبدا كما لو أنَّ أحداً يحملُ مصباحاً يدوياً. وأضاءَ الشعاعُ المُنبعِثُ مِنهُ عدداً من الأشياءِ المُلقاةِ على الأرضِ.

كرةٌ كبيرةٌ.

حبلَ قَفزٍ.

دميةَ دُبٍّ قديمَةً.

دقَّ قلبُ علاءِ الدينِ بقوةٍ حتى كادَ يخرجُ من صدرهِ. ونهضَ الشخصُ الذي يحملُ المصباحَ اليدويَّ ببطءٍ على قدميهِ وانتقلَ إلى وسَطِ الغرفةِ. كان طفلاً.

صبيّاً.

صبياً يرتدي سروالاً قصيراً وكنزةً صوفيّة.

حدَّق الصبيُّ في النافذةِ؛ وألقى علاءُ الدين وبيلي وسيمونا أنفسَهُم إلى الخلفِ على الثلجِ خشيةَ أن يلاحظَهم.

«أهذا هو الصبيُّ الذي كان يحومُ حولَ بيتِكُم»؟ سألته بيلي

بأنفاسٍ متقطعةٍ.

«لا أدري»، قالَ علاءُ الدينِ. «لقد رأيتهُ ثانيةً واحدةً فقط».

عادَ إلى النافذةِ بحذَرٍ ونظرَ من جديدٍ. أيمكنُ أن يكونَ هذا هو الصبيُّ الذي رآه عدةَ مراتٍ؟ لم يكُنْ متأكداً بَعد. إنّه يُشبِهُهُ كثيراً، لكن... لا، لا يمكنُ أن يكونَ واثقاً. تراجعَ مُبتعداً عن النافذَةِ.

«لم أرَ البنت هذهِ المرةَ»، قالت سيمونا. «كانتْ هناكَ بنتٌ في المرّةِ السابِقةِ».

نظرَ علاءُ الدينِ حواليه. أصبحَ الثلجُ يتساقطُ بكثافةٍ الآنَ. يجبُ أن يُسرعَ إلى البيتِ من أجلِ كوبِ شاي.

«أيمكِنُ أن يكونَ ماتس قد أعطى مفتاحَ المطعمِ لأحدِ الطفلَين؟» تساءلَت بيلي وهُم يغادرونَ الحديقةَ. «بحيث يستطيعُ الدخولَ وأخْذَ الطعامِ، أعني»؟

«نعَم».

«ربما».

اختلطَتِ الأمورُ في ذهنِ علاءِ الدينِ فجاةً. كان قد ظنَّ أنَّ

الصبيُّ ذا السروالِ القصيرِ هو الذي يأخذُ الطّعامَ. ولكن، إذا كانَ ذلك هو الصبيّ نفسه الذي لمحه توّاً في القَبوِ، أيُحتملُ أن يكونَ هو اللصُّ أيضاً؟

«عليكَ أن تتأكَّدَ الليلةَ»، قالت سيمونا. «اِنتظرْ فترةً وجيزةً بعدَ أن تضعوا كيسَ الطعامِ في الخارجِ؛ إذا اختبأتَ قرب النافذةِ، سترى مَن يأتي ويلتقِطهُ».

رأى علاءُ الدينِ أنهًا فكرةٌ جيّدةٌ. من المفيدِ حتماً أن يعرفوا من يأخُذ الطعامَ؛ ولدَيهِ شعورٌ بأنّ كلّ شيءٍ أصبحَ يتماسكُ ويترابطُ بطريقةٍ ما.

الطعامُ المسروقُ.

الطّفلانِ في القبوِ.

الصبيُّ ذو السروالِ القصيرِ.

كيفَ تدخُلُ مسألةُ الفضّةِ في كلّ ذلكَ؟

«أعتقدُ أنّ الطّفلينِ في قَبوِ ماتس هُما من مركبِ اللاجئين»، قالتْ بيلي.

فكَّرَ علاءُ الدينِ بذلكَ أيضاً. ولكن، ما علاقتهما بماتس؟

بينما كانوا يسيرونَ في الشارعِ، ألقى علاءُ الدين نظرةً إلى الوراء من فَوقِ كتفِهِ، ووقفَ متسّمراً في أرضهِ. لقَد أخفى الثلجُ المتساقِطُ آثارَ قدميهِ كلِّها تقريباً.

لا بدَّ من أن هذا ما حدثَ خارجَ الكنيسةِ، فكَّرَ، لقد غطّى الثلجُ آثارَ أقدامِ الصبي، وحدثَ ذلكَ بسُرعةٍ بحيثُ لم يدرك أحد الأمرَ.

عادَ وتابعَ المشيَ. لا ريبَ في أنّه من الجيِّدِ أنَّ الثلجَ يتساقَطُ بغزارةٍ؛ إذا نظرَ ماتس في أنحاءِ الحديقةِ عندما يعودُ إلى البيتِ، لن يرى أيَّ إشارَةٍ أبداً تدلّ على أنَّهُم قصَدوا بيته.

٢٤

كانَ هناكَ الكثيرُ مما يتوجّبُ عمَلُهُ في المطعَمِ في ذلكَ المَساءِ. بعدَ أن تناولَ علاءُ الدينِ طعامَهُ، جلسَ إلى مكتبِهِ لإنجازِ واجبٍ مدرسيٍّ، لكنّهُ كان يغلي بنفادِ الصّبرِ. تمنّى لو يغادر جميعُ الزبائِنِ إلى بيوتِهِم لتغلِقَ أمُّهُ المطعمَ ويتركوا الطعامَ على الدّرجِ، لعلّهُ يكتشفُ أخيراً مَن يأتي ويأخُذه.

رنَّ هاتفُهُ المَحمُولُ؛ شعَرَ بدفقةٍ من الدفءِ عندما رأى اسمَ المُتَّصِلِ.

«مرحباً»! قال والدُهُ. «كيفَ تسيرُ أحوالُكَ أنتَ وماما»؟

خمّنَ علاءُ الدين أنَّ تكاليفَ الاتصالِ من تركيا باهظةٌ، ولذلكَ

راح يدردشُ بسُرعةٍ عن مختلف الأمورِ؛ عن الفضّةِ المفقودةِ، وعن زيارتِهِ الثانيةِ للكنيسةِ. لكنّه لم يذكُرْ إيلا، ولا صورةَ الرجلِ الذي يشبه ماتس تماماً.

«ماذا ستفعلُ إذا وجدتَ الفضّة»؟ سألَه أبوه.

«سأحاولُ بيعَها»، أجاب علاءُ الدينِ بسرعةٍ. «ليتسنّى لنا أن نبقى في أوهوس».

لم يُعلّق والدُه بكلمةٍ.

جفّ فمُ علاءِ الدينِ، وقال بصَوتٍ خافِتٍ: «إلا إذا كانتِ الكنيسةُ تريدُها، بطبيعةِ الحالِ. أعني، لقد دفعوا ثمنَها مُسبقاً قبلَ أن تختفيَ».

بقِيَ والدُه صامتاً.

تنحنحَ علاءُ الدينِ. «لكنّني مُتأكِدٌ من أنني سأحصلُ على مكافأةٍ»، أردفَ. «والقصة ستظهرُ في الصُّحفِ، وبالتالي سيسمَعُ المزيدُ من الناسِ عنِ المطعمِ».

«هذا كلُّه يبدو رائعاً»، قالَ أبوهُ. «ولكنْ...».

طقطقَ الخطُ، وقرّبَ علاءُ الدينِ الهاتفَ من أذنِهِ.

«لا أستطيعُ أن أسمعَكَ»، قالَ.

بدا صوتُ والدِه بعيداً جداً، ومُهتزاً بشدةٍ. «قلتُ إننا يمكنُ أن نتحدّثَ عن هذا عندما أعودُ إلى البيتِ. لديّ بعضُ الأفكارِ الجديدَةِ المتعلّقةِ بتركيا. يمكِنُ أن نعيشَ حياةً رائعةً عندَ الشاطئ يا علاءَ الدّين. فكِّر بالمرحِ الذي ستحظى بهِ إذا جاءت بيلي وسيمونا للزيارةِ هنا»!

أحسّ علاءُ الدينِ بحنجرتهِ تنقبضُ. بدا كما لو أنَّ قرارَ الانتقالِ إلى تركيا قد اتُخِذَ مُسبقاً. «لكنّنا نعيشُ حياةً رائعةً هنا»، قال، مُحاولاً أن يبدو ثابتاً.

«هذا صحيحٌ في الحقيقةِ»، قال والدُه. «لكنّها لم تعُدْ جيدةً كالسابقِ. اِسمعْ، علي أن أودّعكَ الآن. جدُّكَ يهديكَ السلامَ؛ أصبحت صِحّتُهُ أفضل بكثيرٍ. عانِق أمكَ من أجلي»، ثمّ أغلقَ الخطَّ.

وضعَ علاءُ الدينِ الهاتفَ وحاولَ أن لا يبكي. بيدَ أنّه لم يفلح في ذلك، إذ نفرت من عينيه بعضُ الدموعِ العنيدةِ، وسالَت على

وجنتيه وتقطرت مِن ذقنِه. ظنّت بيلي أنّ أمّها غيرُ عادلَةٍ عندما أصرّت على انتقالِهِم مسافَةَ اثني عشرَ ميلاً فقط من كريستيانستاد إلى أوهوس؛ ويريدُ والِدُ علاءِ الدينِ منهُ أن ينتقلَ المسافةَ كلّها إلى تُركيا.

لماذا يتحتمُ أن يكونَ كلُّ شيءٍ بالغَ التعقيدِ، خصوصاً في هذا الوقتِ؟ نظرَ علاءُ الدينِ إلى كتُبِه؛ يُستحسنُ أن ينتظرَ واجبُه المدرسيُّ إلى الغَدِ؛ فهوَ أكثرُ غضباً وضيقاً من أن ينجزَه الآن.

فكّرَ في أن يصعدَ إلى المطعمِ ويتحدّثَ إلى والدتهِ، ويقولَ لها أن لا نيةَ لديهِ في الرحيلِ عن أوهوس. ولكن، يعرفُ أن لا وقتَ لديها لتسمعَهُ.

ولدهشتهِ، سمعَ قرعاً على بابِ غرفةِ نومهِ. وفتحَهُ ليجدَ بيلي وسيمونا تقفانِ هُناك، ومعَ كلٍّ منهُما حقيبةُ ظَهرٍ صَغيرَةٌ.

«قلتُ لأمي أننا سنبيتُ عندَكُم الليلةَ»، هتفَت بيلي. «وبذلكَ لن تكونَ وحدَك عندما تنتظرُ لترى مَن يأخذُ كيسَ الطعامِ. إذا كانَ هذا يناسبُكَ، أعني...».

سُرّ علاءُ الدينِ كثيراً. عانقَها وهو يهزّ رأسَه إيجاباً. طبعاً يناسبه ذلكَ.

«علي أن أُعلِمَ أمّي فقط»، قال، وجرى صاعِداً إلى المطعَمِ.

كانت ليلةً قارسةَ البردِ. ولمعَ الثلجُ في وهجِ الأضواءِ على الطريقِ المُفضيَةِ إلى البُرجِ. لم يكُنْ لدى والدةِ علاءِ الدين أيّ اعتراضٍ؛ إنّ بيلي وسيمونا على الرحبِ والسّعةِ طبعاً، حتى على الرغم من أنّهم في منتصفِ الأسبوعِ. لكنّ على الأصدِقاءِ الثلاثةِ أن يَعِدوا بالنُّهوض باكراً في الصباحِ التالي، في وقتٍ مناسبٍ للمدرسةِ.

«إلى متى تنوون الاستمرارَ في وضعِ الطعامِ على الدّرجِ؟ تمتمَ ماتس بينما كانَ علاءُ الدينِ وأُمُّه يحضّران كيس الطّعامِ في المطبخِ.

كانَ الوقتُ متأخّراً، والمطعمُ على وشكِ إغلاقِ أبوابِه.

«طالما بقِيَ مركبُ اللاجئينَ في الميناءِ»، أجابت والدةُ علاءِ الدينِ.

«حسناً»، قال ماتس وهوَ يديرُ وجهَهُ. «كيفَ تعرفونَ أنّ أحداً منَ المركبِ هو الذي يأخذُ الطّعامَ»؟

«لا نعرفُ. لكنَّ هذا ما نظنُّهُ. علاءُ الدين شاهدَ صبياً يرتدي سروالاً قصيراً يتجوّلُ في المنطقةِ، ونحنُ نعتقدُ أنّهُ من المركبِ».

«حسناً»، قال ماتس مرّةً أخرى.

ما الدّاعي لأن يبقى ماتس غاضباً على الدّوامِ؟ أخذَ علاءُ الدينِ الكيسَ وأسرعَ نازلاً إلى بيلي وسيمونا اللتينِ لازَمتا غرفَته تنتظِرانه.

حدّقتْ سيمونا في العُلَبِ البلاستيكيةِ داخلَ الكيسِ. «ماذا فيها»؟

«الليلةَ، كراتُ اللحمِ والبطاطِسُ والخُبزُ».

«هل تضعونَ الوجبَة نفسها كلَّ ليلة»؟ سألَت بيلي.

«لا، إننا نحاولُ إضفاءَ بعضِ التنوُّعِ».

في أوقاتٍ سابقَةٍ، كانَ الأصدقاءُ الثلاثةُ يتناولونَ الطَّعامَ أمامَ التلفزيون ويلعبونَ الألعابَ؛ أما الآن فهم ينتظرونَ أن يُغلِقَ المطعَمُ أبوابَهُ ليقوموا بوضعِ الكيسِ في الخارجِ.

«بالمناسبةِ»، بدأت سيمونا. «واتتني فِكرَةٌ. أبي رئيسُ شركةٍ

كبيرةٍ هنا في أوهوس. وهو يقولُ دائماً إنَّ الطعامَ هناكَ فظيعٌ حقاً. ماذا لو قرّروا أن يَطلبوا وَجباتهم من مطعمِكم؟ هذا سيجلب لكم الكثيرَ من النُّقودِ»!

قفزَ قلبُ علاءِ الدينِ منَ الإثارَةِ. «سيكونُ ذلكَ رائعاً»، قالَ.

«ليسَ هذا أكيداً بَعد»، قالتْ سيمونا، «لكنّني سأفاتح بابا بالموضوعِ».

«شكراً لكِ»! قال علاءُ الدينِ.

كان يعرفُ أن عليهِ العثورَ على طريقةٍ لمُساعدةِ أمّهِ وأبيهِ إذا أرادَ البقاءَ في أوهوس، وبغيرِ ذلكَ، سيُضطرُّ إلى الرحيلِ، قريباً. إنَّ الوقتَ ينفَدُ.

سمِعوا وقعَ خطواتٍ على الدّرجِ، أعقبَها صوتُ البابِ الخارجي وهو يُغلقُ، وصوتُ المفتاحِ يدورُ في القُفلِ. إنّها أمُّ علاء الدين، بطبيعةِ الحالِ؛ لقد غادرَ آخرُ زبونٍ إلى بيتِهِ.

مرّت بغرفةِ علاءِ الدينِ في طريقِ عودتِها.

«غادرَ الجميعُ، وانتهينا مِنَ الترتيبِ»، قالتْ. «وسآوي إلى

الفراش الآن. تُصبِحونَ على خَيرٍ، ناموا جيداً، كلُّكُم».

«تُصبحينَ على خيرٍ»، قالَ علاءُ الدينِ. «سأذهبُ وأضَعُ الطعامَ في الخارجِ الآن».

صعدت الأمُّ إلى غرفتِها في الأعلى، وركَضَ علاءُ الدينِ هابطاً السلالِمِ ومعه الكيس. حالما فتحَ البابَ لفحَه البردُ. وانتظرتْ بيلي وسيمونا في الدّاخلِ.

«ماذا الآن»؟ قالتْ سيمونا. «هل نبقى هُنا الليل بطولهِ»؟

لم يكُنْ الوقوفُ في المدخلِ يُشبِه بأيِّ حالٍ سكينةَ الجلوسِ في المطعَمِ. ولكنْ، ليروا من الذي يأتي من أجلِ الطعامِ، عليهِمْ أن ينظروا إلى الخارجِ من النافذةِ الصغيرةِ المجاورةِ للبابِ. كانَ علاءُ الدينِ على أُهبةِ الاستعدادِ، ولا ينوي قطعاً الاستسلامَ للنومِ هذهِ المرة!

«لا أعتقدُ أنَّ هذا ضَروريٌّ»، قالَ. «يمكنُ أن نتناوبَ في المُراقبةِ؛ وسأتسلَّمُ المناوبةَ الأولى».

«نعَم، حسَناً»، قالَت بيلي. «ستنامُ خلالَ دقيقتَين».

وبَدأت هي وسيمونا تضحكان.

«لا، لن أفعلَ»، احتجَّ علاءُ الدينِ.

«سنرى»، قالتْ سيمونا. «تعالَ وأيقِظ إحدانا عندما ينالُ منكَ التعبُ».

«أو ننزلُ نحنُ ونوقظَك»، قالتْ بيلي.

وانطلقتا مُسرعتَين على السلالِمِ قبلَ أن تتسنّى لهُ الفرصَةُ ليُجيبَ.

تُرِكَ وحيداً في الرّدهَةِ. وذهبَ مُتردداً وأطفأ الضوءَ. لا ينبغي أن يكونَ مرئياً عبرَ النافذَةِ؛ ربَّما يمنع ذلكَ أيّاً مَن كان من التقاطِ كيسِ الطعامِ.

اتكأ علاءُ الدينِ على الجدارِ وحدّقَ في الخارجِ. ظنَّ أنَّهُ لن يُضطرّ إلى الانتظارِ طويلاً. لا أحدَ يرغبُ في أن يختبئَ هناكَ في المدخَلِ عندَما يكونُ الطقسُ بارداً.

هذِهِ هي الميزةُ الوحيدةُ التي يُمكِنُ أن يفكِّرَ فيها في حال انتقلوا إلى تركيا: الجوُّ أدفأ هناكَ. حاولَ أن يطردَ من ذهنِهِ التفكيرَ

في مشاكلهِ كلّها؛ ربّما يتمكنُ والدُ سيمونا من مُساعدتهِم. وتمنّى في سريرتهِ أنْ يتحقّقَ ذلكَ.

لم يسمعْ أيّ صوتٍ من أيّ مكانٍ في البُرجِ. لا بدّ من أن أمّه قد غفَتْ على الفورِ، وربّما تتهامس بيلي وسيمونا الآن في حال ما زالتا مستيقِظتَين. إنهما لا تبرعان، بشكلٍ خاصٍّ، في التزامِ الهدوءِ، بيد أنهما تُفلحان في التزامِه أحياناً.

تمنّى لو أنّ النافذةَ أوطأ قليلاً؛ إذَن لاستطاعَ أن يجلِسَ على الأرضيةِ بينما يواصِل المراقبة. حدّقَ في الظّلامِ. منَ الجيّدِ أن الأضواءَ فوقَ مدخلِ المطعمِ تُترَك مضاءةً دائماً، وإلا لما استطاعَ أن يرى شيئاً.

زحفت الدقائقُ ببطءٍ وهي تمرّ. حرّكَ علاءُ الدينِ قدَمَيهِ، وعيناه تراقبان الخارج. لم يرَ روحاً واحدةً في مرمى النظرِ. وبعدَ مرورِ وقتٍ طويلٍ ظنّ أنهُ يلمحُ شيئاً. هناكَ رجلٌ يلقي ظلاً طويلاً على الثلجِ، ويسيرُ ببطءٍ نحو البرجِ. أم أنّهُ في طريقهِ إلى مكانٍ آخَر؟

ابتلعَ علاءُ الدينِ ريقَهُ بصُعوبةٍ. لا، إنّه بالتأكيدِ يتجهُ نحوَ البُرجِ.

حتى الآن، لم يستطِع علاءُ الدينِ أن يميّزَ وجهَهُ، إنمّا بدا واضحاً، حتى عن بُعدٍ، أنه ليسَ الصبيَّ ذا السروالِ القصيرِ. ضغطَ نفسَه على الجدارِ، وأمعنَ في التحديقِ. إنّه ليسَ الصبيَّ، فمن يكونُ إذن؟

جاءت الإجابةُ عندما بدأ الرجلُ يرتقي درجَ العتبةِ، وانحنى ليلتقطَ الكيسَ.

إنّهُ ماتس.

٢٥

«ماتس»! هتفَت والدتُهُ.

جعلتها الدهشةُ التي أصابتها تسقطُ الشطيرةَ من يدِها وترفعُ عينيها عن الصَّحيفةِ.

كانوا قد جلَسوا لتناولِ وجبةِ الفطور: علاءُ الدينِ، وبيلي وسيمونا والأمُّ. لم يكُن من المألوف أن يتناولوا وجبةَ الصباحِ في مثل ذلك الوقتِ المبكرِ، لكنَّ على بيلي وسيمونا أن تستقلّا في الوقتِ المناسبِ الحافلةَ الذاهبة إلى كريستيانستاد لتلتحِقا بالمدرسةِ.

لم يشأ علاءُ الدينِ أن يوقظَ والدتَهُ في مُنتصَفِ الليلِ ليخبِرَها بما رآه، أما الآن فلا بدّ من أن يخبرَها.

«إنّها الحقيقةُ. رأيتُه بعينيَّ هاتين. ماتس هو الذي يأخذُ الطعامَ الذي نتركُه على الدّرَجِ».

بدَت أمُّهُ كما لو أنّها ستنفجِرُ بالضّحكِ.

«وإذن، لماذا أمضيتَ نصفَ الليلِ في الرّدهةِ وأنتَ تُحدّقُ من النافذةِ يا حبيبي؟ أجفاكَ النومُ»؟

نخرَتْ بيلي وسيمونا وتناولتا قضمةً من الشطائرِ. ألقَت عليهما أمُّ علاءِ الدينِ نظرةً حادّةً. «أنتما مُشتركتان في هذا أيضاً؟ طبعاً مُشتركتان. أعتقدُ أنكُما لهذا السببِ قضَيتما ليلتكُما هنا».

ثمّ ابتسمَتْ وهزّتْ رأسَها، لكنّ التعبيرَ على وجهِها أصبحَ جادّاً.

«اِسمعوني جيداً، أنتم الثّلاثة»، قالتْ. «ظننتُ أننا تحدثْنا عن هذا في الخريفِ الماضي، عندما اختبأتُم بينَ الأشجارِ حتى تضبطوا الشّبحَ الذي يسكُنُ بيتَ بيلي. لا أريدُكُم أن تلعبوا شرطةً وحراميّةً. يمكنُ أنْ يوقعَكُم ذلكَ في متاعبَ خطيرةٍ».

احمرَّ وجهُ علاءِ الدينِ. إنّها على حقٍّ، لقد تحدّثوا فِعلاً عن ذلكَ الأمرِ. وما زالَ يتذكّرُ كيفَ شعَر حينذاك، وهو يختبئُ بينَ

أشجارِ الصنوبَرِ بانتظار اكتشافِ الشَّبحِ.

«ماتس لم يلمَحني»، قالَ. «وما كنتُ لأفتحَ البابَ وأخرُجَ بطبيعةِ الحالِ».

«هذا لا يهُمّ»، قالتْ والدتُهُ. «ما زالَ ما فعلْتَه لا يروقُ لي».

وضعتِ الصحيفةَ من يدِها وذهبَت لتُحضرَ المزيدَ من القهوةِ.

«ما علينا أنْ نفعلَ الآن»؟ قالَ علاءُ الدينِ.

«نفعَل»؟

«معَ ماتس. بعد أن عرفنا أنّهُ اللصُّ».

عبسَتْ أمُّهُ. «نحنُ لا نعرفُ أيَّ شيءٍ من هذا القَبيلِ»، قالَتْ.

«بلى تعرفوُن»، تدخّلَتْ سيمونا التي ما عادت قادرةً على البقاءِ صامتةً أكثرَ مما فعلَت.

وضعَتْ والدةُ علاءِ الدينِ كوبَ القهوةِ من يدِها بعنفٍ.

«لا، لا نعرِفُ»! قالتْ مقاطِعَةً. «جُلّ ما نعرفُهُ هو أنَّ ماتس أخذَ كيسَ الطعامِ عنِ الدّرج. وهذا لا يعني بالضرورةِ أيَّ شَيء.

صحيحٌ أنَّهُ يعرفُ أننا نضَعُ الطعامَ في الخارجِ، وأنَّهُ ليسَ المقصودَ بِهِ؛ من السيئِ جداً أخذُ الطعامِ من شخصٍ يحتاجُ إليهِ أكثرَ بطبيعَةِ الحالِ. أما الذَّهابُ مِن هنا إلى افتراضِ أنَّهُ الشخصُ الذي كانَ يسرقُ من المطبخِ. لا، لا أقبلُ بهذا».

صَمْتٌ.

اختلسَ علاءُ الدينِ نظرةً إلى بيلي وسيمونا، آملاً أن لا تأتيا على ذكرِ زَحْفِ سيمونا حولَ منزلِ ماتس لترى ما إذا كانَ في البيتِ.

«وشيءٌ آخَر»، تابعَت أمُّهُ. «إذا كانَ ماتس هو الذي يسرقُ الطعامَ مِنَ البدايةِ، فمَن هو الصبيُّ ذو السروالِ القصيرِ؟ لماذا كانَ يتسكَّعُ حولَ المكانِ هنا إذا لم يكُنْ يسرقُ الطَّعامَ»؟

«ربَّما يعرفُ ماتس شيئاً عن هذا أيضاً»، اقترحَ علاءُ الدينِ.

«وربَّما لا يعرِفُ. على أيِّ حالٍ، يجدرُ بي أن أتحدَّثَ إلى ماتس، وإنما لا نِيَّةَ لديَّ لاتهامِهِ بالسَّرقةِ من المطعمِ».

طرَفَ علاءُ الدينِ بعينَيهِ. «هل ستفعلينَ حقاً؟ لا يمكنُكِ أن

تتحدَّثي إلى ماتس! ستخبرينَهُ أنّني رأيتُهُ وهو يأخُذُ الكيسَ، أليسَ كذلكَ»؟

«اِهدأ»، قالتْ أمُّهُ. «سأخبرُه أنني أنا التي رأيتُه بينما كنتُ أراقبُ المدخَلَ».

تناولَتْ فنجانَ قهوتِها وذهبَت في اتجاهِ الدَّرَجِ. «عليَّ أن أذهبَ وأرتدي ملابسي. نظِّفوا الطاولةَ عندما تنتَهون، لو سمَحتُم».

عندَ تلكَ النقطةِ تذكَّرَ علاءُ الدينِ أنَّ لديهِ شيئاً آخرَ يريدُ أن يتحدَّثَ عنهُ.

«اِنتظري قليلاً يا أُمي»، قال. «لدينا شيءٌ آخرُ نقولُه لكِ. شيءٌ جَيِّدٌ»!

ارتسمَ التوقُّعُ على وجهِ والدتِهِ؛ إنَّها تحبُّ المفاجآتِ. وأدركَ علاءُ الدينِ أنّ المفاجآتِ أصبَحتْ حدَثاً نادراً في هذهِ الأيامِ.

«قد يرغبُ والدُ سيمونا في شراءِ الطعامِ من مطعمِنا لشركتِهِ»، قالَ.

«حقاً»؟ بدَتْ والدتُهُ مأخوذةً تماماً بالمفاجأةِ.

«الأمرُ ليسَ مؤكّداً بعد، لكنّني سأسألُهُ»، قالَت سيمونا.

«هذا لطفٌ كبيرٌ منكِ. شكراً لكِ»، قالتْ والدةُ علاءِ الدينِ.

لم تبدُ مسرورةً بشكلٍ خاصٍّ؛ ربما اعتقدَتْ أن شيئاً لنْ يأتيَ من ذلكَ حقاً.

شعرَ علاءُ الدينِ بغصّةٍ في حلقِهِ. لو أنَّ والدَ سيمونا يساعدُهم فقط! وإلا فإنَّهُ لا يعرفُ في أيِّ اتجاهٍ يتحركُ.

في المدرسةِ، منحتهُم المعلِّمَةُ مزيداً من الوقتِ للعملِ على مشاريعهِم. شعرَ علاءُ الدينِ بأنَّهُ وصلَ إلى طريقٍ مَسدودٍ. لقد عملَ على مشروعِهِ أسرعَ بكثيرٍ من أقرانهِ في الصّفِ، الذين ظنُّوا على ما يبدو أنَّ الكتابةَ عن الناسِ والأماكنِ في أوهوس هي شيءٌ مُملٌّ. لكنَّ علاءَ الدينِ لم يفكِّرْ بتلكَ الطريقةِ مطلقاً؛ بدا لهُ أنَّ هذا هو أمتَع شيءٍ يفعلُهُ في المدرسةِ على الإطلاقِ. لكنهُ شعرَ الآن كما لو أنَّ الأمرَ انتهى بطريقةٍ أو بأخرى. لقد قرأ كلَّ ما وقعَ تحتَ يدهِ، وتحدّثَ إلى الكاهنِ وإيلا. ولم يبقَ الآن إلا أن يكتشفَ من هو اللصُّ، وأين الفضّةَ. لكنْ، كيف؟

كانَ الشخصُ الوحيدُ الذي لم يتحدَّث إليهِ علاءُ الدينِ بعدُ هو ماتس، ماتس الذي بدا نسخةً عن أورفار، والذي يُخفي طِفلَين في قبوِ بيتِه، والذي يحتاجُ بوضوحٍ إلى طعامٍ إضافيٍّ. شعرَ علاءُ الدينِ بالتوتُّرِ. لو أنَّ ماتس لا يكونُ سيئَ المزاجِ طوالَ الوقتِ!

أصبحَ متأكّداً تقريباً من أنَّ الصبيَّ ذا السروالِ القصيرِ هو الصبيُّ نفسه الذي لمحهُ في قَبو ماتس، تقريباً وليس تماماً. وهناكَ احتمالٌ ضئيلٌ في أن يكونَ ذاك الصبيُّ هو في الواقعِ صبيّ الفضّة الذي أتَت إيلا على ذكرِه.

كانت حقيقةُ عدمِ تركِ الصبيِّ آثارِ أقدامٍ على الثلجِ تقلقُ علاءَ الدينِ، لكنَّه اكتشفَ تفسيراً لذلك عندما قصدوا منزلَ ماتس آخرَ مرةٍ. كانَ الظلامُ يومَها حالكاً والثلجُ يتساقطُ بغزارةٍ بحيثُ يُمكِن أن يُخفيَ آثارَ الأقدامِ سريعاً.

لا أشباح هناك. فكَّرَ علاءُ الدينِ للمرةِ المئةِ. من المؤكدِ أن لا وجودَ لها.

قَرأ ملاحظاتِه من جديدٍ، ثُم اتخذَ قراراً.

سيتصلُ ببيلي عندما يعودُ إلى البيتِ. يجبُ أن يتحدّثا إلى ماتس، ويُفضِّلُ أن يفعلا ذلكَ اليوم. لا يعتزمُ علاءُ الدينِ الاستسلامَ قبلَ أن يعرفَ من هُما الطّفلينِ اللذَين في القَبوِ. كما يريدُ أن يعرفَ لماذا يبدو ماتس شديدَ الشّبهِ بأورفار.

لعلّ ماتس يحتفظُ بالقطعةِ الأخيرةِ من الأُحجيَةِ، التي ستساعِده في العثورِ على الفِضَّةِ المفقودةِ.

٣٦

كانَ الوقتُ متأخراً في المساءِ عندما وصلَتْ بيلي.

«لم تُسرّ ماما كثيراً عندما أخبرتُها بأنني سأعودُ إلى هنَا ثانيةً»، قالتْ. «رأت أنّ عليّ البقاءَ في البيتِ وإنجازَ واجباتي المدرسيةِ، لكنّني أخبرتها أنّ الأمرَ مُهمٌ».

غمرَ علاءَ الدينِ شعورٌ بالامتنانِ الكبيرِ. إنّه لا يُحبُّ التحدُثَ إلى ماتس وحدَهُ. وهذه المرّة عليهما أن يُبقيا سيمونا خارجَ الموضوعِ؛ فهي لنْ تفلحَ في القدومِ إلى أوهوس خلالَ هذه الفترةِ القصيرةِ.

«بالمناسبةِ، طلبَت مني سيمونا أن أخبرَكَ بأنها دردشَتْ مع

والدِها، وبدا أنّهُ يستسيغُ فكرةَ التزوّدِ بالطعامِ لشركتهِ من مطعمِكم. وبمجرّد أن تعرفَ المزيد تُعلِمكَ».

بدا ذلكَ شعاعاً من الضوءِ. ومع ذلكَ، لم يسمَحْ علاءُ الدينِ لنفسهِ بأنْ يتحمَّسَ كثيراً؛ لم يتقررْ شيءٌ بَعد. لكنّهُ ظلَّ مُحتفِظاً بالأملِ.

جلسا على الدَّرجِ المُفضي إلى المطعمِ في الأعلى وانتظرا نزولَ ماتس. وحسبَ الروتين، كان يُفترضُ أن يُنهيَ عملَهُ في السابعةِ. فكّر علاءُ الدينِ في الطّفلينِ في القَبوِ، وتساءلَ عمّا يفعلانهِ طوالَ اليومِ عندما يكونُ ماتس في العملِ، وعمّا إذا كانا، بطبيعة الحالِ، يُقيمان في منزلهِ. مع أنّ هذا ما تبدو عليهِ الحالُ.

لم يكُنْ الدَّرجُ أكثرَ الأماكنِ التي توفّر الراحةَ للجلوسِ والانتظارِ، إلا أنّ البردَ كان شديداً في الخارجِ. ومن وقتٍ لآخر مرّ بهما الزبائنُ وهم في طريقهم إلى الخروج، وكانوا يبتسمون لبيلي وعلاءِ الدينِ، ثم يتابعون طريقَهم مُسرعين. يجبُ أن يكونَ ماتس هنا في أيّ دقيقةٍ الآن.

«هل اتصلَ والدُكِ مرةً أخرى»؟ سألَت بيلي.

«لا. حسناً، ربّما اتصلَ بماما، لكنّني لم أتحدّثْ إليه».

اِنتظَرا وانتظَرا. تململَتْ بيلي في مكانِها بنفادِ صَبرٍ. ليسَ مسموحاً لها أن تبقى طويلاً خارجَ البيتِ في أيامِ المدرسةِ.

«يبدو أنَّهُ يعملُ وقتاً إضافياً»، قال علاءُ الدينِ وهو يُلقي نظرةٍ إلى ساعةِ يدِهِ. كانتْ تشيرِ إلى السابعةِ والربعِ تقريباً.

«أنصعدُ ونطلبُ منه المجيء»؟ اقترحتْ بيلي. «لعلّه يُثرثرُ مع أحدٍ ما هناكَ فقط».

هزَّ علاءُ الدينِ رأسَهُ. من الأفضلِ أن يبقيا حيثُ هما.

وأخيراً جاءَ. ميّزَ علاءُ الدينِ وقعَ خطواتِ ماتس على الفورِ، وقفزَ واقفاً. «هيّا بنا»!

بعدَ ثانيةٍ ظهرَ ماتس، طويلاً وعابسَ الوجهِ. وبدا كما لو أنَّ الحديثَ إلى بيلي وعلاءِ الدين هو آخرُ شَيءٍ يريدُهُ.

«مرحباً»، قالَ علاءُ الدينِ.

«مرحباً»، نخرَ ماتس، وهو يندفعُ مارّاً بهِما.

«اِنتظِر لحظةً! أريدُ أن أتحدّثَ إليكَ»!

توقّفَ ماتس واستدارَ. «عنْ ماذا»؟

لم يستطعْ علاءُ الدينِ أن ينطقَ بكلمةٍ واحدةٍ. وعندئذٍ سمعَ بيلي تقولُ: «نريدُ أن نسألَكَ عن قريبٍ لكَ؛ أو شخصٍ نعتقدُ أنَّهُ من أقربائكَ».

«هو يشبهكَ إلى حدٍّ كبيرٍ»، انضمَّ علاءُ الدينِ إلى الحديثِ.

رفَعَ ماتس حاجبَيهِ. «وأيُّ قريبٍ قد يكونُ هذا»؟ قال، والغضبُ ما زال بادياً عليه.

«أورفار»، قالَ علاءُ الدينِ. «نريدُكَ أن تخبرَنا عن أورفار».

سادَ صمتٌ طويلٌ. جاءَ زبونان جديدان وصعدا إلى المطعمِ، تلمّسا طريقَهما قربَ المجموعةِ الصغيرةِ التي تكادُ تسدُّ الدّرجَ. أدركَ علاءُ الدينِ أن عليهم أن يذهبوا ويتحدّثوا في مكانٍ آخرَ؛ لا يُمكِن أن يظلّوا هنا وهم يسدّون الطريقَ.

«أورفار»؟ قالَ ماتس. «أيُّ أورفار»؟

لم يقُلْ علاءُ الدين وبيلي شيئاً.

«أورفارُ الوحيدُ الذي أعرفُه هو جدّي الكبيرُ»، قالَ ماتس ببُطءٍ. «أهو من تقصِدانِ»؟

إذن، كانَ الأمرُ صحيحاً! وهزَّ علاءُ الدين وبيلي رأسَيهِما.

«حسناً، ماذا تريدانِ أن تعرفا؟ أسرِعا، أنا في عجلةٍ من أمري.
ينبغي أن أعودَ إلى البيتِ»، وطَوى ماتس ذراعَيهِ على صدرِهِ.

«ربّما نذهبُ ونجلسُ في غرفةِ المعيشَةِ»، اقترحَ علاءُ الدينِ.

«غيرُ ممكِنٍ»، قاطعَه ماتس. «نحنُ على ما يُرام هنا».

أطلقَ علاءُ الدينِ تنهيدَةً. «كنا نتساءلُ فقط عمّا إذا كنتَ
تعرفُ شيئاً عن الفضَّةِ المفقودةِ»، قالَ.

اتسعَتْ حدَقتا ماتس قليلاً؛ لقد فاجأهُ علاءُ الدينِ بكلِّ تأكيدٍ.

«لماذا يجبُ أن أعرفَ»؟ قال بغضَبٍ.

«لأنكَ قريبُ أورفار»، غامرَت بيلي بالقولِ.

«أورفار ماتَ منذُ وقتٍ طويلٍ»، قالَ ماتس. «وأنا لم أقابِلْهُ
مُطلقاً، بحقِّ اللهِ! كيفَ لي أن أعرفَ شيئاً عن الفضّة»؟

توقفَ ومرّر يدَهُ على رأسِهِ بقلقٍ؛ وكادا يريان التُّروسَ وهي
تدورُ عملياً في دماغِهِ.

«حدثَ كلُّ شيءٍ قبلَ العديدِ من السنواتِ»، قالَ أخيراً. «ألا
يمكنُ فقط أن تنسوا الأمرَ؟ أنْ تتركوا الماضي حيث هو، ميتاً

ومدفوناً؟ لن يتغيّرَ أيُّ شيءٍ إذا وجدتما الفضّة، أليسَ كذلك»؟

لم يوافقهُ علاءُ الدينِ.

مرّةً أخرى تسلّمت بيلي دفّة الحديثِ. «لكنَّ أورفار هو فردٌ من عائلتِكِ. ألن يكونَ جيداً إذا عُثِرَ على الفضّةِ، حتى يعرفَ الجميعُ أنه ليس مَن سرقها»؟

أحياناً يمكنُ أن يعتريَ الجُبنُ بيلي قليلاً، إنما ليسَ هذهِ المرةَ.

نزلَ ماتس درجَةً. «كما أخبرتكما، أنا مُستعجِلٌ»، قالَ وهو يمُدُّ يدَهُ إلى جيبِه. أخرج قبّعةً صوفيّةً واستدارَ مبتعداً. «يمكنُ أن نناقشَ هذا في يومٍ آخر».

كان علاءُ الدينِ قد نالَ ما يكفي ونفدَ صبرُه. هذا راشِدٌ آخرُ يقولُ له أنهُم يمكنُ أن «يتناقشوا في يومٍ آخر».

«وما سببُ استعجالك هكذا»؟ إنبرى يقولُ. «أهوَ لأنكَ تعرفُ شيئاً عن الفضّةِ ولا تريدُ أن تقولَه لنا»؟

وعندما لم يُجِبْ ماتس، سمعَ علاءُ الدينِ نفسَهُ يقولُ: «أم أنكَ مُستعجلٌ لتعودَ إلى الطفلَينِ في قبوِ بيتكَ»؟

بمُجردِ أن قالَ ما قالَه، ندِم. لماذا قالَ ذلك؟ بدا كما لو أنَّهُ يلمّح إلى أن ماتس يحبِسُ الطِّفلَين في منزلِهِ. إلا أنَّ ما حدَثَ قد حدَثَ.

احمرَّ وجهُ ماتس، وظهر الغضبُ الشديدُ على محيّاه. «ماذا قلتَ»؟ جأرَ. «ليسَ عندي أيُّ أطفالٍ محبوسينَ»!

حاولَ علاءُ الدين وبيلي أن ينكمشا ويتقلّصا إلى أقصى حدٍّ مُمكِنٍ.

«رأيناهما عبرَ نافِذةِ قبوكِ»، همسَ علاءُ الدينِ.

في الحقيقةِ، رأى واحداً من الطِّفلَيْن بعينيه، لكنَّ سيمونا رأتْ اثنين.

هزَّ ماتس رأسَهُ. «عرفتُ أن هذا سيجلبُ ليَ المتاعبَ»، دمدمَ. «نعم، عرفتُ».

تنهَّدَ وأسندَ ظهرَه إلى الحائطِ. ثم استقامَ، كما لو أنَّهُ جاءَ بفِكرةٍ. «حسناً، ستأتيان معي إلى البيتِ»، قالَ بحزمٍ. «اِذهبا وأحضِرا مِعطفَيكما؛ سيارتي في الخارجِ».

تبادلَ علاءُ الدينِ وبيلي النّظرَ. مستحيلٌ أن يذهبا إلى أيِّ مكانٍ مع ماتس، ليسَ وهو غاضبٌ هكذا.

ولكنْ، في تلكَ اللحظةِ ظهرَت والدةُ علاءِ الدينِ على الدّرجِ.

«يا إلهي، ما زلتَ هنا يا ماتس»؟

«كنتُ أدردِشُ فقط مع بيلي وعلاءِ الدينِ»، قالَ. «أودُّ أنْ أصطحبهما إلى منزلي فترةً قصيرةً. إذا رغبا في أن يأتيا بطبيعةِ الحالِ، وإذا كنتِ لا تمانعين. هناك طفلان يُقيمان عندي، وأودّ أن يقابلَهما علاءُ الدينِ وبيلي».

«لا أُمانعُ مُطلقاً»، قالتْ والدةُ علاءِ الدينِ. «لكنَّ ذَهابهما أو عَدمهِ عائدٌ لهما. مَنْ يكونان؟ أعني الطِّفلَين»؟

غصبَ ماتس نفسه على الابتسام. «يمكن القولُ أنهما طِفلا أصدقاءٍ لي».

وحسمَ ذلكَ الأمورَ. في أقلِّ من ثانيتَين اتخذَ بيلي وعلاءُ الدينِ قرارَهما. إذا أبدَى ماتس استعداده للتحدّث علناً عنِ الطِّفلَين، فقد لا يكون الموضوعُ بجملتهِ غامِضاً في نهايةِ المطافِ. سيقابلان

الطّفلَين اللذين لمحاهما في القبو. وربّما يعرفان المزيدَ عن أورفار والفضّةِ في الوقتِ نفسِهِ.

٢٧

قادَ ماتس السيارةَ ببطءٍ في شوارعِ البلدةِ، ماراً بمنزلٍ تلو آخر والضوءُ يشعّ من النوافذِ. كانَ الظلامُ حالكاً كأنهم في منتصفُ الليلِ. وظهَرَ ضوءُ مصابيحِ الشارعِ مُتردداً بينَ الثلوجِ الكثيفةِ.

جلسَ علاءُ الدينِ وبيلي بصمتٍ في مِقعدِ السيارَةِ الخلفي. لو أنَّ هناكَ شخصاً راشداً آخرَ في السيارةِ فقط! إنَّ ماتس رجل حادُّ الطِّباعِ جداً. ماذا لو تبيّن أنّهُ خطيرٌ بعدَ كلِّ شَيءٍ؟ ماذا لو حبسَهُما في القَبوِ؟

كمْ من الوقتِ سيمرُّ قبلَ أنْ تبدأ ماما بالتساؤلِ عن مكانِنا؟ فكَّرَ علاءُ الدينِ في سرِّه.

عندما انعطفَت السيارة نحو الموقف أمامَ منزلِ ماتس، تسارعَ نبضُهُ، وما عادَ قادراً على أن يبقى هادئاً أكثرَ مما فعلَ.

«مَن هما»؟ قالَ وهو يحلّ رباط حزامَ الأمانِ. «أعني الطفلَين؛ مَن هما»؟

«لن تلبثا أن تريا»، أجاب ماتس باقتضابٍ وهو يترجّلُ من السيارةِ.

تبعَهُ علاءُ الدينِ وبيلي إلى البابِ الأماميّ؛ فتحَ البابَ وأدخلَهُما. أضاءَ مصباحَ الرّدهَةِ وخلَعَ حذاءَهُ.

«مرحباً»! هتفَ ماتس. «أنا في المنزلِ، لقد عُدتُ»!

سارَ في البيتِ، وأضاءَ المزيدَ من المصابيحِ في طريقهِ. ولم يصدُرْ أيٌّ صوتٍ؛ لم يُجِبْ أحدٌ على ندائِه. كانَ علاءُ الدينِ وبيلي ما يزالان يقفان في المدخلِ، حائرَين.

«أقبِلا»، قال ماتس. «يستغرقُ الأمرُ فترةً عادةً قبلَ أن يخرُجا».

«لماذا»؟ استفسرَ علاءُ الدين. «أهُما مُختبِئان»؟

هزَّ ماتس رأسَهُ. ولاح عليه الحزنُ. «هذه هي الحقيقةُ بالفعلِ. إنهما لا يُحسنانِ السُّويديّة. ولا الإنجليزية. وغالباً ما نتواصلُ بما يشبهُ لُغةَ الإشارةِ».

صرّت الأرضيةُ تحتَ الأقدامِ عندما تبِعَ علاءُ الدينِ وبيلي ماتس إلى غرفةِ المَعيشةِ.

لوّح بيدِهِ ناحيةَ الأريكةِ. «تفضّلا بالجلوسِ»، قالَ. «هل أحضِرُ لكما شيئاً؟ ربّما كأسَ عَصيرٍ»؟

هزّا رأسيَهما. ووجدا الأريكةَ ليّنَةً عندما جلسَا؛ وعبقَتْ في الغرفةِ رائحَةٌ تُرابيّة، كما لو أنها تحتاجُ إلى بعضِ الهواءِ النقيّ.

نظرَ علاءُ الدينِ إلى التلفزيون الهائلِ الذي رآهُ سابقاً من النافذةِ.

«أتشاهدُ الكثيرَ من الأفلامِ»؟ سألَ.

بشّ وجهُ ماتس قليلاً. «نعمْ؛ كلَّ ليلَةٍ تقريباً. أنا أحبُّ الأفلامَ مثلما تُحِبُّ أنتَ نماذجَ طائراتِكَ الصغيرةِ، كما أعتقدُ».

لم تكنْ لدى علاءِ الدينِ فكرةٌ عن عِلمِ ماتس بأمرِ طائراتِهِ الصغيرةِ.

جلسَ ماتس في مقعَدٍ ذي مسندَين قبالتهِما. «حسناً، أريدُ أنْ أعرِفَ لماذا تتسلّلون إلى منزلي وتسترقون النظرَ عبرَ نوافذي»، قالَ.

تحركَ علاءُ الدينِ في مكانِهِ باضطرابٍ. «أردْنا أن نعرفَ ما إذا كنتَ أنتَ من يسرقُ الطعامَ منَ المطعمِ»، قالَ أخيراً. «أمي وأبي يعانيان من مشاكلَ ماليةٍ في هذهِ الأوقاتِ، وأردْنا أن نتعقَّبَ اللصَّ».

«إذن، صديقتُكُم هي التي كانتْ خلف المنزلِ عندما عدتُ من السوقِ في الأسبوعِ الماضي»؟ قالَ ماتس.

احمرَّ وجها علاءِ الدينِ وبيلي.

«آه، نعم»، ردّ علاءُ الدين متلَعثِماً، ثُمَّ لمَّ شتاتَ نفسِهِ. «لكنكَ كذبتَ على أبي. قلتَ لهُ أنكَ ستزورُ والدتَك، وذلك لم يكُن صحيحاً. بقيتَ هنا طوالَ الوقت».

«ولذلكَ افترضتُم أنني اللصُّ».

«نعم»، أجابت بيلي، وهزَّ علاءُ الدينِ رأسَهُ موافِقاً.

نظرَ ماتس إليهما وضحِك. «حسناً، لم يكُن ذلكَ تخميناً سيئاً»،

قالَ بضجَرٍ، «لأنكم كنتُم مُحِقّينَ فعلاً. أنا أخذتُ كلَّ الطعامِ، إنما ليس لي بل للطّفلين. وكذلك للآخرين الذين ما زالوا في مركبِ اللاجئين».

حدّق علاءُ الدينِ وبيلي فيهِ فقط. إذن، كانَ ماتس الفاعِل طوال الوقتِ!

في تلكَ اللحظةِ، سمعوا وقع خُطواتٍ على الدرجِ، وأطلَّ طفلان من البابِ: بنتٌ ترتدي تنُّورةً، وولدٌ بسروالٍ قصيرٍ.

«أقْبِلا»، قال ماتس وهو يلوِّحُ لهُما بيدِهِ. «علينا أن نُسوّي هذا الأمرَ».

٢٨

كان اسم الطّفلَين نادية وبنيامين. وقد قدِما من مسافةٍ بعيدةٍ جداً وسافرا مدّةً طويلةً. ووجدَ علاءُ الدين صعوبة في متابعةِ الحكايةِ بينما أخذَ ماتس يَرويها لهما. ومعَ ذلكَ، فهِمَ أنهما وصلا أخيراً إلى أوهوس في مركبِ اللاجئين، وأنهما قد أتيا من الشرقِ.

«التقيتُ بوالدَي نادية وبنيامين عن طريق صديقٍ مَوضِع ثقةٍ. وسألاني إن كان يمكنُ أن يبقَى الطّفلان عندي رَيثما يحاولان العثورَ على حلٍّ أفضلَ، على أمل أن يستطيعوا الاستقرارَ هنا في السويدِ ويعيشوا معاً».

«قلتَ أنّهُما مختبِئان»، قالَ علاءُ الدينِ.

«هَذا صحيحٌ»، شرحَ ماتس. «والداهُما يطلبانِ اللجوءَ إلى السويد؛ وأعداؤهما كثرٌ هناك في وطنِهما، بل حتّى يخشيان أن يلاحِقَهما أولئكَ الأعداءُ هنا. ولِيطمئِنا على سلامةِ طفليهما يجب أن يبقى الطّفلان في مكانٍ خَفي. الأمرُ مُعقَّدٌ، لأنه لا ينبغي أن يكونا في حاجةٍ إلى الاختباءِ من الأساسِ. سيكونُ كلُّ شيءٍ على ما يُرام إذا سُمح للعائلةِ بالبقاءِ في أوهوس، أو في أيِّ مكانٍ آخرَ يعيشونَ فيهِ بأمانٍ».

تنهَّدَ ماتس وحكَّ رأسَهُ. «آملُ حقاً أن يستطيعوا البقاءَ هُنا، فأنا بخلافِ ذلك لا أدري ما قد يحدثُ لهم».

لم يظهَرْ أنَّ الطِّفلينِ يفهَمان الكثيرَ ممّا يُقالُ، واكتفيا بالجلوسِ أرضاً وهما يحدِّقان في ماتس. وحاولَ علاءُ الدينِ أن يستوعبَ ما يقولُه ماتس: لوالدَي الطّفلينِ أعداءٌ في وطنِهما الأمّ، ولذلك لا بدّ من أن يُسمحَ للعائلة بالبقاءِ في السويدِ. والوالِدان خائِفان من احتمالِ أن يأتِي بعضُ هؤلاءِ الأعداءِ إلى هنا للبحثِ عنهُما. لم يمرّ علاءُ الدين ووالداه بمشاكلَ من هذا النوعِ على الإطلاقِ. ليسَ بقدرِ ما يعرفُ، على أيِّ حالٍ.

كانَ مُزعِجاً أنَّ بيلي وعلاءَ الدين لَم يستطِيعا التحدّثَ إلى الطّفلين، إذنْ لأصبحتِ الأمورُ أسهلَ كثيراً عندئذٍ، أسهلَ وأكثرَ طرافةً. لكنّهما إذا بقِيا في أوهوس، فقد ينتهي بهما المطافُ في مدرسةِ علاءِ الدين نفسها. وقد أمِلَ أن يحدُثَ ذلكَ؛ وأن تصبحَ نادية وبنيامين أصدقاءَه في يومٍ ما.

لم يكن قادراً على إبعادِ نظرِه عن بنيامين. فهو يشبِهُ كثيراً الصبيَّ صاحبَ السّروالِ القصيرِ!

«أرى أنكَ تمعنُ النظرَ في بنيامين»، قال ماتس. «أتعرفُه»؟

«ربّما»، تمتمَ علاءُ الدينِ.

«إنَّهُ يتجوّلُ حولَ بُرجِكم من وقتٍ لآخرَ»، قال ماتس. «يُحبُّ أن ينتظرَني رَيثما أُنهي عَملي. حاولتُ أن أُفهِمَهُ أنَّ من الأفضلِ ألاّ يغادرَ البيتَ، لكنَّه بالطبع لا يريدُ أن يبقى قابِعاً في الداخلِ يوماً بعدَ آخرَ.

«أعِنده ثيابُ أخرى غيرَ ما يرتديه»؟ سأل علاءُ الدينِ بتردُّدٍ.

«طبعاً»! أجاب ماتس وقد بان عليه الغضبُ من جديدٍ.

«الأمرُ فقط هوَ أنني رأيتُ صبياً يشبهُه»، قالَ علاءُ الدينِ

على عَجَلٍ. «رأيتُهُ في قبوِنا مرةً، وكان يلبسُ سترةً وسروالاً قصيراً».

عبَس ماتس. «ربّما كانَ هو... حاولتُ أن أشرحَ له أنَّ الجوَّ باردٌ كثيراً بحيثُ لا يجوزُ الخروجُ فيه بالبنطلون القصيرِ، لكنهُ يلبسُ جواربَ سميكةً، وبنطلونه يصِلُ إلى ما تحتَ ركبتَيه تقريباً. ولأكونَ صادقاً، لا أعرفُ ماذا يلبسُ عندما أكونُ في العملِ. لعلّه من الأشخاصِ الذين لا يؤثر البردُ فيهم».

مرةً أخرى تمنى علاءُ الدين لو أنه يستطيع التحدّثَ إلى الصبيِّ؛ كان ذلك سيسهّلُ الأمورَ كثيراً.

«وإذن، لماذا كنتَ تأخذُ الطعامَ»؟ سألَ بدلاً من ذلكَ. «لو طلبْتَه فقط، لما توانى والداي عن إعطائِك ما تريد».

ارتسمَ تعبيرٌ غريبٌ على وجهِ ماتس. «لم أُرد في الواقعِ أنْ أخبِرَ أحداً عن ضيوفِ منزلِي»، قال. «كان ذاك سيؤدي إلى طرحِ أسئلةٍ كثيرةٍ. وقد سبقَ أن قال لي والِدا الطّفلين أن نادية وبنيامين لن يبقيا معي إذا أخبرتُ أحداً عنهما».

«لكنكَ قلتَ أنكَ أعطيتَ بعضَ الطعامِ للناسِ في المركبِ أيضاً. كان أبي وأمي ليسعدا بذلِكَ. فبعدَ كلِّ شَيءٍ، هذا هو سببُ وضعِنا

كيساً من المؤَن في الخارجِ كلَّ ليلَةٍ».

تنهَّدَ ماتس. «أعرفُ. أعرفُ ذلكَ حقاً. لكنني كنتُ خائفاً جدّاً من أن يشرعَ الناسُ في الثرثرةِ عن سببِ مُساعدتي لِلاجئين. لقد ارتكبتُ خطأً كبيراً. و... صِدقاً أنا لم أكُن أعرف أنّ والدَيك يُواجهان مشاكلَ ماليةً. تهيأ لي أن أحَوالهما المادّية على ما يرامُ، بعكسي. سأخبرُ أمّكَ بكلِّ شيءٍ غداً. وسأكونُ مُمتناً إذا أبقيتَ الأمرَ بيننا حتى ذلكَ الحينِ؛ أُفضِّلُ أن تسمعَهُ منّي».

هزَّ علاءُ الدينِ رأسَهُ موافقاً. «لكنّها تعرفُ مُسبقاً أنكَ أخذتَ أحد أكياسِ الطعامِ».

«ذكَّرَتْ لي هذا اليومِ، ولم يُتح لنا الوقتُ لنتحدّثَ عن الأمرِ»، قالَ ماتس. «أعِدُكَ بأن أشرحَ كلَّ شيءٍ غداً».

نظرَ في ساعتِه. «يجبُ أن أبدأ في إعدادِ العشاءِ، وأخشى أن عليكُما أن تغادرا إلى البيتِ الآن».

خابَ أملُ علاءِ الدينِ. لقد عرف هو وبيلي حكايةَ الطّفلينِ، ولماذا يختفي الطعامُ. أما الفضّة... فلماذا ما زال اكتشافُ ما حلّ بها عسيراً؟

ولم يستطعْ سوى أن يسألَ مرةً أخرى. «الفضّةُ المفقودةُ... ألا تعرفُ مَنْ أخذَها»؟

في البدايةِ بدا ماتس متضايقاً، وهذا جعل علاء الدينِ يتمنّى لو أنّهُ لم يقُلْ شيئاً، لكنّ ملامحَ وجهِهِ ما لبثَت انبسطَت. وجلسَ هناكَ يفكّرُ مدةً طويلةً بما سيقولُ.

«حسناً»، قالَ أخيراً بصوتٍ بالغ الهدوء بحيث اضطرّ علاء الدين وبيلي إلى الانحناء نحوهُ ليسمعاه جيداً.

«لقد أخبرتكما بكلّ شيءٍ آخَر، ولذلك يمكنُ أنْ تسمعا هذا أيضاً».

حكّ لحيتَهُ وحدّقَ بعيداً. وانتظرَ علاءُ الدينِ وبيلي، مشدودَين مثلَ أوتارِ الكمانِ.

«أنا متأكّدٌ من أنكُما مطّلعان على القصةِ»، تابعَ ماتس الحديثَ، «وإلا لما كنتُما هنا. أنتُما تعرفان أنّ الجميعَ اعتقدوا أن أورفار، جدّي الأكبر، هو الذي استولى على الفضّة لينتقمَ من الصائغِ، لأنه استأثرَ بالفتاة التي أحبّاها معاً».

هزّ علاءُ الدينِ وبيلي رأسيهِما بتَوقٍ.

«لا أملكُ الكثيرَ لأضيفَهُ في الحقيقةِ. لقد ظلّ هذا مصدرَ عارٍ جسيمٍ لعائلتي كلِّها، كما يمكنُ أن تتخيّلا؛ أعني فكرةَ أنّ أحدَ أجدادِي كانَ لصّاً. وأفترضُ أنّ هذا هو السببُ في أننا لم نقُل أيَّ شيءٍ عن الفضّة أبداً. ولكنْ، يبدو أنّه لا مهربَ من الحقيقةِ: لقد أخذَ أورفار الفضّةَ فعلاً».

فغر علاءُ الدين وبيلي فمَيهما. لأولِ مرةٍ أصبحا متأكّدَين: أورفار هو اللصُّ، وليسَ صانعَ الفضّةِ.

«حقاً»؟ همسَت بيلي.

«كيفَ عرفتَ؟» سأله علاءُ الدينِ. كان متحمّساً جدّاً بحيث عجزَ عن الجلوسِ ساكناً.

«عندما ماتَ أورفار، تركَ وصيّةً»، أوضحَ ماتس. «وهي أقربُ إلى رسالةٍ كتَبَ فيها ما يجبُ أن يحدُثَ لمُمتلكاتهِ بعدَ وفاتِه. وفي تلك الرسالة نفسها اعترفَ بأنّه السارقُ، وقال أنه قضَى ما يزيدُ عن نصفِ حياته وهو نادمٌ على ما فعلَه».

«ولكنْ، لماذا لم يقُمْ بإعادةِ الفضّة فقط»؟ استفهمَ علاءُ الدينِ.

«لم يستطِعْ. كانَ في مُنتهى الخجلِ من نفسهِ. وقالَ في وصيتهِ

إنه يأملُ في أن يساعدَه شخصٌ آخرُ في إعادةِ الفضّة، لأنهُ أجبَنُ من أن يفعلَ ذلكَ بنفسِهِ».

خفقَ قلبُ علاءِ الدينِ. «هل ذكرَ أينَ خبأ الفضّةَ»؟

تنهَّد ماتس من جديدٍ. «أخشى أنَّهُ لم يفعَلْ. اِنتظِرا، سأريكُما الوصيَّةَ. لديَّ نُسخَةٌ في مِلَفٍّ هنا في مكانٍ ما».

غادرَ الغرفةَ، وسُرعانَ ما عاد بقطعةِ ورقٍ قديمةٍ مُصفرّةٍ. كانتْ نسخةً بائسةً، وإنما ما زالت قراءةُ ما وردَ فيها ممكنةً.

بينما انحنى علاءُ الدينِ وبيلي على الوثيقةِ، لاحظَ أن بنيامين ونادية يُراقبانهما بفضولٍ وتساؤلٍ. وأملَ في أن يتمكّنَ من شرحِ كلِّ شيءٍ لهما في يومٍ ما، بعد أن يكونا قد أقاما في أوهوس مدةً كافيةً ليتعلّما اللغة السُّويديّة.

حُشِدت الوصيةُ بكلمات قديمة؛ وبدَت المصطلحاتُ في بعضِ الفقراتِ غريبةً جداً حتى كانَ مِنَ الصَّعبِ فَهمُ معناها. لكنَّ علاءَ الدينِ وصلَ فجأةً إلى جُملةٍ صدمتْهُ.

أوريون يَسهرُ على حِراسَةِ الفضَّةِ، قالتْ الجملةُ.

«ماذا يعني هذا»؟ سألَ ماتس وهو يشيرُ إلى الكلماتِ.

«أوريون هو أحدُ الأبراجِ، مجموعةٌ من النجومِ»، قالَ ماتس. «افترَضَتْ عائلتُه أنهُ يعني أنَّهُ تركَ الفضّةَ مُلقاةً في العراءِ، تحتَ سماءِ الليلِ، حتى تصبحَ في متناولِ أيِّ شخصٍ».

شعرَ علاءُ الدين بأنَّهُ أصبحَ فارغاً تماماً. لقد انتهى الأمرُ. يمكنُ أن يكونَ مَن أخذَ الفضّة أي مخلوقٍ، أخذَها وتكتّمَ عليها. بلْ ربَّما رحلَ عنِ القريةِ أيضاً. لقد حانَ الوقتُ للقُبولِ بالمحتومِ؛ لن يعثروا عليها أبداً. ولم يتذكّرْ آخرَ مرةٍ شعرَ فيها بمثلِ هذا الإحباطِ وخيبةِ الأملِ.

«أنا آسفٌ حقاً»، قال ماتس. «أتمنى لو أزوّدكما بتفاصيلَ أفضلُ، وإنّما ليسَ لديَّ شيء منها. والآن حانَ الوقتُ فعلاً لِتعودا إلى البيتِ؛ ففي انتظاري ألفُ مهمّة تحتاجُ إلى الإنجازِ».

استعادَ الوصيةَ وقادَ الطريقَ إلى البابِ الأماميِّ، وتبعَتهُ بيلي وعلاءُ الدينِ؛ لوَّحتْ بيلي بيدِها للأخوين تلويحة صغيرةً وهي تغادِر. كانا جالسين على الأرضيةِ يتهامسان. ابتسمَت نادية، وهي أيضًا لوّحت بيدها لبيلي. ونظرَ علاءُ الدينِ إلى بنيامين.

«بالمناسبةِ، هل تعرفُ مَن هو صبيُّ الفضّةِ»؟ قالَ.

«هذه مجرّدُ حكايةٍ عن شبحٍ؛ إنها هُراء». قالَ ماتس باقتضابٍ.

«إذنْ أنتَ لا تعتقدُ أنّهُ ابنُ أورفار، وأنّهُ ما زال يبحَثُ عن الفضّةِ»؟

«أنا لا أؤمن بالأشباحِ. ومن ناحيةٍ أخرى، لا أؤمنُ بالتعويضِ عن الأشياءِ، بشكلٍ ما. لقد أخطأ أورفار عِندما سرقَ الفضّةَ، ولذلكَ يحاولُ أعضاءُ العائلةِ الذين ما زالوا في الجوارِ أن يفعلوا شيئاً جيداً. وهذا على سبيلِ المثال سببُ مُساعدتي نادية وبنيامين. ولو بذلَ الجميعُ بعضَ الجهدِ الإضافيّ، فستتحسنُ أمورٌ كثيرةٌ»، قالَ.

كانَ الثلجُ قد عادَ يتساقطُ من جديدٍ عندما غادرَ علاءُ الدين وبيلي بيتَ ماتس.

أوريون يسهَرُ على حِراسةِ الفضّة.

عضّ علاءُ الدينِ شفتَهُ. هناكَ شيءٌ يتعلّق باسمِ أوريون دقّ جرساً فيه، بيد أنه لم يتذكّر أينَ سمِعَهُ من قبل.

«لا أعتقدُ أننا سنجدُ الفضّة»، قالت بيلي.

«لا، لا أعتقدُ أننا سنفعلُ»، وافقها علاءُ الدينِ.

سارا عبرَ الثلجِ المتساقِطِ بصَمتٍ. عادتْ بيلي إلى منزِلِها، وتابعَ علاءُ الدينِ طريقَهُ نحو البُرجِ. وطوالَ الوقت لم يتوقّف عن التفكيرِ في أوريون. أينَ سمعَ هذا الاسمَ من قبل؟

٣٩

كان الوقتُ متأخراً عندما جاءتْ والدةُ علاءِ الدينِ لتتمنّى له ليلةً هانئةً؛ وقد عمِلَتْ طوالَ النهارِ بجِدٍّ.

«لا تقرأْ لمدةٍ طويلةٍ يا حبيبي»، قالتْ لَه.

لكنَّ علاءَ الدينِ لم يكُنْ يقرأ؛ وإنما استلقى هناكَ يفكِّرُ فقط؛ وحلّقت الأفكارُ مدوِّمَةً في رأسِهِ كأنها طيور. فكَّرَ في الطفلَين اللذين التقَى بهما من غيرِ أن يستطيع محادثتهما. وفكَّر في ماتس، الذي يحاولُ أن يفعلَ خيراً لأنَّ جدّهُ الأكبر ارتكب في يومٍ جنايةً سيئةً.

لم يعرفْ علاءُ الدينِ لماذا، لكنّهُ كان قد أمِلَ في أنْ لا يكونَ

أورفار هوَ اللصُّ، في أن يتبيّن أنَّ السارقَ شخصٌ مختلفٌ. وأكثر من أيِّ شيءٍ، أمِلَ في أن يعثروا على الفضّةِ. بسُرعةٍ وسُهولَةٍ. إلا أن ذلك بدا أنّه لن يحدُثَ. لقد ضاعَتِ الفضّةُ.

أوريون يسهَرُ على حراسَةِ الفضّة.

تقلّبَ علاءُ الدينِ في سريرِهِ وتلوّى. يعرفُ أنهُ سمعَ أو رأى اسمَ أوريون من قبل؛ إنما أينَ؟ أكان الكاهنُ هو من أتى على ذكرِ أوريون؟ أو ربّما إيلا؟

فكّرَ وفكّر، بلا طائلٍ، مهما حاولَ، لم تُسعفه الذاكرة.

تحولّت أفكارُه إلى ما قالَه والدُهُ على الهاتفِ: يتحدّثون عندما يعودُ إلى البيتِ. بدا كما لو أنَّ والدَهُ قد اتخذَ قرارَهُ مُسبقاً، لكنّه لن يفعلَ ذلكَ، أيمكِنُ أن يفعلَ؟ إنّهُم عائلةٌ. هذا ما تقولُه ماما وبابا على الدوامِ: أنَّ كلَّ فردٍ في العائلةِ مُهِمٌّ ورأيُهُ مُهِمٌّ.

كوّرَ علاءُ الدينِ قبضتَيهِ وهو يغلي منَ الغضبِ. إذا قرّر والداه الانتقالَ إلى تركيا، في وسعِهما أن يذهبا وحدَهما. أما علاءُ الدينِ، فلا يَنوي مُرافقتهما.

أيقظَهُ رنينُ الهاتفِ في الصباحِ التالي. قعدَ في سريره نصفَ

نائمٍ. من يتصلُ في مثلِ هذهِ الساعةِ؟ فالوقت لم يكن قد بلغَ السابعةَ بعدُ!

نهضَ من السريرِ وكادَ يُسقطُ إحدى طائراتهِ الصغيرةِ أرضاً. وبأصابعَ خرقاءَ حملَ هاتفَهُ.

«مرحباً»؟

سمِعَ صوتَ سيمونا تضحكُ.

«مرحباً بكَ أنتَ! هل استيقظتَ الآن»؟

«لا... نعَم... رُبَّما».

منَ المُعتادِ أن تتصلَ سيمونا مُبكِّراً هكذا، مفترضةً أنَّ الجميعَ قد استيقظوا وصحوا جيداً.

«تحدثتُ توّاً مع بيلي»، قالتْ. «وروَت لي ما جَرى معكُما يومَ أمس».

بيلي؟ أهي مُستيقظةٌ في هذا الوقتِ المبكرِ من الصباحِ أيضاً؟

لاقى علاء الدين، وهو واقفٌ هناك بمنامتهِ، صعوبةً في تذكّرِ أيِّ شيءٍ.

«مؤسِفٌ أنكُم ما زلتم تجهلون مكانَ الفضّةِ»، أردفَتْ سيمونا.

«نعم» تمتمَ علاءُ الدينِ. «إنَّ الأمرَ كذلك».

مضَى إلى النافذة وأزاحَ الستارةِ. كان الظلامُ ما زال مخيِّماً في الخارجِ. ثم سمعَ وقعَ خُطُواتٍ على الدّرجِ. إنها ماما بطبيعةِ الحالِ.

دقَّت بابَه. «علاء الدينِ»؟ هتفَت. «أنتَ مُستيقظٌ»؟

«أنا أتحدّث بالهاتفِ»، قالَ. «أوافيكِ خلالَ دقيقةٍ»!

جلسَ على مكتبهِ. «لا وقتَ لدي الآن للكلامِ»، قال لسيمونا. «ألديكِ شيءٌ محدّد»؟

«أردتُ فقط أن أخبرك بأنني تحدثتُ إلى أبي»، أجابتْ. «سيتصِلُ بوالدَيك غداً. كان قد تناولَ الطعامَ في مطعمِ التركيِّ في البرجِ عدَّةَ مراتٍ، وهو يحِبُّ طعامَكُم. ولذلك ربما تسيرُ الأمور سيراً حسناً»!

شعرَ علاءُ الدينِ بارتياحٍ عظيمٍ حتى كاد يُطلِقُ صيحةَ فرحٍ، بيد أنّه اكتفى بالابتسام. «رائعٌ! سأُخبِرُ ماما».

لم يعُد في حاجةٍ إلى الفضّةِ بعدَ الآن! هذا أفضلُ بكثيرٍ!

«حسناً، واتصِلْ بي إذا اكتشفتَ شيئاً جديداً عن الفضّةِ»، قالت سيمونا.

وعدَها علاءُ الدينِ بأن يفعل، ثم وضعَ الهاتفَ جانباً واندفعَ صاعِداً السلالمِ إلى المطبخِ، حيثُ كانتْ والدتُهُ منهمكةً في تحضيرِ مائدةِ الإفطارِ.

«كانت هذه سيمونا على الهاتفِ»، قالَ. «والدُها سيتصِلُ غداً»، وأخبرَها بسرعةٍ ما قالتْهُ سيمونا. وعندما انتهى، ابتسمتْ أمُّهُ وقرصَتْ خدَّهُ.

«ما أروعَ أصدقاءَك»، قالتْ. إلا أنها لم تبدُ سعيدةً بالقدرِ الذي توقَّعَهُ.

رأى ألبومَ صُورٍ على طاولةِ المطبخِ؛ وكانَ علاءُ الدين يعرفُ جيداً ما فيهِ. ألبومٌ مكتظٌّ بصُورِهِ وهوَ طفلٌ صغيرٌ، عندما كانوا قد وصلوا حديثاً إلى أوهوس.

«كنتُ أتفرّج عليه بالأمسِ»، قالتْ والدتُهُ.

كانَ علاءُ الدين قد شاهدَ الصُّورَ مئاتِ المراتِ. ووالدتُه تقولُ دائماً أنهُ من المُهمِ أن يعرفَ المرءُ جذورَهُ. ويعني ذلكَ أن يعرفَ مِن أين أتى وكيفَ أصبحَ الشّخصَ الذي هوَ علَيه.

ولكنْ، في ذلكَ الصباحِ المُعين، لم تكنْ لدى علاءِ الدينِ بالتأكيدِ

أيُّ رغبةٍ في تأمّل الصورِ القديمةِ.

«ألا تعتقدينَ أنَّ اهتمامَ والدِ سيمونا بطعامِنا شيءٌ رائعٌ»؟ قالَ بإلحاحٍ. «ربّما تُقدِّمُ شركتُهُ عرضاً كبيراً حقاً».

لم تقلْ والدتُهُ أيَّ شيءٍ، وإنّما حدّقتْ فقط في الألبومِ. ثم جلسَتْ مقابلَ علاءِ الدينِ.

«بالطبعِ»، أجابَت. «ولكنْ... تحدثتُ إلى والدِكَ بالهاتفِ أمس. تحدثنا لعقودٍ. ويجبُ أن أعترفَ بأنني بدأتُ أحِبُّ فكرةَ العودةِ إلى تركيا».

حدّق فيها علاءُ الدينِ بلا كلامٍ.

«أعرفُ أن ذلكَ سيكونُ صعباً على ثلاثتِنا بطريقةٍ ما»، أردفَت. «فنحن رحلنا عن تركيا منذ ما يربو على عشر سنوات. مع ذلك، تاق جزءٌ مني دائماً إلى العودة. وحالياً أصبحَتْ تركيا وُجهةَ عُطلاتٍ شعبيةٍ للسُّويديين. الناسُ هنا يأتون على ذكر تركيا طوال الوقتِ. يمكنُ أن نعيشَ حياةً لطيفةً هناكَ عند الشاطئ. فكِّر فقط، لا مزيدَ من الثلجِ»! ثُمَّ ضحكَتْ وأشارتْ إلى النافذةِ. «فكِّرْ فقط»، قالتْ مرةً أخرى. «لا مزيدَ منَ الثلجِ الفظيعِ والبردِ! ألا

يبدو هذا رائعاً»؟

استعادَ علاءُ الدينِ قدرتَهُ على الكلامِ على الأقلِّ. «لا»! صرخَ. «لا»!

فجأةً احتدمَ فيه الغضب وجعله يقفز عن مِقعدِهِ. كلُّ ما تراكمَ داخلَه من غضبٍ وإحباطٍ انفجر فجأةً دفعةً واحدةً.

«لا! مستحيلٌ أن أنتقلَ إلى تركيا! إذا ذهبتُما، فعليكما أن تفعلا ذلكَ وحدكُما! أنا باقٍ هنا في أوهوس.

وقبلَ أن يتيحَ لأمّه الفرصةَ لتتكلمَ، اندفعَ خارجاً ونزلَ إلى غرفتهِ. سمعَ في طريقه الهاتفَ يرنّ في الأعلى؛ جيّد. هذا يعني أنها لن تأتيَ في إثرهِ. ارتدى ملابسَهُ بسرعةٍ واندفعَ إلى الحمّامِ لتنظيفِ أسنانِهِ. ثم ارتدى سترتَه وانتعلَ حذاءَه وانطلقَ مسرعاً عبرَ الثلجِ كالمجنونِ، وقطعَ المسافةَ كلّها جرياً إلى منزلِ بيلي.

طرقَ البابَ بقوّةٍ وهو يلهثُ وينضحُ عرقاً. فتحَ له البابَ جوزيف، صديقُ والدةِ بيلي.

«أينَ الحريقُ»؟ هتفَ. «ظننتُ أنكَ ستكسِرُ البابَ»!

«بيلي في البيتِ»؟ سأله علاءُ الدينِ بأنفاسٍ متقطّعةٍ.

ظهرَتْ بيلي إلى جانبِ جوزيف؛ واتسعَت عَيناها عندما رأت حَالة علاء الدين. «ماذا حدثَ»؟ قالتْ.

«ماما تقولُ إننا راحِلون»، أجاب علاءُ الدينِ. «أيمكنُ أن آتيَ وأعيشَ معكُم»؟

دعَت والدةُ بيلي علاءَ الدينِ إلى البقاءِ معهُم على الإفطارِ. وأعلَمته أنهم لا يملكون متسعاً من الوقتِ لأن على بيلي أن تستقلَّ الحافلةِ إلى كريستيانستاد.

«يمكنه أن يأتيَ ويعيشَ معنا، أليسَ كذلك»؟ قالتْ بيلي.

حدَّقتْ والدتُها في علاءِ الدينِ. «طبعاً، لكن، ماذا تظنينَ أنَّ والدَيهِ سيقولان»؟

«لا يهمُّني ذلِك»، قالت بيلي مُعترِضَةً.

انحنَت والدةُ بيلي على طاولةِ المطبخِ نحوَ علاءِ الدينِ.

«ماذا قالتْ أمُّكَ بالضبطِ»؟ سألَتْ.

وضعَ علاءُ الدينِ شطيرَتَهُ مِن يدِهِ. تذكَّرَ عمَلياً ما قالتهُ والدتُهُ كلمةً بكلمةٍ عنِ الثلجِ والشَمسِ المُشرقَة، وكم سيكونُ كلُّ شيءٍ

رائعاً في تركيا.

هزّتْ والدةُ بيلي رأسَها ببُطء. «أعتقِدُ أنكَ تبالغُ. لا يبدو لي أنَّ أيَّ قرارٍ قد اتُخِذَ بَعد؛ أعتقدُ أنها تدرُسُ الفكرةَ فقط. وهذا لا بأسَ به. أليسَ كذلك»؟

«لا»، قالَ علاءُ الدينِ. «يجبُ أن يشاوراني أيضاً».

«أنتَ على حقّ، وهذا بالضبطِ ما فعلاه. هذا الصباح، على سبيلِ المثالِ».

جلسَ جوزيف إلى المائدةِ وفنجانُ قهوتِهِ في يدِهِ.

«لا بدَّ من أنَّ الأمرَ صعبٌ على والدَيك»، قالَ. «أنا متأكدٌ من أنهما يريدان الأفضلَ لكَ فقط، لكنّهما لم يتمكّنا من تحقيق الربح في المطعمِ، فما يمكنُ أن يفعلا؟ يجبُ أن يُجرِّبا شيئاً آخرَ».

«لكنْ، ما الداعي لأن يقطَعا هذه المسافَة كلَّها إلى تركيا»؟ قالت بيلي بغضَبٍ. «لماذا لا يحاولانِ القيامَ بشيءٍ آخرَ هنا في أوهوس»؟

ابتسمَت أمُّها. «الأمرُ ليسَ بهذهِ البساطةِ، يا حبيبَتي».

«بلى، إنَّهُ كذلك».

«لا يا بيلي. أؤكِدَ لكِ أنَّهُ ليسَ كذلك».

خيّمَ الصمتُ على المائدةِ.

«أخبرتني بيلي عن سعيكَ للعثورِ على الفضَّةِ المفقودةِ»، قال جوزيف بعدَ فترةٍ.

هزَّ علاءُ الدينِ رأسَهُ.

«مؤسفٌ أننا لم نصِلْ إلى أيِّ مكانٍ»، قالتْ بيلي.

«لكنكُما عثرْتما على دليلٍ، أليسَ كذلِكَ»؟ قالَت أمُّها.

أجابت بيلي مُتذمِّرَةً. «نعم، إنّما لا فائدةَ تُرجى منه. شيءٌ له علاقة بأوريون. نعم، لا فائدةَ منهُ».

مرةً أخرى تولَّدَ لدى علاءِ الدين شعورٌ قويٌّ بأنَّهُ سمعَ اسمَ أوريون في سياقٍ مُختلِفٍ. تناولَ قَضمةً أخرى من شطيرتِه. لم يَعُد العثورُ على الفِضَّةِ مُهمّاً الآن.

«عندما كنتُ صغيراً، كان لديَّ ببغاءٌ اسمُه أوريون»، قالَ جوزيف وهو يضحَكُ.

«لا يليقُ اسم أوريون بطائرٍ»، قالت بيلي بنبرةٍ مستهجنةٍ.

وعندئذٍ.

بمُجرّدِ أن خرجَتْ هذه الكلماتُ من فَمِ بيلي، تذكّرَ علاءُ الدينِ أينَ رأى اسمَ أوريون.

«أعرفُ مَن هوَ أوريون»، صاحَ. «وأعرفُ أينَ هيَ الفِضّةُ»!

٣٠

مِن بيتِ بيلي، يمكنُ أن يسلكَ المرءُ طريقاً مُختصراً عبرَ القريةِ إلى غيضَةٍ من أشجارِ الصّنوبَرِ الفارعة على الجانبِ الآخرِ منَ الطريقِ.

ركضَت بيلي وعلاءُ الدين بأقصى سرعتهما؛ لم يقُلْ أيٌّ منهُما شيئاً. الأصواتُ الوحيدةُ التي كانت مسموعةً اقتصرَت على همهمةِ الريحِ في أعالي الأشجارِ وضجيجِ حركةِ السَّيرِ وراءَ البُستانِ.

«إذن، إلى أينَ نحنُ ذاهبان»؟ قالت بيلي أخيراً عندما خفَّفا سرعتَهما واكتفيا بالمشي بعد أن ما عادا قادِرَينِ على الجري.

«إلى الكنيسة. سبقَ أن قلتُ لك».

«نعَم، لكنْ لماذا»؟

لم تكُن لدى علاءِ الدينِ النيّةُ أن يُطلعها على السّببِ. ليس قبل أن يتأكّدَ من أنّ تخمينَهُ صحيحٌ. لم تُسرّ والدةُ بيلي كثيراً عندما اندفعا يجريان. أو بشكلٍ أكثرَ دِقّةً، كانت غاضبةً جِداً.

«هل الأمرُ ملحٌّ إلى هذه الدرجةِ»؟ سألتهما. «يجبُ أن تذهبا إلى المدرسةِ!»

لكنّ اهتمامَ بيلي وعلاءَ الدين بالمدرسةِ لا يُمكِنُ أن يكون أقلّ مما هو عليهِ الآن؛ ما هما بِصدَده أهمّ بكثيرٍ.

يجبُ أن نلقيَ نظرةً أخرى على تلكَ الصّورِ»، قال علاءُ الدينِ. «أخبرتنا إيلا أنها ستترُكُها معَ الكاهنِ».

«ماذا إذا لم يكُنِ الكاهِنُ هناك»؟

«لا بدّ من أن يكونَ»، قال علاءُ الدينِ، آملاً أنه على صوابٍ.

وكانَ هناكَ، إنما ليس وحده في الكنيسةِ. كان معهُ أناسٌ كثيرون أيضاً. أناسٌ مُسِنُّون. وبدا أن الكاهنَ يقومُ بدورِ المرشِدِ السياحيّ ويأخذُهُم في جولةٍ، ويُحَدِّثُهم عن المنبرِ والأورغُن بصوتٍ عالٍ.

وقفتْ بيلي وعلاءُ الدين ساكنَيْنِ في المدخلِ، مأخوذَين تماماً.

وعندما دخلا، التفتَ عدّةُ أشخاص نحوهما، أما الكاهنُ فابتسم حالما رآهما.

«مزيدٌ من الزوارِ المفعمين بالنشاطِ، مشرِقينَ ومُبَكِّرين»، قال. «مرحى. اِجلسا رجاءً. لن أطيلَ عليكُما».

لم تكُنْ بيلي ولا علاءُ الدينِ معتادَين على الذّهابِ إلى الكنيسةِ؛ ولا ذويهما أيضاً. وعندما جلسَ علاءُ الدينِ على المقصورةِ الخشبيّةِ الصّلبَةِ بانتظارِ انتهاءِ الكاهنِ مِن جولتِهِ، تساءلَ لماذا لا تجعلُ الكنيسةُ الأشياءَ مريحةً أكثرَ للزوارِ على نحو ما. على سبيلِ المثالِ، لماذا لا تضَعُ صفوفاً مِنَ المقاعدِ مثلَ تلكَ التي تكون في دورِ السينما؟ ولماذا لا تبيعُ الفشارَ والحلوى ليتناولَها الناس بينما الكاهنُ يُلقي موعظته؟

ظلّت بيلي مستاءةً وعابسةً لأنَّ علاءَ الدينِ لم يُطلِعها على سببِ ذهابِهما إلى هناكَ. أما هو فلم يهتمّ؛ لم يشأ أن ينبس بكلمةٍ قبل أن يرَيا الصورَ. ثمَّ ستفهَمُ بيلي بنفسِها.

اِنتظرا بهدوءٍ وصَبرٍ. وعلى الرّغمِ من حقيقةِ أنَّ الانتظارَ شيءٌ مُمِلٌّ وغيرُ مُريحٍ، شعَرَ علاءُ الدينِ بأنهُ يحِبُّ وجودَهُ في الكنيسةِ.

إنَّها مُهدِّئةٌ للنفسِ بطريقةٍ ما. وبالنظرِ إلى حجمِ غضبهِ في وقتٍ أبكَرَ، رأى أنَّ من الجيِّدِ أن يسترخيَ بعضَ الوقتِ.

لن أنتقلَ، فكَّر في دخيلتهِ. ولا حتى من أجلِ جدّتي وجدّي.

أخيراً انتهَت الجولةُ السياحيةُ.

«تكادانِ في تجوالِكما تصبحان أكثرَ رُوادِ الكنيسةِ انتظاماً في أوهوس»، قال الكاهنُ وهو قادِمٌ. «كيف أستطيعُ أن أساعدَكُما هذهِ المرة»؟

شرحَ علاءُ الدينِ لماذا هما هناكَ.

«إذَن، قالتْ إيلا أنها ستتركُ الصورَ هنا»؟ قالَ الكاهنُ، وبدا أنَّهُ يُفكِّرُ بعُمقٍ. «في هذهِ الحالةِ، مِن الأفضلِ أن نذهبَ إلى مكتبي لنرى إذا كُنّا سنجِدُها».

كانَ المكتبُ أصغرَ مكتبٍ رآه علاءُ الدينِ في حياتِهِ؛ ولا يكادُ يتسعُ لثلاثتِهم.

«حسناً لنرى الآن. أين يُمكنُ أن تكونَ إيلا قد وضعَتِ الصُّورَ»؟ قالَ الكاهنُ.

«هناك»! ميّزت بيلي على الفورِ الصندوقَ الذي أحضرَتْهُ إيلا

معَها إلى المقهى؛ كانَ على أحدِ رفُوفِ الكتُبِ.

«أتَعنينَ هذا»؟ قالَ الكاهنُ، وهو يسلِّمُهما الصندوقَ.

ارتعشَتْ يدا علاءِ الدينِ عندما بدأ يفتَحُ الغِطاءَ.

«أريدُ أن أرى أنا أيضاً»، قالتْ بيلي بنفادِ صَبرٍ.

بحَثَ علاءُ الدينِ بعنايةٍ بينَ الصورِ، وفي النهايةِ وجدَ ضالتَهُ: الصورةَ المقرَّبةَ لكلبِ أورفار، التي التقطَها الكاهنُ لأنَّ أولادَه كانوا مُولعين بالكلبِ.

«أُنظري»، همَس، وهو يُمرِّرُ الصورةَ إلى بيلي.

نظرَت، ولم تفهَمِ المقصودَ.

أشار. «هنا. أُنظري إلى الاسمِ على طرَفِ الطَّوقِ».

سمعَ علاءُ الدين بيلي تشهَقُ.

أوريون. هذا ما تقولُهُ الكتابةُ.

بدونِ أن يكشفَ مِن أينَ حصلَ على المعلوماتِ، أخبرَ علاءُ الدين الكاهنَ أينَ هي الفِضّةُ.

«ولكنْ، كيفَ تعرِفُ كلَّ ذلِكَ»؟

«وعدْتُ بأنْ لا أقول»، قالَ علاءُ الدينِ.

«إذن، أورفار هو السارقُ بالتأكيدِ»؟ قالَ الكاهنُ.

هزَّ علاءُ الدينِ رأسَهُ. لقد وعدَ ماتس بأنْ يبقي أكبر قدرٍ من المعلوماتِ في طيّ الكمان، وعزم على الوفاءِ بوعدهِ. «أنا لم أقلْ أنَّ أورفار هوَ السارقُ. قلتُ فقط أنَّ الفضّةَ معَ الكلبِ».

سلَّم الصورةَ للكاهنِ. إذا عرفوا أينَ دفَن أورفار كلبَهُ المحبوبَ، فسيجِدونَ الفضّةَ أيضاً».

«كيفَ سنعرِفُ»؟ سألَت بيلي.

«أستطيعُ أن أساعدَكُما»، قالَ الكاهنُ بحماسةٍ. «إذا كنتُما لا تمانعان في الخروجِ قليلاً لأغيرَ ثيابي، يمكن أن أريكُما قبرَ أوريون».

عادَ علاءُ الدين وبيلي إلى قاعةِ الكنيسة؛ يبدو أنَّ الكاهنَ لم يُرِدْ الخروجَ والركضَ بردائِه الطويلِ بحثاً عن بقايا كلبٍ ميتٍ. وهذا مفهومٌ بالطبعِ، إلا أنهما كانا نافدَي الصَّبر لدرجة أنهما بقيا بصعوبةٍ هادئين وهُما ينتظران.

«تخيَّلْ فقط لو وجدنا الفضّة»! قالت بيلي.

«ألن يكونَ ذلكَ مُدهشاً»، وافقها علاءُ الدينِ.

نظرَت بيلي في ساعةِ يدِها. «سأتأخّرُ كثيراً».

«وأنا أيضاً، لكن في وسعي على الأقل أن أتحجّج بأنني كنتُ أفعلُ شيئاً له علاقة بالمدرسةِ». سيخلّف لدى مُعلمته أوسا انطباعاً قوياً جِدّاً إذا أنهى مشروعَهُ بالعثورِ على الفِضّةِ المفقودةِ.

«سيمونا تفوّتُ كلَّ هذا»، قالتْ بيلي.

ابتسمَ علاءُ الدينِ. «ستغضَبُ كثيراً».

ظهرَ الكاهنُ؛ وبدا التعرُّفُ إليهِ صعباً تقريباً. كان يرتدي معطفاً شتوياً ثقيلاً وقبعةً كبيرةً من الفراءِ، ويحمِلُ في يدِهِ مِجرَفةً.

«كيف سنحفرُ في هذا البرد القارسِ»؟ تساءلَ علاءُ الدينِ. «ألن تكونَ الأرضُ مُتجمِّدةً»؟

«سترى»، أجابَ الكاهن. وقادَ الطريقَ إلى خارجِ الكنيسةِ وعبرَ المِقبَرةِ، يتبعُهُ علاءُ الدينِ ثُمّ بيلي.

كانَ الثلاثَةُ مشغولي الذهنِ بحيث لم يشاهدوا الصبيَّ ذا السروالِ القصيرِ، الذي كانَ يسترِقُ النظرَ إليهِم مِن وراءِ زاويةِ المبنى، راقبَهُم وهم يغادرون فناءَ الكنيسةِ ويُتابعون المشي إلى بيتِ الكاهنِ.

«هنا أسكُنُ أنا وعائلتي»، أوضحَ الكاهنُ عندما وصلوا.

«وهنا عاشَ أسلافي وعائلاتهِم. وعندما ماتَ كلبُ أورفار، حزِنَ أولادُ الكاهنِ كثيراً، ولذلكَ وافقَ أورفار على أن يدفنوه في حديقتِهم. هُنا، حتى أكونَ دقيقاً».

وقفَ الكاهنُ تحتَ شجرةٍ، حيثُ كان أحدٌ ما قد غرسَ صليباً حَديدياً في الأرضِ.

«لم يفكِّرْ أحدٌ أبداً في نقلِ القبرِ؛ بقيَ على حالهِ من غيرِ أن يُمسّ طوال هذه السنواتِ».

كانتْ الأرضُ مُغطّاةً تماماً بالثلجِ. ونظرَ علاءُ الدينِ إلى المِجرفَةِ بِشَكٍّ. كيفَ بِحقِّ اللهِ سيتمكّنونَ مِن الحفرِ عندما يبدو كلُّ شيءٍ مُتجمّداً وصلباً؟

لكنّهُ حصلَ على جوابٍ لسؤالهِ عندما نحّى الكاهنُ الثلجَ كاشفاً عن كومَةٍ مِنَ الحِجارةِ.

«إذا كنتُ مُصيباً، فأوريون مدفونٌ تحتَ حجارةٍ، وليسَ تحتَ التُّراب»، قال.

ضربَ كومَةَ الحجارةِ بِمجرَفتِه وحلحلَ العديدَ منها. توقَّفَ برهةً ونظرَ إلى بيلي وعلاءِ الدينِ، وقد ارتسمَ على وجهِهِ تعبيرٌ جادٌّ.

«سنزيحُ الحجارةَ ونرى ما تحتَها. وإذا لم نعثُرْ على شيءٍ، سنُحاولُ مرّةً أخرى في الربيعِ، عندما تُصبِحُ الأرضُ طريةً. هل هذا جيِّدٌ»؟

هزّا رأسيهِما بعصبيّة.

بدأ الكاهنُ يرفع الحجارة المتكوّمة، ونقلها علاءُ الدينِ وبيلي إلى الجانبِ. وفي النهايةِ بقِيَ القليلُ مِنها فحَسْب.

رفَعُوها بحذرٍ، ثم انحنى الثلاثةُ وأمعنوا النظرَ في الأرضِ. لم يكُنْ هناكَ ما يمكنُ أن يُرى.

اجتاحتْ علاءَ الدينِ موجَةٌ من خيبَةِ الأملِ. كانَ يتوقَّعُ أن يجِدَ الفضَّةَ هناكَ في انتظارِه! لا شكَّ في أنَّ أقاربَ ماتس قرأوا الوصيَّةَ، وعرفوا مَن هُوَ أوريون، واسترجَعوا الفِضَّةَ.

تحسَّسَ الكاهنُ الأرضَ بمِجرَفتِه في عدَّةِ أماكنَ؛ وكانت قاسيةً كالصَّخرِ على نحوٍ مينوسٍ مِنها. إلا في بُقعَةٍ مُعيَّنةٍ، حيث استطاعَ أن يزيلَ كومةً صغيرةً من الترابِ. وتصلَّبَ علاءُ الدينِ مِنَ الإثارةِ، لأنه رأى هناكَ، منبثقةً من باطنِ الأرضِ، قطعةً مِن بقايا نسيجٍ ما.

استقامَ الكاهنُ. «أُنظرا»، قال. «كيسٌ قَديمٌ».

«اِسحَبْهُ»! هتفَ علاءُ الدين.

«سأحاوِلُ. أنا قلِقٌ قليلاً في حالِ...».

«في حالِ ماذا»؟ قالَت بيلي.

«في حالَ كانَ الكلبُ في الكيسِ».

«نستطيعُ أن نُلقي نظرةً فقط»، قال علاءُ الدين. «أو نتحسَّسَ. لا داعي لأن نخرجَ الكيسَ كلَّهِ».

وافقَ الكاهنُ. وباستخدامِ المجرفةِ، كشفَ عن جُزءٍ إضافيٍّ صغيرٍ منَ الكيسِ، ثمَّ جثَمَ وتحسَّسَهُ.

استدارَ ببُطءٍ ونظرَ إلى بيلي وعلاءِ الدينِ. «لا أكادُ أُصَدِّقُ». قالَ. «لكنَّني أظنُّ أننا وجدنا الفِضَّةَ المفقودةَ».

فتحَ فجوةً في النَّسيجِ بأصابعِهِ. وجلسَ علاءُ الدينِ وبيلي القرفُصاءَ قربَه؛ ثمَّ جثمَ علاءُ الدينِ على ركبتَيهِ في الثلجِ، مُحاولاً أن يستشفَّ ما في الكيسِ.

«انتظِر»، استمهلَه الكاهنُ.

أخرجَ علبَةَ ثِقابٍ من جيبِهِ؛ وصدَرَ صوتُ طقطقَةٍ عندما أشعلَ عوداً، وقرَّبَ اللهبَ مِنَ النَّسيجِ بقدرِ ما استطاعَ بحيثُ لا

يتسبّبُ بإشعالِهِ.

«الآنَ أُنظُر»، قالَ لعلاءِ الدينِ.

حدَّقَ علاءُ الدينِ في داخلِ الكيسِ، ولم يُصدِّق عينيهِ عندما رأى وميضَ معدنٍ قديمٍ بهتَ لونُه.

٣١

جلسوا في منزلِ الكاهنِ ينظرون إلى الفضّةِ. كان قد فرشَ أوراقَ الصُّحُفِ على الطاولةِ، ووضعَ كيسَ الفضّةِ عليها. ما كان يمكن إلا بصعوبة أن يُقالَ إنها فضّةٌ، فمرورُ كلّ هذه السنوات عليها في الأرض أضرّ بها وجعلَها داكنةَ اللونِ. وتساءلَ علاءُ الدينِ عمّا يُمكِنُ فِعلُهُ بمثلِ هذهِ القطعِ القديمةِ.

«يجبُ أن أتحدّثَ مع مجلسِ الكنيسةِ»، أوضحَ الكاهنُ. «أعرفُ أنَّ هذا حدثَ منذُ زمنٍ بعيدٍ طويلٍ، ولكنَّ الكنيسةَ كانت قد دفعَت فعلاً ثمنَ مُعظَمِ هذِه الموادِ. لا أعرفُ ما سيحدُثُ لاحِقاً، لكنَّكُما بالتأكيدِ ستحصُلان على مُكافأةٍ».

بدَتْ فكرةُ المكافأةِ جيدةً، إنما ليس من المرجّح أنها تكفي لإقناعِ والدَيّ علاءِ الدينِ بالبقاءِ في أوهوس. ليسَ ما داما قد قرّرا الرحيلَ مُسبقاً. وسرعانَ ما همدَت فرحةُ علاءِ الدين وحماستُه. عندما يعودُ إلى بيتهِ، سيكونُ كلُّ شيءٍ كما كانَ علَيهِ في هذا الصباحِ تماماً؛ بائِساً وفَظيعاً.

جلبَت لهُم زوجةُ الكاهنِ العصيرَ والبسكويتَ، ورووا لها قصةَ عثورِهِم على الفضّةِ المفقودةِ.

«وما زلتَ ترفضُ إخباري مَن كانَ اللصُّ»؟ قالَ الكاهنُ وهو يلقي نظرةً على الفِضّة.

هزّ علاءُ الدينِ رأسَه يمنةً ويسرَةً.

«حسناً. بالمناسبةِ، لا تنسيا أن تُخبرا إيلا بما حدَثَ».

أخيراً حانَ وقتُ العودةِ إلى البيتِ. وعدَهما الكاهنُ بالاتصالِ بمجرّدِ أن يعرفَ مصيرَ الفِضّةِ.

غادرَتْ بيلي وعلاءُ الدين حديقةَ الكاهنِ بصَمتٍ.

«أتودّ أن أرافقكَ»؟ سألَت بيلي.

«لا. شُكراً على العرضِ. أنا على ما يُرامُ».

«أكيد»؟

«بالتأكيدِ»!

عليه أن يُسرِعَ إلى البيتِ؛ لا بدَّ من أنَّ والدتَهُ تتساءلُ أينَ هو، تماماً مثلَ مُعلمته أوسا.

«أنتَ تعرفُ أنكَ تستطيعُ أن تأتيَ وتعيشَ معنا إذا قرَّرَ والداكَ الرحيل»، قالت بيلي بجَدِّيَّةٍ.

هزَّ علاءُ الدينِ رأسَهُ. كانَ السُّؤالُ: أيريدُ هو أنْ يفعلَ ذلكَ؟ أم أنَّ من الأفضلِ أن يبقى مع أمِّهِ وأبيه، أينما كانا؟ فكَّرَ في الطِّفلَينِ في قَبوِ ماتس. لم يبدُوا سعيدَينِ هناك.

«سأتصِلُ بكِ في المساءِ»، قال لبيلي.

ثم استدارَ واتجهَ نحوَ البُرجِ.

كان المكانُ هادئاً جداً عندما عادَ إلى البيتِ. لعلَّ أمَّه قد خرجَت. تنقَّل بسُرعةٍ من غُرفةٍ إلى غُرفةٍ، حتى وجدَها أخيراً في المطعمِ تشربُ فنجاناً مِنَ القهوةِ.

«مرحباً»، قالَ.

«مرحباً».

سحبَ مِقعداً وجلسَ. «أعتذرُ لأنني غادرتُ هكذا»، قالَ بهُدوءٍ.

داعبَتْ والدتُه الكوبَ بأصابِعِها. «أنا مَن يجدرُ بها الاعتذار»، قالتْ. «لأنّني لم أستمِعْ إليكَ، ولأنّنا أنا ووالدكَ لم نُصْدِقكَ القولَ».

أخذَت نفَساً عميقاً، وانتظرَ علاءُ الدينِ حديثَها بفارغِ الصَّبرِ.

«اتصلتُ بوالدِك»، قالتْ ببطءٍ. «لن نتخذَ أيَّ قرارٍ بخصوصِ الرحيلِ قبل أن نتحدَّثَ معَ والدِ سيمونا. إذا كان قادراً على مساعدتِنا، فربّما نتمكّنُ من البقاءِ هنا في أوهوس. وإذا لم...».

صمتَت برهة. «إذا لم يفعَل، يكونُ علينا عندئذٍ أن ننظُرَ في الخياراتِ الأخرى، لأننا لا نستطيعُ أنْ نستمرّ هكذا. لا أستطيعُ أنا وأبوك أن نعملَ طوالَ الوقتِ؛ فنحن لا نراكَ أبداً. كما أننا لا نستطيعُ أن نعيشَ بقلقٍ دائمٍ خشيةَ أن تنفدَ نقودُنا. لم يكُنْ الوضعُ هكذا في الماضي مطلقاً، ولن يكونَ كذلكَ الآن. أتفهمُ ما أقولُ»؟

هزَّ علاءُ الدينِ رأسَهُ. «أفهَمُ».

ربّتت والدتُهُ ذراعِهِ. «والآن، أينَ كنتَ»؟

بشّ وجهُهُ. «في منزلِ الكاهنِ»، قالَ.

«ماذا بحقّ اللهِ...؟» بدأتْ أمُّهُ.

«هذهِ هيَ الحقيقةُ! وخمّني ما حصَلَ؟ لقد وجدناها. وجدنا الفضّةَ المفقودَةَ»!

انفجرَت والدتُه بالضّحِكِ، حتى بدَت كما لو أنّها على وشك أن تبكي. «إنكَ مثلَ أبيكَ»، قالتْ. «تعتقدُ أنّ لا شيءَ مُستحيلٌ».

احمرّ وجهُ علاءِ الدينِ. بعضُ الأشياءِ تكونُ صعبَةً، وبعضُها تكونُ سهلَةً. أما أن تكونَ مُستحيلَةً... فلا، لا يكادُ يكون هناكَ شيءٌ مُستحيلٌ.

٣٢

كانَوا في شهرَ ديسمبر. وقريباً تهلّ الأعيادُ. ذابَ الثلجُ، وسالَ في الطّرقات. أنهى علاءُ الدينِ مشروعَهُ المدرسيَّ عن الفضّةِ المفقودةِ؛ وقادتْ معلمَتُهُ جوقة التصفيقِ عندما وقفَ أمامَ الصفِّ وروى للجميعِ ما حدَثَ.

«يا لَها مِن حكايةٍ»! هتفَت أوسا.

مرَّتِ الأسابيعُ منذُ أن أخرَجوا الكيسَ مِن حديقةِ الكاهنِ. وقرّرتِ الكنيسةُ الاحتفاظَ بالقِطَعِ الفضّيةِ؛ وتلقّى علاءُ الدين وبيلي مكافأةً سخيَّةً، وتقاسَماها.

لم يكُن علاءُ الدين قد قرّر ما ينوي فِعله بالنقود بعدُ. ربما

يشتري أكبرَ نموذجِ طائرةٍ يستطيعُ أن يقتنيهِ.

عادَ والدُه من تركيا. وكانَ والدُ سيمونا على اتصالٍ، وأرادَ أن يُبرِمَ عقداً بينَ مطعمِ التركيِّ في البُرج وبينَ شركتِهِ لشراء وجبات الطّعام.

وواصلَ والدا علاءِ الدين الحديثَ عمّا ينبغي أن يفعلاه، مرةً تلوَ المرةِ. في البدايةِ، أرادَ الأبُ أن يعودوا إلى تركيا، لكنَّهُ تذكَّرَ بعدَ بضعةِ أيامٍ كَم يُحِبُّ أوهوس، وما لبثَت ثِقتُه بقرارِه أن تزعزعت.

في النهايةِ قرَّرَ البقاءَ لفترةٍ أُخرى.

«لكنَّ هناكَ شيئاً لا بدّ من أن تفهمَهُ يا علاءَ الدينِ»، قال والدُه بحزمٍ. «نحن لا يمكن أن نعيشَ على الهواء. إذا لم يعملِ المطعَمُ هنا في أوهوس، فيتحتّم علينا التفكيرُ في شَيءٍ آخَر. ربما نُضطَرُّ إلى المغادرةِ، ويجب أن ننظرَ إلى إمكانيةِ عودتِنا إلى تركيا كشَيءٍ إيجابي. لا يملكُ الناس كلّهم خيار الاستقرار في بلدَين».

اضطُرَّ الناسُ في مركبِ اللاجئين إلى الرحيلِ. لَم يستطِيعوا البقاءَ هناكَ بعدَ الحريقِ. ووفقاً للصحيفةِ، أصبحوا يعيشونَ في شُقَقٍ سكنيّةٍ في كريستيانستاد مؤقتاً بينما هم ينتظرونَ ليعرفوا ما

إذا كان سيُسمَحُ لهُم بالبقاءِ في السُّويد.

اختفى المركبُ ببساطةٍ، بمجرّدِ رحليهم. رآهُ رجلٌ يتمشّى مع كلبهِ وهو يُبحِرُ مُبتعِداً في مُنتصَفِ الليلِ. تماماً كما حدَثَ عندما ظهرَ أوّلَ الأمرِ في الميناءِ.

ولم يكُنْ مركبُ اللاجئينَ هو الذي اختفى فحَسب؛ بل ذهب أيضاً الطّفلان اللذان كان ماتس يَستضيفهما، واستقرّا مع والديهما في كريستيانستاد. وعندما اعترفَ ماتس بكلِّ شَيء، أراد والدُ علاءِ الدين أن يطردَه، لكنَّ علاءَ الدين دافعَ عنه.

لم يسرِقْ ماتس الطعامَ لنفسهِ، وإنما أخذَه ليُعطيهِ للآخرين.

«القضيةُ لا تتعلّقُ بالذين أعطاهُم ماتس الطعامَ»، قال والدُ علاءِ الدينِ. «بل تتعلّقُ بحقيقةِ أننا لا نستطيعُ أن نثقَ بهِ بعدَ الآن. كان يجدر به أن يأتيَ إلينا ويشرحَ الوضعَ، وكُنا سنُعطيهِ الطعامَ. ربما ليسَ بالقدرِ الذي كانَ يأخذُه، ولكنْ بأيِّ قَدرٍ يناسِبنا».

«لكنَّهُ لم يكُن متأكداً من ذلكَ»، قال علاءُ الدين مُحتجّاً.

في النهايةِ قرّروا أن يبقى ماتس، لكنَّ علاءَ الدين لاحظَ أن

والدَه ينظرُ إلى ماتس بشَكٌّ بينَ الحينِ والآخرِ.

«وإذن، وجدنا الفضّة، ومركبُ اللاجئينَ رحل، وقبضنا على سارقِ الطعام»، لخَّصَت بيلي الموقِفَ، «وأفضلُ ما في الأمرِ أنكُم باقون في أوهوس! لقد عادَ كلُّ شيءٍ إلى سياقِه الطَّبيعي».

كانا في طريقهما إلى منزلِ إيلا ليعيدا لها الصورَ التي استعاراها. كانَ في وسعِهِما أن يتركاها في الكنيسةِ، إلا أن إيلا كانَتْ لطيفةً للغاية بحيثُ رغِبا حقّاً في رؤيتها.

هذا إضافةً إلى شعورِهما بالفضولِ ليعرفا رأيها بخصوصِ ما سيفعلُه صبيُّ الفضّةِ الآن بعدَ العثورِ على الفضّةِ المفقودةِ.

«أعتقدُ أنَّ روحَهُ وجدَت السلامَ الآن»، قالت إيلا بنبرةٍ متيقّنةٍ.

كانوا يقفونَ في المدخلِ. وتبادل علاءُ الدينِ وبيلي النَّظرَ.

«لنْ يبقى هنا في أوهوس بعدَ الآن»، أردفَت إيلا. «ليسَ بعدَ أن عادتِ الفضّةُ إلى مالِكِها الحقيقيِّ».

«لا»، قالَ علاءُ الدينِ؛ مع أنه في الواقعِ لم يكن يدري ما يقولُ.

«أنتَ مُتأكِّدٌ من أنكَ لم ترَهُ مطلقاً»، سألته إيلا وهي تُضيِّقُ عينَيها.

هزَّ علاءُ الدينِ رأسَهُ بسُرعةٍ. «طبعاً لمْ أفعلْ».

«اِنتظِرا هنا»، قالت إيلا. واختفَت، ثم عادَت وهيَ تحملُ صورةً بالأبيضِ والأسوَدِ في يدِها.

«عثرتُ على صورةٍ لصبيِّ الفِضَّةِ؛ ابن أورفار»، قالتْ. «كانتْ في صندوقٍ قديمٍ لم تسنح لي الفرصة لأتفقَّدَه».

ناولَت علاءَ الدين الصورةَ. «أما زلتَ متأكِّداً من أنكَ لم ترَه»؟

كان الصبيُّ في الصورةِ يلبسُ سِروالاً قصيراً وكنزةً مُخطَّطة. ابتلعَ علاءُ الدينِ ريقَهُ بصُعوبَةٍ، عدَّةَ مراتٍ، لأنَّ الصبيَّ بدا شديدَ الشبهِ بذاك الذي رآهُ في الحديقةِ وعلى درَجِ الكنيسةِ. الصبيُّ الذي لا آثار أقدامٍ له على الثلْجِ.

ليته فقط يتأكّد، يتأكّد بحقٍّ، من أنَّ الثلجَ المتساقط هو ما حجبَ آثارَ أقدامِهِ ببساطةٍ.

أنا لا أعرفُ حقاً، فكَّر. لا أعرفُ أكان ذاك بنيامين الذي عاش فترة مع ماتس، أم كان صبيَّ الفضَّة، أم كلاهما.

وخطرَ في بالِهِ لأولِ مرّةٍ أنهُ لم يكُنْ بالضرورةِ يرى الصبيَّ

نفسَهُ في كلِّ مرةٍ، ومع ذلك قالَ لإيلا: «أنا متأكِّد. لم أرَهُ مُطلقاً».

بدَت خائبةَ الأملِ. «آه، حسناً. ما دمتَ تقولُ ذلِك».

وبينما هما يُغادران، نظرَت بيلي إلَيهِ.

«لستَ مُتأكِّداً، أليسَ كذلِك»؟

«مِن ماذا»؟

«ما إذا كانَ الصبيُّ ذو السروالِ القصيرِ واحداً من اللاجئين، أو أنّهُ كانَ صبيَّ الفضّةِ».

فكَّرَ علاءُ الدينِ لحظةً وأجابَ. «أعتقدُ أنَّ من رأيتُه كانَ الصبيَّ منَ قبوِ ماتس. ولكنْ، لا. لستُ واثقاً تماماً».

مرَّ طائرٌ أسودُ كبيرٌ قربهما، ثمّ استقرَّ على قمّةِ إحدى أشجارِ الصَّنوبَر.

«ولا أنا أيضاً»، اعترفَت بيلي.

عبرا الجسرَ الصغيرَ فوقَ النهرِ بصَمْتٍ. نظرَ علاءُ الدينِ إلى اليمينِ واليَسار، ولم يلمح أثراً للصبيِّ ذي السروالِ القصيرِ.

قرّر أنَّ ذلكَ لم يعُد مُهمّاً بعد الآن. إذا كانَ الصبيُّ مِن مركبِ اللاجئينَ، فلديهِ الآنَ مكانٌ يعيشُ فيه. وإذا كانَ صبيَّ الفضَّةِ، فقد

حصلَ على ما أرادَ، بعد أن عثرَ علاءُ الدين وبيلي على الفضّةِ، ولم يقولا لأحدٍ كلمةً واحدةً عن رسالةِ أورفار واعترافِه. كان ماتس على حقٍّ. يمكن أن يبقى شيءٌ حدَثَ قبلَ مئة سنةٍ مضت، حيثُ هوَ.

سارا صوبَ السّاحةِ ومقهى كرينغلان. كان الأمرُ بالضّبطِ كما قالت بيلي. كلُّ شيءٍ عادَ إلى سياقِه الطّبيعي.

وتبعَهُما الصبيُّ ذو السروالِ القصيرِ لمرّةٍ واحدَةٍ أخيرَةٍ.

لم تلاحظْهُ بيلي ولا علاءُ الدينِ. ربّما تساءلَ في سرّهِ عمّا إذا يمكنُ أن يقولَ شيئاً لهما، لكنّهُ لم يفعَلْ. وبدلاً مِن ذلكَ انعطفَ نحو فِناءِ الكنيسةِ. وسارَ مُسرعاً، ثم اختفى وراء زاوية الكنيسةِ.

ولم يكُنْ هناكَ أيُّ شيء يدلّ على وجودِ آثارِ أقدامٍ في الثلجِ.



عندما تبدأ الأشياء بالاختفاء من مطعم والديّ علاء الدين ، يقرر علاء الدين وصديقته بيلي التحقيق في سبب اختفائها . ويلاحظ علاء الدين صبياً يرتدي سروالاً قصيراً يحوم دائما ً حول المكان -على الرغم من الثلج وبرد الشتاء المجمِّد . هل يمكن أن يكون هو الذي يأخذ الأشياء؟ ولكن ، كلما حاول علاء الدين مواجهته ، كان الصبي يختفي دائماً في اللحظة الأخيرة -دون أن يترك أي أثر خلفَه على الثلج الطريّ .

كان علاء الدين وبيلي مقتنعين بأنه لا وجود للأشباح ، لكنهما أصبحا الآن غير متأكدَين من ذلك . ولذلك قررا السهر ومراقبة المطعم ليلة كاملة ، والتقيا بالكثير الأشخاص وبحثا في الصور والوثائق ، ليقودهما التحقيق في النهاية إلى أسطورة محلية -أسطورة صبيٍّ الفضة- الذي مات منذ أكثر من ١٠٠ سنة .

صدر للكاتبة سابقا عن دار المنى الأطفال الزجاجيون والذي نال جائزة الأكاديمية السويدية لأدب الفتيان .


ISBN 978-91-87333-67-5

دار المنى